مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الأَعْرَافِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الأعراف

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

سورة الأعراف

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ابتدأت سابع سور القرآن الكريم بِمِثِل ما بدأت به سورة البقرة؛ وسورة آل عمران؛ من الحروف المقطعة، قال تعالى ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ وهي أربعة حروف مقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام أربعة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر هذا البناء اللفظي بباله. مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعدها. وأما عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، ونؤمن بها، ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها، فقد ذكرها ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى وغيره.

ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقر بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[١]

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم.[٢]

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، ليُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٣] وهذا يُفيد

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

(٢) المرجع السابق (١٠٩/١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه وشد ذهن المتعلم لما يُراد تعليمه إياه، وإخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

وبعد قوله تعالى ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ قرر الله تبارك وتعالى إثبات نزول كتابه القرآن العظيم ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ فهذا القرآن يا أيها النبي أنزله الله تبارك وتعالى إليك، وفي هذا إثبات نزول القرآن العظيم على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾ فلا تتحرج من الإنذار بالقرآن، وإبلاغه لهم، خوفاً من أذية بعضهم لك. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: فلا يكن في صدرك ضيق منه: من إبلاغه إلى الناس، مخافة أن يكذبوك ويؤذوك؛ فإن الله حافظك وناصرك[١] لأنه صلى الله عليه وسلم كان يخاف قومه، وتكذيبهم له[٢] وقيل أن: المراد لا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا به، ولم يستجيبوا لك[٣] وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: ومعناه نفي الحرج عنه، أي: لا يضيق صدرك ألا يؤمنوا به، فإنما عليك البلاغ، وليس عليك سوى الإنذار به من شيء من إيمانهم[٤] وقيل هو دعاء، وقيل هو حُكْمٌ من الله تعالى نحو قوله عَزَّ وجل في سورة الشرح ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ ﴾[٥] وقد جمع السياق الكريم تلك الدلالات المتظافرة، والتي أفادت وبينت جزالة أسلوب القرآن الكريم وبلاغته، إذ أعطى النص الكريم دلائل متعاضدة ومتوافقة بأقل الألفاظ، ويستوعبها هذا البيان الكريم.

وفي قوله تعالى ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾ بيان لعمق علم الله تعالى بما يختلج في النفوس، فقد علم الله تعالى ما هو فيه صلى الله عليه وسلم من ضيق الصدر والحرج لقاء ما يواجه من صدود وأذى قومه له عليه الصلاة والسلام، فواساه الله تعالى بعلمه وإحاطته لما يضيق صدره به، مما يقوي عزيمته، لاستشعاره بمعية الله تعالى له، وأنه مُطَّلِع على مشاعر نفسه، وعلى سلوك قومه، وأفعالهم وما تكن صدورهم، وما يمكرون ويخططون له، ومع ذلك ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾ بل استمر في إبلاغه ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ كما أن في هذا إثبات بشريته صلى الله عليه وسلم، من أنه يحصل له ما قد يحصل لغيره من الضيق

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٨٧/٢)
(٢) الزمخشري، الكشاف (٨٤/٢)
(٣) الشوكاني، فتح القدير (١٨٧/٢)
(٤) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٤/٧)
(٥) الراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (١١٣)

والحرج، ولكن الله تعالى يقويه ويثبته، فقد أَمَّنَهُ اللهُ تعالى بهذا التوجيه الكريم، ونهاه عن الاكتراث والمبالاة بما يقولون ويفعلون، حتى يكون في تَحَمّله لتلك المشاق العظيمة وصبره على تكذيب قومه وأذاهم له آية من آيات الله تعالى لنبوته. مما يعلم المؤمن الصبر على أذى غيره له، خاصة في مجال النصح والإرشاد، والتعليم، والدعوة إلى الله تعالى.

وقد بين الله تعالى علة ضيق صدره صلى الله عليه وسلم في سورة الحجر ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ مما يفيد أنه بلغ به صلى الله عليه وسلم من صدود قومه له وإيذائهم له، أن ضاق صدره من قولهم له، ولكن مع ذلك يصبر ويحتسب، ويقويه الله تعالى بما قال عَزَّ وجل ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ وقوله تعالى في سورة الشرح ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ وبما هو مِثْلُ ذلك من التوجيه والإرشاد، فيزداد بذلك صلى الله عليه وسلم طمأنينة وأُنْسَاً. فسبحان الله العظيم الكريم.

فإن هذه المنهجية العملية تقدم قاعدة عظيمة في الصبر، وتعطي الداعية لله تعالى والمربي والموجه وفاعل الخير فيما يواجهون من صعوبات مثلاً عملياً في الثبات والتأسي، فيجب الاقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم، وأن يكون توجيه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم هو توجيه لأمته في كل منشط يجدون فيه من العدو تخذيلاً وعداوة، أو مشقة في الأداء. وأن الداعية للخير يحتاج إلى من يعينه ويشجعه ويذكره بمثل ذلك، لما فيه من تقوية العزيمة، وتنشيط الهمة نحو الخير.

وجملة ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ بيان ودليل على مضمون القرآن الكريم، بأنه متضمن للوعيد، والبيان الشديد الذي ليس هناك أبلغ منه في الإنذار. وأما المؤمنون فهو ذكرى لهم ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فليس مضمونه للإنذار فقط، بل فيه للمؤمنين ما يذكرهم بكل خير، من البشرى، ومن المواعظ والعبر، والتشريع والتوجيه وبيان الخير ومكارم الأخلاق الذي ينتفع بها المؤمن في الدنيا والآخرة، وكذلك البشارة بالمغفرة والجنة؛ وعظيم الأجر، وحُسن المآب.

ومن مزيد الفوائد البيانية أن في ارتباط دلالة قوله تعالى ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ بما قبله ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ ما يبين أن الحرج متعلق بمجال ومهمة الدعوة، وما يواجه صلى الله عليه وسلم من عداوة قومه له، وأن في الأمر بالإنذار ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ ما يفيد الصبر على المواجهة، وتحمل الصعاب في ذلك، مما يدل على أن في الدعوة إلى الله تعالى مصاعب ومخاوف من أذى المؤذين، وأنه قد يضيق الصدر بذلك، مما

يلزم العزيمة، واستحضار قوله تعالى ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ وإن حصل شيء من الحرج في الصدر، قاومه بالعزيمة والصبر طاعة لله تعالى.

فيفيد قوله تعالى ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾ أن لا يكن في صدرك أيها النبي حرج من أن يردوا القرآن، ويؤذوك بسبب قيامك بإنذارهم به، فاستمر على ذلك. وقد يرجع الضمير للقرآن كقول القائل: فلا يكن في صدرك حرج من كلامك لهم، بأن لا يَقْبَلُوه، فليس الحرج من ذات الكلام الذي يقوله لهم، ولكن من أثر ردة فعلهم. كمثل الشخص الذي يتحرج من قول نصيحة لأحد خوفاً من ردهم السيء.

ومن جميل الترتيب أنه بعد معالجة ما يتعلق بقضية الحرج، وجَّه اللهُ تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن يخاطب المشركين بقوله عَزَّ وجل ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك الذين يعبدون الأوثان والأصنام: اتبعوا أيها الناس البينات والهدى التي جاءتكم من عند ربكم، واعملوا بما أمركم به ربكم، ولا تتبعوا شيئاً من دونه، أي شيئاً غير ما أَنْزَلَ إليكم رَبُّكُم ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ ولا تتبعوا أمر أوليائكم الذين يأمرونكم أن تشركوا بالله، وعبادة الأوثان، فإنهم يضلونكم ولا يهدونكم[١] ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ قليلاً ما تتعظون وتعتبرون، فتراجعون الحق[٢] مما يبين أن تَذَكّرَهم واعتبارهم يحمل صفة القلة. ومع ذلك يلزم الداعية والناصح والمرشد والمعلم والموجه ألا ينظر للكثرة، ولا يثنيه ولا يعيق مساره قلة من يهتدون، بل ينظر لطاعة الله تعالى وامتثاله لها فيما يقوم به، فقد لا يتحقق منه ما يأمله ويتوقعه، فعليه أن لا يكترث بذلك، لأن ثوابه مرهون بعمله وإخلاصه؛ لا بعدد من أطاعه، وإن كان في كثرتهم خير.

وقوله تعالى ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ يعطي قاعدة عظيمة، بأن لا تتولوا من دون الله تعالى فكراً ولا منهجاً فيحملكم على مسلك الضلال، فإن المسالك المخالفة لدين الله تعالى تجر المتتبع لها إلى غير هدى الله تعالى، مما يوجب الحذر والوقاية. وبهذا تكون النجاة والفلاح في اتباع منهج الله تعالى، فإنه يهدي للتي هي أقوم: في الإيمان والأخلاق والمعاملات والأحكام وعموم التشريع، وغيرها من مسالك الخير والنجاة، ليصل بهديه تعالى إلى مرضاته عَزَّ وجل وإلى جنات النعيم. كما تضمن هذا النص الكريم أمراً ونهياً بما يفيد التأكيد والتحرز، مع قوة البيان ووضوحه، فالأمر متعلق بما يجب العمل به

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٦/١٠)

(٢) المرجع السابق (٥٧/١٠)

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ والنهي متعلق بما يجب اجتنابه نهائياً ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ فبذلك تم حصر المطلوب بما لا يدع مجالاً لغير إلا للالتزام.

﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩ ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى التنويه التحذيري والبياني عن قدرة الله تعالى في معاقبة الأمة من الناس بأشد العقاب إذا استفاض واستعظم بطرها واستكبارها وعصيانها، وضرب الله تعالى بذلك مثلاً بما حصل لبعض الأمم السابقة ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴾ فكثير من القرى الظالمة أهلكناهم وأبدناهم ﴿ فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴾ فكان وقت عذابهم في أحد الوقتين من راحتهم ليلاً أو نهاراً ﴿ فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا ﴾ أي: فقد جاءهم عذاب الله تعالى وقت تواجدهم وهدوئهم وراحتهم في منازلهم، وسماه عزَّ وجل بأساً، ليبين شدته وقوته، وهو العذاب الشديد، كما نسبه إليه سبحانه وتعالى ﴿ بَأۡسُنَا ﴾ تعظيماً له، وبياناً لقدرته وقوته، ولقوة ذلك العذاب، وتحذيراً لغيرهم من مثله، وكان ذلك العذاب ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أي: ليلاً، وقت بيتوتتهم، ومن العذاب ما كان نهاراً ﴿ أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴾ وقت قيلولتهم، التي هي وقت نومتهم وراحتهم في النهار. والمتأمل أن كلا وقتي العذاب جاءهم وقت استغراقهم في الراحة والطمأنينة والهدوء، سواء كان ليلاً أو كان نهاراً، ليكون وقعه على النفس أشد فزعاً وألماً، فنسأل الله تعالى العافية.

وقد بدأ البيان الكريم بقوله تعالى ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ ﴾ ليفيد شد الانتباه، بأنها ليست قرية واحدة، بل عدد كثير من القرى، لأن **(كم)** تفيد بيان الكثرة، كما أن: رُبَّ، تفيد التقليل، مثل: ربما سافر فلان. ومن دقائق البيان أن نُسِبَ مَنْ وقع عليهم العذاب إلى المكان، وهي القرية ﴿ قَرۡيَةٍ ﴾ ليفيد كثرة الهالكين بالعذاب، بأنهم يمثلون المكان الذي جمعهم، وكذلك تضمن السياق الاستغناء عَمَّا ليس لذكره حاجة، فأغنت كلمة ﴿ قَرۡيَةٍ ﴾ عن ذكر أهلها، فلم يقل: كم من قرية أهلكنا أهلها، بل قال تعالى ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا ﴾

وهذا من بلاغة الإعجاز البياني الذي يستغني فيه عن زوائد الألفاظ. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: والقرى: لا تُسمَّى قُرَى، ولا القرية قرية إلا وفيها مساكن لأهلها، وسُكَّانٌ منهم، ففي إهلاكها إهلاك من فيها من أهلها[١]

ومن البيان تتابع الهلاك، وذلك بمجيء البأس بعد الإهلاك ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ ذكر ابن الجوزي ثلاثة أقوال: أحدها: أن الهلاك والبأس يقعان معاً، كما تقول: أعطيتني فأحسنت، وليس الإحسان بعد العطاء ولا قبله، وإنما وقعا معاً. والثاني: الإضمار، وتقديره: أهلكناها، وكان بأسنا قد جاءها، فأضمر الكون. والثالث: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، تقديره: وكم من قرية جاءها بأسنا بياتاً، أو هم قائلون، فأهلكناها، كقوله تعالى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: رافعك ومتوفيك[٢] ومن وجه آخر فإن أفعال الله تعالى ليست كأفعال المخلوقين، فإن الله تعالى إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. فدلالة تعاقب بيان خبر تفاصيل وقوع البأس بعد الإهلاك هو إفادة سرعة اقتضاء العذاب، وهو تعاقب إخبار التفاصيل بعد إجمال خبر وقوع الهلاك، فهو عطف الخبر التفصيلي، الذي هو ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ على الخبر الإجمالي الذي هو ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: عطف تفاصيل أمر العذاب على إجمالي وقوع الهلاك، التي نتيجته الإفناء والاستئصال. وهذا إعجاز بياني وبلاغي، وذلك ببيان ما حصل لهم بكلمة واحدة ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ ثم جاء التفصيل بألفاظ معدودة محدودة، وبغزارة من الفوائد والدلالات ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ فإن كلام رب العالمين يُفتق العقول، وينهض بالفكر، ويعلم الإنسان دقة الكلام وبلاغته، كما فيه من التحذير والوعيد بما حدث للأمم الكافرة السابقة.

وقال تعالى عن وصف حالهم حين جاءهم العذاب ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فقد كان رَدُّ فعلهم إذ جاءهم العذاب أن اعترفوا بظلمهم ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وكلمة ﴿ظَالِمِينَ﴾ جمعت الاعتراف الشامل بكل دلالات الظلم، التي استجمعت كافة سوء القول والعمل والاعتقاد، ومن غزارة البيان أن جمعت دلالة دعواهم ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ العديد من الأوجه التي يعطي مجموعها حالهم، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: ما كانوا يدعونه من دينهم، وينتحلون من مذهبهم إلا اعترافهم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨/١٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٣/٣)

ببطلانه وفساده، وقولهم ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ فيما كنا عليه، ويجوز: فيما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا، لأنه لا مستغاث من الله بغيره، ويجوز فيما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم، لعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم، وأن لات حين دعاء[١] وهذه الرحابة في دلالة النص الكريم، تعطي بياناً على عمق المقصد من اختيار اللفظة دون غيرها؛ مع زيادة فضل بيان موقعها من السياق، لتعطي تلك المعارف من الأوجه التي توضح حالهم عندما جاءهم العذاب، وهذا والله من الإعجاز البلاغي في كلام الله تعالى، بأن يعطيك النص الواحد جميع حالات الموصوف.

وفي هذا بيان لحالة ساعة الندم، والشعور بأنه قد فات الأوان للتوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى. وفيه كذلك الموعظة والتوجيه بأخذ العبرة مما أصاب الغير من النكال والأحداث، ومن فوات الأمر والوقت، وأن أخذ الله تعالى أليم في شدته، وفي توقيته وتزامنه مع حالة الإنسان، إذ أخذهم بغتة، وأخذهم في غفلة، وفي ساعة طلب الراحة بعد الكد والعناء، وأن الله تعالى يمهل للظالم حتى إذا اخذه فإن أخذه أليم شديد.

ويبين الله تعالى موقف العدل يوم القيامة ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فيسأل الله تعالى الأمم يوم القيامة عَمَّ أجابوا رُسُله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن ابلاغ رسالاته[٢] وفي هذا إظهار العدل والتحقق، بالرغم من علمه تبارك وتعالى بجميع ذلك، ولكن ليعلموا دقة عدله، وما يتضمنه الحكم والفصل من إقامة الحجة، واستبانة مجريات الحدث، وهو أعدل الحاكمين سبحانه وتعالى ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ فإخبارهم بما عملوا هو عن إحاطته وعلمه بأمرهم سبحانه وتعالى ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ ولم نكن عنهم وعن أعمالهم في غياب، بل إحاطة تامة بهم وبأمرهم، وهذا النفي بعدم غياب أمرهم عنه سبحانه وتعالى يفيد كمال الإحاطة، بأن إحاطته بهم وبأعمالهم هي إحاطة الكمال والتمام، فلم يغب عنه منها شيء عَزَّ وجل، فهي تمثل دقة كمال الإحاطة، إلى حد أنه لم يغب عنه شيء سبحانه وتعالى، وهذا من دقائق البيان ومن دقة القدرة للعزيز الحكيم.

يقول الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى: وإن قال قائل: وكيف يسأل الرسل والمرسل إليهم، وهو يخبر أنه يقص عليهم بعلم بأعمالهم وأفعالهم في ذلك؟ قيل: إن ذلك منه سبحانه وتعالى ليس بمسالة استرشاد، ولا مسألة تعرف منهم ما هو به غير عالم، وإنما هو مسألة توبيخ وتقرير، معناها الخبر، كما يقول الرجل للرجل: ألم أُحسن إليك فأسأت؟ وألم أصلك فقطعت؟[٣] والسؤال لهم هو في موضع الحكم، وتقرير المحكوم عليه بما كان

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٨٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٠٩)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٦٥)

منه، وتقرير الشهود بما شاهدوا وعاينوا، وذلك لتقرير العدل منه عَزَّ وجل، مع أنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ليعطي درساً في القضاء والتقاضي والعدل في الحكم، فسبحان الله وبحمده. فتأمل فوائد هذا في مجال القضاء والتَّحَاكُم لمن استقصى فوائد النص الكريم.

ومن مواقف العدل يوم القيامة هو: وزن الأعمال ﴿ **وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ** ﴾ فالوزن يوم القيامة لأعمال الناس عدلاً، لا ظلم فيه، فَتُوضع أعمال الإنسان في الميزان فتوزن، وهو مشهد مهيب لا يقاس على الدنيا، فالقرآن يأتي على هيئة إنسان، كما قال صلى الله عليه وسلم (يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب، فيقول: أنا الذي أسهرت ليلك، وأظمأت نهارك)[١] وسورة البقرة وآل عمران تأتيان لصاحبها كأنهما غمامتان كما جاء في الحديث[٢] وكذلك ما جاء من أحوال القبر، (... ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح[٣] وكذلك حديث البطاقة (فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة)[٤] مما يبين أن أحوال القبر، وأحوال يوم القيامة لا تقاس على أحوال الدنيا، فإن الله تعالى عظيم في خلقه وتدبيره، ولذلك من لوازم الإيمان: الإيمان باليوم الآخر.

فيقرر قوله تعالى ﴿ **وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ** ﴾ أن لكل نفس ما كسبت، وأن الله تعالى لديه موازين العدل بالحق، فيكون قد عَرَّف عباده عَزَّ وجل بما هم قادمون عليه بالتفصيل، الذي يوضح ما يجب لهم وما يجب عليهم من الاستعداد له بالطاعة والامتثال. ثم يبين تبارك وتعالى ما ستكون عليه نتائج الموازين ﴿ **فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴾ فالذين رجحت كفة حسناتهم الموزونة على سيئاتهم فهم الذين أفلحوا وفازوا بالنجاة ﴿ **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ** ﴾ وأما الذين رجحت كفة سيئاتهم، فهؤلاء خسروا أنفسهم، فأوقعوها في تفويت النعيم المقيم، بسبب تكذيبهم لآيات الله تعالى ﴿ **بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ** ﴾ فقد كانوا يكذبون بآيات الله تعالى، التي هي حججه وبراهينه وأدلته، فلا يقرُّون بصحتها، ويكذبون بحقيقتها، فتحقق منهم الظلم لآيات الله تعالى ولرسُلِه.

---

(١)ابن ماجه، سنن ابن ماجه (١٢٤٢/٢) برقم (٣٧٨١)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (٥٥٣/١) برقم (٨٠٤)

(٣) أحمد، المسند (٤٩٩/٣٠-٥٠١) برقم (١٨٥٣٤)

(٤) الترمذي، صحيح (٢٥/٥) برقم (٢٦٣٩)

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

ينتقل السياق الخطابي في القرآن الكريم إلى بيان نِعَم الله تعالى وقدرته، وتصريفه وتدبيره تبارك وتعالى في تمكين الإنسان من الأرض واستغلال واستثمار مكوناتها. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ بدأ الخطاب الكريم ببيان نعمة التمكين في الأرض، والتي استهلت بحرف ﴿ وَلَقَدْ ﴾ والذي أفاد تحقق تمكنهم من عمارة الأرض، إذ حقق الله تعالى تمكين العباد في الأرض، فجعل لهم القدرة عليها، بما مَكَّنَهُم كأفراد وجماعات من استغلال الأرض، واستثمار خيراتها الظاهرة والباطنة، واكتشاف ما هو على ظهرها، وما هو في باطنها من خزائنها، حتى أصبح تمكن الإنسان منها ظاهر فيها، باستخراج ما في جوفها، وما هو على سطحها واستغلال أوديتها وهضابها وجبالها، فَشَقَّ فيها الطرق، وحجز المياه بالسدود، واستصلح الأرض بما يحقق ويلبي مطالب حاجاته وحياته ومعاشه، وغير ذلك من أنواع التمكين، فلم يجعلها مستعصية عليهم، بل جعلها ذلولاً لهم. كما زود عباده بالعلم الذي يتراكم عبر الأزمان بين الأجيال، مع القدرة على التفكير الذي يعالج به أمور حياتهم المختلفة.

وزاد على ذلك تبارك وتعالى من الإنعام والتمكين أن جعل للإنسان فيها معايش ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ سواء ما يعيش به من مطعوم ومشروب، أو عموم ما يتوصل به إلى العيش من البناء، والكسب، والاسترزاع، والاستخراج المتجدد، بما يوفق الله تعالى له الإنسان من الابتكار والإنتاج. ومع عظيم هذه النعم العظيمة فإن شكر المخلوق للخالق قليل ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ فالشاكرون من عموم جنس الإنسان قليل، والأكثر غير شاكر؛ ولا حامد لله تعالى، وكذلك من يشكر فإن شكره غالباً ما يكون قليلاً

﴿قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ فشكر الشاكر قليل مع هذه النعم الجليلة العظيمة، فلا يستوفي حقها. وفي هذا استحثاث للمؤمن بكثرة الشكر بعد أن عَرَّفه ربه بهذه النعم، وكذلك في هذا البيان الكريم توضيح وبيان للكافرين بهذه النعم؛ وهذه الآيات العظيمة من التسخير والتمكين، والعيش والتعايش؛ التي تدل على وجوب توحيد الخالق، وأنه لا معبود بحق إلا هو عَزَّ وجل، وأن واجب المخلوق هو شكر المنعم بما أنعم عليه من هذه النعم، بالطاعة والاستجابة لرسوله صلى الله عليه وسلم، حتى يتحقق السير في تطبيق شكر الله تعالى.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى نعمة خلق الأرض التي يعيش الإنسان عليها، والسابقة لوجوده عليها، وبيان التمكين له في الأرض، ينتقل السياق والبيان إلى مزيد فضله على عباده، بخلقهم وإيجادهم ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ﴾ فتضمنت دلالة الخلق والتصوير مجموعة من المعاني والدلالات: ولقد خلقناكم في ظهر آدم، ثم صورناكم في الأرحام، وقيل من معانيها: ولقد خلقناكم في أصلاب الرجال، وصورناكم في أرحام النساء، وقيل: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ يعني آدم ﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ﴾ يعني ذريته من بعده وقيل: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ يعني الأرواح ﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ﴾ يعني الأجساد[1] وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال تأويله ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ ولقد خلقنا آدم ﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ) بتصويرنا آدم[2] والمتأمل يجد أن جميع هذه الاستنباطات تدل على شمول واستيعاب النص لجميع حالات الخلق بلفظ واحد، وعطاء متضافر ومتوافق، من غير تعارض ولا تنافر ولا تضاد، فجمعت أوجه الخلق والتكوين. فقد أوجد مجيء جملة ﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ﴾ مسبوقة بحرف العطف ﴿ثُمَّ ﴾ بعد جملة ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ أوجدت هذه الأوجه المتعددة من التأويل.

ومع تظافر الآيات الأخرى عن خلق وتكوين الإنسان يعطي النص الكريم دلالة أخرى، فقد ذكر الله تعالى أطوار خلق الإنسان في أكثر من موضع، فقال تعالى في سورة المؤمنين ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١١٦-١١٧) والطبري (١٠/٧٥-٧٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٧٩)

أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ وقال تعالى في سورة الروم ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ وقال تعالى في سورة الزمر ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾ وورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً، يؤمر بأربع كلمات: ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح) [1] فما تضمنته الآيات وما تضمنه الحديث قد أوضح وبين الخلق وأطواره، فيكون التصوير هو ظهور صورة الإنسان في شكله بعد الخلق، ابتداء من تكامل خلقته وظهور ملامح صورته، ولونه، وملامح الخلقة في بطن أمه، ثم صورته عند ولادته، ثم صورته التي تتشكل وتتطور عبر تعاقب مراحل عمره حتى شيخوخته وهرمه وفنائه، أو ما يموت عليه من بين تلك المراحل. وبالتالي فإن مجيء جملة ﴿ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ﴾ بعد جملة ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ أنها أوجدت هذه الأوجه المتعددة والمتظافرة من التأويل، فجاء البيان الكريم بما يشمل ويستوعب جميع تلك الدلالات السابقة التي ذكرها أهل التفسير. فسبحان الله تعالى الذي أثبت بكتابه إعجازه البياني والبلاغي، واستيفاؤه أوجه البيان بأقل الألفاظ.

ثم يذكر تبارك وتعالى مكارم وفضل آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ فقد أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم سجود تكريم وتفضيل، بما يفيد أن الأمر لله تعالى من قبل ومن بعد، يأمر من يشاء بما يشاء، ويرفع من يشاء، ويخفض من يشاء لمن يشاء، فأطاعت الملائكة كلهم أجمعين أمر الله تبارك وتعالى إلا إبليس ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ فقد امتنع إبليس عن طاعة الله تعالى؛ تكبراً وإعجاباً بذاته، وتفضيلاً لنفسه على من فضله الله تعالى، ومن لطف الله تعالى أن سأل الله تبارك وتعالى إبليس عن علة امتناعه عن السجود لآدم، وهو أعلم بذلك من غير أن يسأل ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ ﴾ ما الذي جعلك تمتنع عن السجود لآدم، وقد أمرتك فلم تستجب؟ وسؤال الله تعالى لإبليس عن علة امتناعه ليقرر إبليس بنفسه على نفسه، وإلا فإن الله تعالى عارف وعالم بسبب ذلك، وإذا كان هذا هو الله جَلَّ في علاه يسأل عبده إبليس

[1] البخاري، الجامع الصحيح (٢/٤٢٤) برقم (٣٢٠٨)

الذي تكبر وعصى عن سبب امتناعه، وهو عالم بسبب ذلك، فإنه يتوجب على الإنسان ألا يحكم على أحد إلا بعد معرفة علة فعله أو امتناعه أو قوله، وتقريره بعلة ما فعل أو امتناعه.

فأجاب إبليس عليه لعنة الله تعالى ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ﴾ فعلة عدم السجود أن حكم من تلقاء نفسه على نفسه بأنه خير من آدم، وعَلَّل هذه الخيرية بأصل خلقته ﴿ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ فَحَكَمَ من تلقاء نفسه بأن النار خير من الطين، وبالتالي هو خير من آدم، ولا يمكن أن يسجد لمن هو دونه؛ كما هو في تصوره. والحقيقة خلاف ذلك، فحتى لو كانت النار هي خير من الطين؛ فلا يقابل أمر الله تعالى بذلك الامتناع عن الطاعة، بل يلزمه السمع والطاعة، وهذا يفيد أن مقابلة الأمر الرباني بأحكام العقل أو الهوى يؤدي إلى الضلال، وأنه حكم باطل، وقياس فاسد، وأن هذا من منهج إبليس عليه لعنة الله تعالى، وأنه يجب على المؤمن بأن لا يعارض ولا يقابل أوامر الله تعالى ونواهيه وتشريعه، وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بفكره وعقله وتحليله، بل يقول سمعت وأطعت.

وقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى الفوارق بين الطين والنار، وأبان وأوضح أن الطين أفضل من النار: وأن في امتناع إبليس من السجود، ومخالفة أمر ربه، وحكمه بأنه أشد منه يداً، وأقوى منه قوة، وأفضل منه فضلاً، وذلك بتفضيل أصل جنسه الذي منه خُلِق، وهو النار، ومعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش، والاضطراب، والارتفاع علواً، فحمله ذلك على الاستكبار. وكان معلوماً أن من جوهر الطين الرزانة، والأناة، والحلم، والحياء، والتثبت. وكان الحسن وابن سيرين يقولان: أول من قاس إبليس، يعنيان بذلك القياس الخطأ. فابتعد إبليس بهذا القياس عن الفضل الذي خَصَّ الله تعالى به آدم على سائر خلقه، من خلقه إياه بيده، ونفخ فيه الروح، وإسجاده له الملائكة، وتعليمه أسماء كل شيء، مع سائر ما خصَّه الله تعالى به من كرامته، فضرب عن ذلك كله صفحاً، وقصد إلى الاحتجاج بأنه خُلِق من نار، وخُلِق آدم من طين[1]

وقد ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى الفوارق بين الطين والنار، وأن الطين أفضل من النار، فقرر: أن هذا قياس باطل، لأنه عارض النص بالقياس، ولهذا قال بعض السلف: أول من قاس إبليس، ما عُبِدَت الشمس والقمر إلا بالمقاييس، ويظهر فسادها بالعقل من وجوه خمسة: أحدها: فقد ادَّعى أن النار خير من الطين، فالطين فيه السكينة والوقار والاستقرار والثبات، وفي النار الخفة والحدة والطيش، والثاني: وإن كانت النار خير من الطين، فلا يجب أن يكون المخلوق من الأفضل هو الأفضل، والاحتجاج على فضل الإنسان على غيره بفضل أصله حجة فاسدة، احتج بها إبليس، وهي حجة الذين يفخرون بأنسابهم. والثالث: أنه وإن كان مخلوق من طين، فقد حصل بنفخ الروح المقدسة ما شَرُفَ به. الرابع: أنه مخلوق بيدي الله سبحانه وتعالى،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٨٦) مختصر

كما جاء في سورة: ص ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ والخامس: أنه لو فَرَضَ أنه أفضل فقد يقال: إكرام الأفضل للمفضول ليس بمستنكر[١] وقد أكرم الله تعالى آدم بأن علمه الأسماء كما جاء في سورة البقرة ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى ما ذكره شيخه ابن تيمية رحمها الله تعالى، وقال أيضاً: أن الأرض تعطيك من البركة أضعاف ما تودعه من الحب والنوى، والنار تحرقه[٢] مما يدل على خطورة تقديم العقل على النقل، فالنص الشرعي هو القائد للعقل والفكر، بدليل أن عقول الناس تتفاوت، وتلعب الأهواء وحظوظ النفس والشبهات والشهوات بأثرها في ذلك، بينما النص يجمع جميع ذلك التفاوت، فيردها إلى الحق والصواب.

فعاقب الله تعالى إبليس على تمرده وعصيانه بأن أخرجه من الجنة ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ فأُهبط من الجنة، فليست بمكان للمتكبرين ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ فلا يسكنها متكبر عن أمر الله تعالى، فليس لك أن تعصي أمر الله عَزَّ وجل. مما يفيد أن الأرض هي المسكن الذي يستوعب المطيع والعاصي، وأما السماء فليست إلا للمطيع، ولذلك فإن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. ثم يتكرر الطرد والتوبيخ ﴿ فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ فاخرج فقد نالك من الله تعالى الذل والمهانة؛ التي هي الصَّغار، مما يدل على أن إبليس مرهق بالذل والمهانة، وأنه مهان أمام حجج الله تعالى وآياته، وعباده الصالحين، لأن الصالحين وليهم الله تعالى.

ولم يقابل إبليس ذلك بالاعتذار، بل قابله بالتمادي، وبما يعينه على غواية غيره، فطلب من الله تعالى أن يمهله إلى يوم البعث ﴿ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ أي: أخرني وأجّلني إلى يوم البعث. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وكأنه طلب أن لا يموت، لأن يوم البعث لا موت بعده[٣] ولما اقتضت حكمة الله تعالى أن

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى (٦/١٥)

(٢) ابن القيم، الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعطلة (٢/٦٦٠-٦٦٨)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (١٩٢/٢)

تكون الأرض لابتلاء بني آدم استجاب الله تعالى طلبه ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ قال ابن قيم الجوزية: فأنظَره الله تعالى إلى النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم، وبين مدة إمهاله في سورة الحجر ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ والذين تقوم عليهم الساعة منظرون إلى ذلك الوقت بآجالهم، فهو منهم[١] فإنظاره لم يكن كما طلب ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ بل إلى الوقت المعلوم الذي هو موت الخلائق ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ إلى يوم ينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله، بمعنى أنك ممن لا يميته الله إلا ذلك اليوم[٢] قال ابن عباس والسدي وغيرهما: أنظره إلى النفخة الأولى، حيث يموت الخلق كلهم، وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية، حيث يقوم الناس لرب العالمين، فأبى الله ذلك عليه، والمبعوثون: آدم وذريته ﴿ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[٣]

فلما أنظر الله تعالى إبليس، واستوثق بذلك أخذ في المعاندة والتمرد ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي: كما أغويتني، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكتني، لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه ﴿ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي: طريق الحق وسبيل النجاة، لأضلنهم عنها، لئلا يعبدوك ولا يوحدوك[٤] والإغواء: الإيقاع في الغي[٥] قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن الإغواء ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ هو تكليفه إياه ما وقع به في الغي، ولم يثبت كما ثبتت الملائكة مع كونهم أفضل منه[٦] فكما أهلكتني بالطرد وجعلتني من الصاغرين، لأقعدن لذرية آدم الذي جعلتني بسببه أكن من الصاغرين. فالإغواء هو ما حصل من إبليس بسبب تكليفه بالسجود لآدم، فجعل هذا الأمر إغواء له.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٨/٣-١١٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩٠/١٠-٩١)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٢/٧)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢١٢/٢)

(٥) الشوكاني، فتح القدير (١٩٢/٢)

(٦) الزمخشري، الكشاف (٨٩/٢)

ثم بين إبليس أسلوبه في غواية بني آدم، والمتضمن حرصه الشديد على غوايتهم ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ فحدد المعالم التي يمكن له أن يغويهم من خلالها، مما يدل على عظيم حرصه وعداوته، وعدم يأسه، قال ابن جرير الطبري رحمه الله في معنى ذلك: وأَوْلَى الأقوال عندي بالصواب قول من قال: ثم لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل، فأصدهم عن الحق، وأُحَسّن لهم الباطل[١] فيأتيهم من جهة ما يفسد عليهم آخرتهم، ويفسد عليهم دنياهم، ويأتيهم من قِبَل الحق، ليصدهم عنه، ومن قِبَل حسناتهم، فيدخلهم في الرياء والسمعة، أو يشككهم فيها، ويأتيهم من جهة الباطل فيزينه لهم، ويدفعهم للسيئات، ويرغبهم فيها، فلا يترك باباً إلا ويحاول الإفساد من خلاله، بل من شدة حرصه على غواية بني آدم قوله ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ أي: فيكون أغلبهم غير شاكرين لله تعالى، وذلك لكثرة بذله الجهد في صدهم عن طاعة الله تعالى.

فيتوعدهم بأن يحول بينهم وبين شكرهم لربهم سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ والشكر: يقتضي الطاعة والثناء، وأعلاها تحقيق التوحيد، مما يفيد ويبين أهمية الحذر منه، وأهمية الاستعاذة بالله تعالى منه، وأهمية الاستعانة بالله جَلَّ جلاله، وذلك بطاعته سبحانه وتعالى، لأن الله تعالى منع أن تصل قدرة إبليس عباده المتقين، كما قال تعالى في سورة الحجر ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ثم قال الله تعالى لإبليس ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهذا مزيد طرد وإهانة وإذلال، ووعيد بجهنم لإبليس، ولمن اتبعه من بني آدم، فاخرج مذموما، متصفاً بكامل أوصاف الذم، ومطروداً ممقوتاً. وفي هذا تحذير من غوايته، وتحذير من مسلكه، وبيان لحرصه وعداوته.

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾
فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ
إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ
فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/١٠٠)

أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وبعد الأمر بطرد إبليس من الجنة ينادي سبحانه وتعالى آدم عليه السلام ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ﴾ فناداه ربه باسمه ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ﴾ وفي هذا لطف وتكريم من الله تعالى، فما أعظمه من تكريم، بينما قال تعالى في مخاطبته لإبليس ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ فلم يخاطبه باسمه، حتى في سورة الحجر؛ وفي سورة ص، قال تعالى ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ فأبان الله تعالى خطابه لإبليس على سبيل حكاية القول، بصيغة غير مباشرة ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ ﴾ فأخبر الله تعالى عباده عن الحدث بأسلوبين مختلفين، رغم تحقق مخاطبة الله تعالى لآدم، وكذلك إبليس، ولكن الفرق في الإخبار عن الحدثين: أن الإخبار عن ندائه لآدم تضمن نسبة القول إليه سبحانه وتعالى ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ﴾ تشريفاً للمخاطب. بينما ورد الإخبار عن نداء الله تعالى لإبليس على سبيل حكاية القول ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ ﴾ وهذه من دقائق البيان الذي يدل على عمق معاني القرآن الكريم ودقة دلالاته التي تفيض إعجازاً.

وقد نادى الله تعالى آدم عليه السلام بياء النداء ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ﴾ الذي يفيد ما يُوجب الانتباه لأمر عظيم جليل، قد تضمنه ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، وما يجب ويلزم من تتبعه باهتمام ووعي، مع قوة الالتزام والوفاء بمضمونه، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والعناية به والاهتمام ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فأمر الله عَزَّ وجل آدم وزوجته بأن يسكنا الجنة. وكلمة ﴿ ٱسْكُنْ ﴾ تحمل دلالة المكوث والسكينة والاطمئنان، وزادهما من الفضل بأن يأكلا من الجنة ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ فوسَّع سبحانه وتعالى لهما مساحة ونوع الأكل الذي لا حصر له ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أي: من أي جهة، ومن أي نوع اشتهيتم وأردتم، ومن غير حرج عليكم في شيء إلا من شجرة واحدة ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ وجاء أسلوب النهي بأبعد ما يمكن أن يكون من الأكل، وهو مجرد الاقتراب ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ

ﵟٱلشَّجَرَةَﵞ مما يوجب شدة الحذر منها، أو التفكير في الوصول إليها، بما يجعل الأكل أبعد وأقوى حذراً، ثم بين لهما علة النهي ﵟفَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَﵞ فإن النهي عنها، لكي لا يحصل لكما الوقوع في دائرة الظالمين وحكم الظالمين. مما يبين أن لله تعالى الحكمة البالغة في أمره ونهيه، فما نهى عنه قد استوجب الابتعاد عنه، دون النظر إلى العلة، فقد تكون ظاهرة، وقد تكون خفية، وليس للمخلوق إلا الاتباع والطاعة.

ولكن الشيطان وسوس لآدم وزوجته حواء ﵟفَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُﵞ فموه عليهما، وخدعهما بأسلوبه الشيطاني، حتى يخرجهما عن النعمة التي ينعمون بها، ومنها نعمة ستر العورة ﵟلِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَاﵞ قال الإمام ابن جرير الطبري: كان عليهما نور، لا تُرى سوءاتهما[^1] فذلك هو الهدف الذي كان يريد تحقيقه، فاستخدم أسلوب النصيحة وهو كذوب ﵟوَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَﵞ فبدأ بخديعة كاذبة عن بيان علة نهي الله تعالى لهما من الأكل من الشجرة التي عينها سبحانه وتعالى لهما، حتى لا تكونا ملكين، أو تكونا من الخالدين هاهنا في الجنة، فأفادهما بأنهما لن يُخَلَّدَا فيها، وأن أكلكم منها يحقق لكم الخلود في هذا النعيم. ثم عزز كلامه وأكد صحته كذباً وبهتاناً بالقسم ﵟوَقَاسَمَهُمَآﵞ من أنه ناصح مخلص، يحب الخير لهما ﵟوَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَﵞ مما يؤكد أن الشيطان كذوب، وجريء، وأنه لا يأبه بعذاب الله تعالى، وأنه عدو لدود لبني آدم، مما يجب الحذر من أساليبه الماكرة، وتزيينه الغواية.

ثم بين الله تعالى منهجية مخادعة الشيطان ﵟفَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖﵞ فخدعهما بغرور، فقد غرهما بالقسم، فانخدعا بذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: غَرَّهُمَا باليمين، وكان آدم لا يظن أن أحداً يحلف بالله كاذباً[^2] فذاق آدم وحواء ثمر الشجرة ﵟفَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَاﵞ فكان أول نتيجة المعصية أن انكشفت سوءاتهما، فكان حدثاً عظيماً لهما، وتأثرا تأثراً بالغاً، قال الله تعالى عن تأثرهما ﵟوَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِﵞ فجعل كل واحد منهما يسرع في الأخذ من أوراق الجنة، فيضع ورقة فوق أخرى على عورته، ليستتر بها. مما يدل على فطرية الحياء، وأن الأصل الْجِبِلِّي للإنسان أنه يستحي أن يرى أحدٌ عورته،

---

[^1]: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/١٠٧)
[^2]: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٢٢)

وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أنه بعد انكشاف عورته، أخذ يجري في الجنة، فناداه الله تعالى: أتفر مني، فقال: لا، ولكني استحييك يا ربِ[1] ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ إنه عتاب من الله تعالى، قد ابتدأ بالنداء ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ وسألهما وهو أعلم بما حصل وحدث، ولكن ليبين أن استنطاق الإنسان بجريرته هو منهجية لتحقيق العدل في الحكم ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ وأحذركما من الشيطان، وبينت لكم أنه عدو لكما ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فبادرا بالاعتراف والإفصاح والاعتذار ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فاعترفا بالذنب ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ فاعترفا بأنهما قد أوقعا أنفسهما في معصية الله تعالى، بسبب إغراء عدوهما، وطلبا من الله تعالى أن يسامحهما ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فإن لم تستر علينا ذنبنا بالمغفرة، وأيضاً ترحمنا بعطفك علينا، وتترك أخذنا بذنبنا، سنكون من الهالكين، الذين خسروا أنفسهم بفوات الفوز والنجاة. وهذا استعطاف منهما لربهما سبحانه وتعالى، فأخبر الله تعالى بما قضى عليهما وعلى إبليس ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ اهبطوا من السماء إلى الأرض، بعضكم لبعض عدو ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فإن لكم في الأرض قرار وانتفاع، وحياة إلى آجالكم وانقطاع الدنيا، وكلمة ﴿حِينٍ﴾ تفيد الوقت المجهول قدره لبني آدم، المعلوم عند رب العالمين، قال الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى: والحين نفسه الوقت، غير أنه مجهول القدر[2]

ودلالة ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ تستوقف العقل، من أن الدنيا متاع ولكنه إلى حين. وأن الدنيا عمل، ولكنه إلى حين. وأن يلتزم بتكاليف الشريعة إلى حين، وأن عدوه الشيطان معه، ولكنه إلى حين، فليتخذه عدواً إلى حين، وليصبر إلى حين. وليصبر على طاعة الله تعالى إلى حين. فليكن قوله تعالى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ قوة وأملاً وطريقاً يتجاوز به كلّ عائقٍ لطريق الجنة. ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فإذا واجهته مغريات الدنيا وفتنتها قال بقوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وإن تكاسل عن طاعة أقام نفسه بقوله

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١١/١٠)

(٢) المرجع السابق (١١٨/١٠)

عَزَّ وجل ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وإن رأى مغروراً بالدنيا وعظه بقوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ لتكون قاعدة عظيمة لمسلك الإنسان وفكره وتصرفاته. وقاعدة ضابطة له في كل شأن وأمر. فليتخذها المؤمن قاعدة واعظة له في حياته، ليصل بها إلى آخرته.

ثم قال تعالى لهم ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ فقرر الله بحكمته تبارك وتعالى أن تكون الأرض مستقر الحياة الدنيا، وفيها يكون العيش والمعيشة، وفيها تكون الوفاة ومنتهى الدنيا، ومنها يكون البعث والنشور ليوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كل بعمله، ثم فريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يوجه تبارك وتعالى خطابه العظيم إلى عموم بني آدم على سبيل الامتنان والتذكير بالنعمة العظيمة.

فقال عَزَّ وجل ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ فهو خطاب عام لجنس بني آدم، أن ربكم قد جعل لكم ما تلبسونه ضرورة من أجل ستر عوراتكم، وزيادة على ما يكمل به تجملكم. فقد بدأ النص الكريم بالنداء ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ الذي يستلزم منه الانتباه والإصغاء لما بعده من بيان، والذي قد حققه وقضاه تبارك وتعالى قبل أن تحتاجوه مما تُوارون به سوءاتكم ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا ﴾ لأن دخول قد على الفعل أفاد التحقق، بأنه تم الإنزال، وهذا لعلم ربنا تبارك وتعالى السابق بما يحتاجه المخلوق قبل أن يحتاجه، فهيء له ما يقضي به حاجاته، وأخصها ما يستر به نفسه من اللباس.

وجملة ﴿ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ ﴾ تفيد عدداً من الدلالات، جمعها ابن الجوزي رحمه الله تعالى وهي: أي: خلقنا لكم، وألهمناكم كيفية صنعه، وأنزلنا المطر الذي هو سبب نبات ما يُتَّخَذُ لباساً[١] فتكون دلالتها بمعنى: أنزلنا رزقنا لكم بما تستترون به، فهيئنا ذلك لكم، وخلقناه لكم، وألهمناكم الاهتداء إلى ما تسترون به عوراتكم ﴿ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾ لباساً تُخْفُون به سوءاتكم، والسوءة هي العورة، ويواري أي يخفي ويستر، مما يبين وجوب ستر العورة، وأنه أمر فطري، ودليل أنه فطري وجبلي هو ما سبق بيانه من قوله تعالى ﴿ وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ ومن الأدلة الحسية على فطرية ذلك، أن الإنسان عندما يكون في خلواته فإنه يلبس ما يستر عورته، وهو لا يراه أحدٌ من البشر. وقد سماها الله تعالى سوءة ﴿ سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾ لأن انكشافها وظهورها يسوء صاحبها، وقال الفيومي: هي فرج الرجل والمرأة[٢] وقد تناولها الفقهاء بالتفصيل في كتب الفقه، والتفسير.

ومن فضل إنعام الله تعالى أنه لم يقتصر في الستر على ما هو واجب من إخفاء العورة فقط، بل زاد على ذلك بالكمال والامتاع، إذ قال عَزَّ وجل ﴿ وَرِيشًا ﴾ وهو في كلام العرب الأثاث، وما ظهر من الثياب، والمتاع، مما يُلبَس أو يُحْشَى من فراش أو دثار، وربما استعملوه في الثياب والكسوة دون سائر المال، فيقولون أعطاه سرجاً بريشه، ورَجُلاً بريشه، أي بكسوته وجهازه، وقد يستعمل الرياش في الخصب، ورفاهية العيش[٣] وهذا فضل على فضل من الله تعالى، أن زاد على الضروري ما تتكامل به رفاهية بني آدم. وفي تعاضد دلالة ﴿ وَرِيشًا ﴾ مع قوله تعالى ﴿ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ ﴾ ما يفيد أن كلمة الإنزال هي الأغنى دلالة مع اللباس والريش، لأن في كل من اللباس والريش ما يتطلب حصول الرزق، والإيجاد والخلق، والتهيئة والإلهام بالاهتداء إلى إنتاج وصُنْع وحياكة ما يلبسه الإنسان، وما يكون به ومنه أثاثاً، وهي التي تستوعبها جملة ﴿ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ ﴾ أي أنزلنا رزقنا لكم بما تستترون به، فهيئنا ذلك لكم، وخلقناه لكم، وألهمناكم الاهتداء إلى ما تسترون به عوراتكم ليدرك الْمُخَاطب الإعجاز الخطابي والبياني في القرآن الكريم. وكذلك عظيم التهيئة للإنسان بما يحتاج إليه.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٣/٣)

(٢) الفيومي، كتاب المصباح المنير (٤٠٥/١)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٣/١٠)

وبعد أن ذكر تبارك وتعالى ما وجب من لباس الستر، وما ظهر من الثياب، وما تكمل به معيشة وجمال ورفاهية الإنسان، ذكر سبحانه وتعالى لباس القلب والجوارح والسلوك ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ فوصف التقوى باللباس الذي يتزين به القلب وبقية الجوارح العملية، وهو لباس الورع والخشية من الله تعالى، فذلك خير وأجمل لباس ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ وكلمة ﴿ وَلِبَاسُ ﴾ جمعت كل ما يستر؛ وكل ما يتزين به، وكلمة ﴿ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ بينت نوع هذا اللباس، بأنه لباس التقوى الذي يجمع كل ما يتعلق بطهارة القلب، من الورع والخشية والإيمان والعمل الصالح، والامتناع عن أضدادها، ونقل الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى أقوالاً لأهل العلم: بأنه ما يلبسه المتقون يوم القيامة، وقيل: أنه الإيمان، وقيل: العمل الصالح، وقيل: خشية الله، وأنه السمت الحسن في الوجه، وأن لباس التقوى أن يتقي الله فيواري عورته، فذاك لباس التقوى، وقال ابن كثير عن تلك الأقوال: وكلها متقاربة[١] فكل ما يحقق تقوى الله تعالى فهو لباس التقوى، لأن التقوى جماع الخير كله: فالمتقي يؤمن بالله تعالى، ويخاف أن يعصيه، ويعمل بما أُمر به، وينتهي عما نُهِّيَ عنه، خائفاً ومراقباً لله تعالى في السر والعلن.

ثم ختم تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فالذي أنزله الله تعالى من اللباس الساتر والرزق الوافي، وما زاد عن الضروريات، وما فَصَّلَهُ وبينه عن لباس التقوى هو من معجزات الله تعالى؛ ومعالم ربوبيته وألوهيته ووحدانية ربكم، حتى يذكرها عباده، ويعتبروا بها، وبصنعه وتدبيره عَزَّ وجل. مما يفيد ويوضح أهمية التفكر في دلائل آيات الله تعالى، وتدبيره وتصريفه عَزَّ وجل لها، من أجل التذكر والاعتبار الذي يقود إلى تعظيم الله تعالى، وإفراده بالعبادة، والطاعة، والشكر، والالتزام بهدي شريعته.

وبعد أن أوضح الله تبارك وتعالى ما صنع الشيطان الرجيم بأبيهم آدم وأمهم حواء عليهما السلام، وعداوته لهم، وتوعده لبني آدم بالإضلال والإفساد؛ يحذر الله تعالى عباده من فتنة عدوهم الشيطان الرجيم ، وفي هذا تدرج تعليمي دقيق. فقال جَلَّ جلاله ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يخاطب الله تعالى بني آدم أجمعين بياء النداء ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ من أجل أن يُحَذّرهم من الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة، فلا يصرفنكم ولا يخدعنكم ولا يضلنكم الشيطان

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢١٦)

بغروره لكم. وقد أعطت جملة ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ دلالة واسعة على شمولية فتنته، بأنها في كل أمر، وفي كل طريق، وإذا ما قيدت بقوله تعالى ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ أعطت تخصيص بعد عموم، بالتحذير من تزيينه لكم كشف عوراتكم، كما تسبب في إخراج أبويكم من الجنة بتغريره لهما.

وقد أُضيف إلى الشيطان الإخراج من الجنة ونزع اللباس ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ لأنه المتسبب في ذلك بإغوائه وتغريره، كما تضمن النص الكريم بيان الهدف الشيطاني من نزع اللباس ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ حتى يرى كل واحد منهما سوءة الآخر. وفي هذا ما يفيد التحذير الشديد من كشف العورة، ومن اتباع منهج الشيطان، وأنه يلزم سترها، والحذر من الغواية الشيطانية. وفي قوله تعالى ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ أي: ينزع ما كان يستر سوءة آدم وحواء، وسواء كان نوراً، أو من ثياب الجنة، أو غير ذلك، فَعِلْمُ نوعه تحديداً عند الله تعالى.

ومن خصوصيات الشيطان التي خصه الله تعالى بها ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإنه يرى بني آدم، وبني آدم لا يرون الشيطان، ولله الحكمة البالغة في ذلك، فلعل خلقته مُوحِشة لا يستطيع عليها الإنسان ولا يستوعبها عموم بني آدم، فأكرم الله تعالى الإنسان من أن يرى ما يزعجه، ولا يستوعب صورته، فلم يتهيأ الإنسان لذلك. قال مجاهد عن قوله تعالى ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ الجن والشيطان، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جعلهم الله تعالى يجرون من بني آدم مجرى الدم، وصدور بني آدم مساكن لهم، فهم يرون بني آدم، وبني آدم لا يرونهم[١] فهو يراكم هو وجنسه وذريته. وأما العلاقة بين الشيطان وبين غير المؤمن، فهي علاقة تَسَلَّط من الشياطين على غير المؤمنين من الإنس ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فسلط الله تعالى الشياطين على غير المؤمنين بالموالاة لهم، وهذا من العقوبة لهم، لأن الشياطين أعداء لبني آدم، فلا يأمرونهم إلا بشر وإلى شر.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٥/٣)

ثم يعالج سبحانه وتعالى واقعاً كان موجوداً في الجاهلية، وهو الطواف بالبيت عرايا من غير لباس كما قال مجاهد رحمه الله تعالى[١] مما يبين العلاقة الترابطية بين إغواء الشيطان وبين فعلهم من التعري من الملابس عند الطواف، واحتجاجهم لكل فعلة قبيحة يفعلونها بأنها اقتداء وتأسي بمن سلف من أقوامهم ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ ومع معالجة الآية الكريمة لما كان سبباً للنزول إلا أنه يعطي قاعدة عامة وتوجيهاً تحذيرياً من الاقتداء بغير هدى من الله تعالى.

والقاعدة هي تعليل المخطئ بما ورثه عن السابقين له، سواء كان في مجال العموم أو فيما كان خاصاً بأمور العقيدة والعبادات، أو حتى أمور العادات والتصرفات، فيتعلل الْمُخْطِئ بما وجد عليه ممن سبقوه، وفي هذا التوجيه الكريم ما يحرر العقل من التبعية الخاطئة في كل شأن وأمر، ومنها أمور الدين التي هي أساس الحياة، وطريق الفوز بالآخرة، والنجاة من النار. بل قد يتمادى به الأمر أن يزعم أن الله تعالى أمر بذلك، افتراء على الله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ وسواء كان ذلك فيما يخص الطواف عرايا، أو فيما يُفْتَرَى على الله تعالى من الكذب. فإذا عُتِبُوا على فعلهم الشنيع، برروا فعلهم بأنهم ورثوا ذلك عن آبائهم، وأن الله تعالى أمرهم به، مثل فعل الطوائف المنحرفة في عقيدتها وعبادتها، فيحتجون كذباً وبهتاناً على الله تعالى بأنه أمرهم، وذلك بتحريف النصوص، أو اختراعها. وسمى الله تعالى ذلك الفعل فاحشة، وهي التي ما تعالى وتطاول قبحها من الذنوب.

وبالتالي إذا فعلوا ذنباً قبيحاً، أسندوه إلى ما وجدوا عليه اباءهم، أو عللوه بأنه من الله تعالى كذباً وافتراء عليه عَزَّ وجل، فيرد الله تعالى على كذبهم بتقرير قاعدة أخلاقية عظيمة ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ قل يا أيها النبي إن الله تبارك وتعالى لا يأمر بالقبائح والذنوب، مما يدل على أن كل قبيح ممقوت ومكروه عند الله تعالى، وأن جميع ما أنزله الله تعالى مُنَزَّه عن كل عيب، وعن كل ما ينتهي إلى فحش في القوال والعمال والاعتقاد ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهذا سؤال استنكاري، يقرر به تبارك وتعالى كذبهم، وأن قولهم هذا هو قول بغير علم، فما هو إلا محض افتراء ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء المفترين على الله تعالى الكذب، إن الله يأمر بالقسط، وهو العدل بعمومه وتفاصيله، مما يدل ويفيد أن القبح والفواحش والذنوب مضادة لفضيلة العدل، بل هي من الجور، فهي افتراء وجور على أحكام الله تعالى وهديه، وعلى الفطرة وعلى الأخلاق وعلى العباد، وليس من العدل أن يأمر الله تعالى بالفحش

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/١٣٧)

ويعاقب من ارتكبه. فالذي أمر الله تعالى به هو القسط، الشامل لكل ما يحقق العدل، مما يفيد أن الفحشاء نقيض ومضاد للقسط.

ثم وجّه الله تبارك وتعالى إلى منهجية عبادة الصلاة والدعاء ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي: توجهوا إليه في صلاتكم إلى القبلة، في أي مسجد كنتم، أو في كل وقت سجود، أو في كل مكان سجود، على أن المراد بالسجود الصلاة، ولفظة ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ تفيد كمال ووفاء التَّوجُّه والإقبال على الله تعالى، مما يبين دقة اللفظة بما يحقق كمال المراد

وورد الأمر للصلاة بدلالة بفعل الإقامة ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ التي تجمع جميع ما تقوم عليه الصلاة، من الأركان والواجبات والمستحبات، بما يفيد الإقامة الخالية من الخلل. فلا تُخِلُّوا بها، بل أقيموها إقامة ذات عناية واهتمام. مما يبين أهمية الصلاة، إذ كثيراً ما يقترن الأمر بها في القرآن بالإقامة. اللهم اجعلنا والمسلمين أجمعين من عبادك الذين يقيمون الصلاة على الوجه الذي يرضيك عنا.

ثم أمر عَزَّ وجل بالإخلاص له جَلَّ جلاله في الدعاء والطلب والمسألة. فقال تبارك وتعالى ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: فأفردوا لربكم العبادة، وأخلصوا له الدعاء، وقيل وحدوه ولا تشركوا به شيئا ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما أنشأكم في ابتداء الخلق يُعيدكم، فيكون المقصود هو الاحتجاج على منكري البعث. فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وقيل كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه كذلك، وليس معكم شيء، وقيل كما بدأكم من تراب تعودون إلى تراب، فاستوعب النص الكريم جميع أوجه حالات الابتداء والانتهاء.

ثم قال تعالى ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: فأنتم فريقان: سعداء وأشقياء ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ فالفريق الذي هداه الله تعالى هم المؤمنون بالله تعالى، المتبعون لأنبيائه، والفريق الذي حق عليه الضلالة ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ هم الكفار، فقد حقت عليهم الضلالة بكفرهم، وعدم طاعتهم الأنبياء. ثم يعلل تبارك قوله عَزَّ وجل حكمه هذا ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ بقوله الكريم ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أيأنه تعليل لقوله تعالى ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله تعالى، ومع هذا فإنهم يزعمون كذباً أنهم

مهتدون ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فلم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة، وهذا أشد في تمردهم وعنادهم(١)

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ ﴾

وتتوالى التوجيهات الربانية لبني آدم ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ يوجه الله تبارك وتعالى بني آدم إلى ما يلزمهم من زينة اللباس عند العبادة، ليرد بذلك على من يطوف بالبيت عريان، بأنهم خالفوا ما يجب عليهم من الستر. وقد خاطب الله تعالى بني آدم أجمعين ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ لأن الله تعالى يخاطب بهذا القرآن جميع جنس الإنسان، على ما يجب عليهم. فبدأ الله تبارك وتعالى التوجيه الكريم بالنداء ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ ليشد الانتباه والاهتمام لما بعده من كلام ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ والتي أخصها ستر العورة، ومنها التزين بأجمل الثياب في الجمع والأعياد، قاله الماوردي رحمه الله تعالى(٢) وقد جاء السياق بلفظ الأمر ﴿ خُذُواْ ﴾ ليعطي دلالة الوجوب، والعناية والاهتمام، مما يفيد ويبين أن هذا الدين هو دين نظافة وستر وجمال.

كما وردت كلمة الزينة بلفظ العموم ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ ﴾ لتفيد عموم الزينة، بما يتجاوز ما هو واجب من ستر العورة إلى عمومها، فشمل التوجيه الكريم جميع أوجه الزينة التي يتزين بها المسلم، وفي هذا ابطال لمن زعم كذباً من المشركين بوجوب التعري عند الطواف، لأن ذلك منافياً للزينة، وفي هذا تأكيد بأن دين الله تعالى هو دين القسط والعدل. وفي قوله تعالى ﴿ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ ما ينتفي به التحديد والتخصيص والتعيين، ليفيد العموم، فيكون الحكم لجميع المساجد، وفي كل عبادة.

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٩٩/٢) ملخص

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٧/٣)

ثم وجَّه تبارك وتعالى إلى واجب ولازم من لوازم الحياة وهو الأَكل والشرب ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ فهذا أمر بالأَكل والشرب، من غير مجاوزة للحد الذي ينقله عن الاستمتاع وسد الحاجة إلى التبذير والبذخ والإسراف، وجاء الحث على التطبيق والامتثال بنفي محبته عَزَّ وجل للمسرفين ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ وفي هذا استحثاث للمؤمنين على الاستخدام الأمثل عند أكلهم وشربهم، وعند شرائهم واقتنائهم، وكذلك عند تقديمه لغيرهم. وكلمة الإسراف تجمع في دلالتها جميع ما يخالف الطبيعة الإنسانية والأحكام الشرعية، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه، وهو من أهل النار، كما صح في الأحاديث الصحيحة، والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه، ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعي على نفسه، وعلى من يعول، مخالف لما أمر الله به وأرشد إليه، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه، وهكذا من حرم حلالاً، أو حلل حراماً، فإنه يدخل في المسرفين، ويخرج عن المقتصدين(١)

وورد التوجيه الكريم للأَكل والشرب بلفظ الأمر ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ ﴾ ليفيد الوجوب في حق الممتنع تكلفاً من غير ضرورة موجبة للامتناع، بما يحفظ حياة الإنسان، لأن من مقاصد الشريعة حفظ النفس. ويفيد التأكيد والاستحباب والإباحة على الأصل لغير ممتنع عنه، لأنه أمر فطري، فلا زهد فيما أباحه الله تعالى، وفي هذا التوجيه الكريم بهذا السياق معالجة لما قد يُحْدِثُه البعض من التزهد فيما يجب، وفيما هو مباح مما تشتهيه النفس، فلا يعنفها بمنعها. وقد عالج التوجيه الكريم مفهوم الوجوب بما يحقق قدر الاعتدال، إذ أوجب عدم الإسراف مقابل الأمر بالأَكل والشرب، ليتحقق بذلك التوازن والاعتدال ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ بل أكد النهي عن الإسراف ومجاوزة الحد بنفي محبته سبحانه وتعالى لمن أسرف ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ مما يبين أن منهج الله تعالى قائم على القسط والعدل، كما قال تعالى فيما سبق من الآيات ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ﴾

ثم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للذين حرموا اللباس وتغطية العورات عند الطواف ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ فهو سؤال استنكار، وتوبيخ، وتقريع لمن حرم زينة الله تعالى افتراء وكذباً من غير دليل، وهو كذلك سؤال تقرير بكذبهم. فمن هو الذي حرم عليكم زينة الله تعالى التي خلقها لعباده؛ لتتزينوا وتتجملوا وتستروا عوراتكم بها؟ وكذلك من حرم رزقه من

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٠٠)

المطاعم التي رزقكم إياها؟ ومن دقة النص الكريم وبلاغة بيانه أن استوعب التوجيه ما كان يحرمونه في الجاهلية، وما يمكن أن يحدث في أي زمان ومكان من الافتراء، ليكون قاعدة في التحريم والتحليل، بأن أحكام التحريم والتحليل مقصورة على ما كان من عند الله تعالى، فلا يجوز لأحد أن يحرم مطعوماً أو مشروباً أو لباساً غير ما حرمه الله تعالى، وأنه لا يجوز لأحد أن يحلل ما حرمه الله تعالى من المحرمات، فالدليل والحجة هما: كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق المعاني أن كلمة ﴿زِينَةَ﴾ جمعت ما هو واجب ستره، وما هو مستحب، وما هو مباح، فالزينة: اسم جامع لما يتزين به[١] والزينة هنا: الملبس الحسن، إذا قَدُرَ عليه صاحبه، وقيل جميع الثياب، كما روي عن عمر رضي الله عنه، أنه قال: إذا وسع الله عليكم فأوسعوا[٢] وقد دلت الآية على اللباس الرفيع من الثياب، والتجمل بها في الْجُمَع والأعياد، وعند لقاء الناس، ومزاورة الإخوان. قال أبو العالية: كان المسلمون إذا تزاوروا تجمَّلُوا[٣] والمقصود بالزينة في هذا النص الكريم: الزينة الخارجية من اللباس.

وكذلك من دقائق المعاني أن دلالة كلمة ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قد جمعت كلما هو طيب، ومستطاب، فهو حلال على الأصل، والله تعالى أحل الطيبات، وحرم الخبائث، وفي ربطها بقوله تعالى ﴿أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ ما يفيد أن الله تعالى هو الذي أخرج الزينة والطيبات من أجل العباد، ليستطعموها ويستطيبوا بمطعومها، ويتزينوا بمنتوجها، فقوله تعالى ﴿أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ جعل علة وجودها رزقاً مخصوصاً قد أخرجه الله تعالى للعباد. وبإضافة دلالة كلمة الرزق إليها ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ تكون قد استوفت أن كل مأكول ومشروب وزينة هو رزق، والرزق لا يكون إلا من الرازق وهو الرزاق سبحانه وتعالى. فجاء السياق بأقل الألفاظ مع سعة الدلالة والبيان، وهذا من الإعجاز البلاغي والبياني للقرآن الكريم.

ثم يبين الله تعالى الجواب الكافي للسؤال الذي ليس عندهم دليل على تحريمهم ما أحل الله تعالى من الزينة والطيبات من الرزق ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإن الأصل أنها للمؤمنين في الزينة، أنها من أجلهم، وإن جاز أن يشاركهم فيها غيرهم من الكافرين والأنعام والدواب، وهذا تخصيص إكرام وإنعام ورفعة من الله تعالى لهم، وأما في الآخرة فهي خالصة لهم دون غيرهم من الكافرين، فلا

(١) ابن منظور، لسان العرب (٢٠٢/١٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٥/٧-١٢٦)

(٣) المرجع السابق (١٢٥/٧-١٢٦)

يشاركهم فيها غيرهم، حيث أكدها الله تعالى بقوله ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فعن الضحاك: أن المشركين يشاركون المؤمنين في الدنيا في اللباس والطعام والشراب، ويوم القيامة يخلص اللباس والطعام والشراب للمؤمنين، وليس للمشركين في شيء من ذلك نصيب[1] فقل يا أيها النبي لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله تعالى ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ هي للمؤمنين في الحياة الدنيا، ويشاركهم غيرهم فيها، فإن الأصل فيها أنها للمؤمنين، وبفضل الله تعالى يشاركهم جميع العباد، وأما في الآخرة فهي خالصة للمؤمنين، لا يشاركهم غيرهم فيها من الكفرة والمشركين. وفي هذا تكريم للمؤمنين بأن جعل الأصل فيما خلق من الزينة وطيبات المطاعم والمشارب أنها لهم، وأن مشاركة غيرهم لهم هو بفضل الله تعالى ورحمته، كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾ وقوله تعالى في سورة الإسراء ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ فيمد هؤلاء وهؤلاء بحكمته ورحمته.

ومن دقائق البيان أن جملة ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أبانت الاستثناء الخالص المخصوص للمؤمنين يوم القيامة من عموم مشاركتهم للمؤمنين فيما كان الأصل لهم في الحياة الدنيا، واستغنى السياق عن إضافة غيرهم لفظاً، وأوضحها وأبانها دلالة السياق، بأسلوب غاية في دقة البيان، إذ أن قوله تعالى ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ما يفيد أنها في غير يوم القيامة ليست خالصة لهم، بل هي لهم ولغيرهم، واصطفاؤهم بالذكر في قوله تعالى ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هو اصطفاء تكريم، بأنهم هم الذين يستحقونه أصلاً، مما يدل على أن وجود المؤمنين نعمة على الكافرين. وهذا السياق البياني دليل على المزيد من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، الذي يعجز المخلوق عن تركيب مثله ولو اجتمعوا على ذلك، فسبحان من أعجز بكلامه عباده.

ثم يختم الله تبارك وتعالى هذا التوجيه بتأكيد دقة بيانه وتفصيله ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فكما فصلنا وبينا لكم الحلال والحرام، وما يجب وما لا يجب؛ كذلك نفصل لكم ما تحتاجون إليه بالحجج والأدلة والبيان والإيضاح في شأن الزينة؛ من اللباس وما يخص المطاعم والمشارب، فيبينها ربكم لقوم يعلمون ما فُصِّل وبُيِّن لهم. فوصف وسمى تبارك وتعالى المؤمنين بصفة أهل الفهم والعلم ﴿نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/١٦٠)

﴿ يَعۡلَمُونَ ﴾ لأنهم يسمعون آيات الله تعالى فيفهمونها ويعملون بمقتضاها، وفي هذا مدح وثناء لهم من الله تبارك وتعالى، وذم لغيرهم؛ لقاء إعراضهم عن تفاصيل آيات الله تعالى الواضحة الجلية.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بمخاطبة الذين حَرَّمُوا ما أحل الله تعالى، مبيناً لهم حقيقة ما حرمه عَزَّ وجل ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فقل يا أيها النبي لهؤلاء المشركين إن الذي حَرَّمَه الله تعالى ﴿ ٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ وهو: اسم جامع لكل ما تعاظم قبحه من الأفعال والأقوال، ومن ذلك الزنا والخمر، فهما أظهر أفعال الفحش ﴿ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أي: ما ظهر أمر فحشه، وما كان مستتراً ومستخفياً، أي جهرها وسرها، ويدخل في ذلك ما كان من أعمال الجوارح، وما كان من أعمال القلوب. فحوت كلمة ﴿ مَا ظَهَرَ ﴾ وكلمة ﴿ وَمَا بَطَنَ ﴾ جميع أنواع وأحوال وحالات إتيان الفواحش، وحوت كلمة ﴿ ٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ جميع القبائح المتعاظمة، وأنها من المعاصي العظيمة، ويدخل في ذلك طواف أهل الجاهلة عراة. وهذا من دقائق البيان في استيعاب جميع مفردات المراد.

وشملت جملة ﴿ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا ﴾ كل ما كان ظاهر فعله وظاهر حكم تحريمه، وكل ما هو معلوم، وكل ما هو مُعلن وظاهر للناس فعله وارتكابه، وشملت جملة ﴿ وَمَا بَطَنَ ﴾ جميع حالات الإسرار به، والتكتم والتستر بفعله، فإن خفي على الناس فإنه لا يخفى على الله تعالى، فيشمل ذلك جميع ما كان متعلقاً بحقوق الله تعالى، وحقوق العباد، فحَرَّم على عباده اقتراف الإثم الظاهر والباطن. ويدخل في ذلك ما تقترفه الجوارح من السمع والبصر واليد والرجل، وما يكون بالقلب، أو اللسان أو بالبدن كله، أو بشيء منه، فجمع النص الكريم جميع ما هو متعلق بدلالة النص من غير إعجاز ولا إطناب، وهذا من دقائق النص البلاغي، وعمق بيانه، فعلى قلة ألفاظه استوعب كمال المراد، فسبحان الذي لا تخفى عليه خافية.

كما أن الله تعالى حرم كذلك ﴿ وَٱلۡإِثۡمَ ﴾ والإثم إنما يكون بالعمد والقصد لجميع ما هو محرم، وأما ﴿ وَٱلۡبَغۡيَ ﴾ فهو الاستطالة على الناس بالظلم وتجاوز الحد فيه، وفي تخصيص الإثم والبغي بالذكر؛ بالرغم من أنهما من الفواحش، وذلك لبيان عظيم جرمهما، لأن في الإثم التعمد والقصد في فعل المعصية، وفي البغي الظلم المتعمد بالاستطالة على الناس، وفي تعيين الخاص مع ذكر العام ما يفيد التأكيد والإظهار والتعظيم، وقوة الزجر.

كما حرم الله تعالى الإشراك به ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ فإن الله تعالى حرم عليكم أن تجعلوا معه شريكاً في عبادته، أو في ملكه، وهو لم يُنَزِّل عليكم فيما أشركتم فيه حجة ولا دليلاً، ليكون لكم به سلطان فيما اتخذتم وقررتم، والسلطان هو الحجة والدليل.

وكذلك حرم سبحانه وتعالى القول عليه كذباً وبهتانا ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وهو الافتراء والكذب، فكل قول على الله تعالى من غير علم أنزله الله تعالى فهو محرم، فجمعت الآية الكريمة الأفعال والأقوال والاعتقادات المحرمة بإيجاز قد قَلَّت ألفاظه واستوفت معانيه المراد والمقصد.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾

يخبر الله تعالى بأن لكل أمة أجل ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞ﴾ فلكل أمة وقت تنتهي فيه، وهذا السياق قد استوعب في دلالته جملة من المقاصد، وهي: أن لكل أمة بغت أجل لعقوبتها، وأيضاً يكون بمعنى أجل الحياة، ويكون أيضاً بمعنى أن لكل أمة حظها مما قدَّره الله تعالى لها في أجلها، وجميع تلك الدلالات لا تعارض بينها، فيُقَدِّرُ الله تعالى لتلك الأمة ما يزيلها ويمحقها إذا أراد، ويقدر لكل أمة ما يشاء من الحياة ثم الزوال، ويقدر لكل أمة ما قدره لها في أجلها المحدد، وما قدره لها من البقاء والزوال. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: لكل أمة وقت معين محدود، ينزل فيه عذابهم من الله، أو يُميتُهم فيه، ويجوز أن تُحمل الآية على ما هو أعم من الأمرين جميعاً... إذا جاء أجل كل أمة من الأمم كان ما قَدَّرَهُ عليهم واقعاً في ذلك الأجل ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون[1] وذكر الساعة لأنها أقل أسماء الأوقات[2] وهذا من دقة ورحابة البيان في استيعابه الأوجه المتعددة بأقل الألفاظ. وهي أوجه لا تعارض بينها، بل إن جميعها مقصود بصفة العموم.

ثم يقول الحق عَزَّ وجل ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ يخاطب الله تعالى بني آدم أجمعين، بأن هناك رُسُل من جنسكم

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٠٢/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٠/٣)

بعثهم الله تعالى إليكم، فيُخبرونكم بآياته التي هي الحجج والأدلة والبراهين ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ ﴾ فإن مَن آمن وأصلح شأنه بالطاعة ولامتثال، فإنه لا خوف على هؤلاء مما هم قادمون عليه يوم القيامة، وكذلك ﴿ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ أي: ولا هم محزونون على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها، لأنهم سيجدون ما هو خير وأحسن منها، فينتفي الحزن بانتفاء الحسرة، لما يجدونه من الأفضل والأحسن عند الله تعالى، والذي يُنسيهم ما تركوا واجتنبوا من الشهوات المحرمة، من أجل طاعة لله تعالى. ومن دقائق البيان أن الله تعالى نفى عنهم حالتي الخوف والحزن، فالخوف يكون فيما هو حاضر وقادم، والحزن فيما مضى وفات.

ومن دقائق البيان أن جاء الأمر بالطاعة للرسل مضمراً، بعد قوله تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾ فيبينه ما بعده ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ ﴾ لأن بيان ما سيأتي عن الله تعالى من الرسل يستوجب الطاعة، بالإيمان والعمل الصالح الذي يمثله شرع الله تعالى. ثم قال تعالى عن من يكذب بالرسل ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فمن يكذب بحجج الله تعالى وكتبه التي جاءت بها الرُسُل استكباراً وتعالياً، فإنهم من أهل النار وأصحابها الملازمون لها، فهم مصاحبين لها، ماكثون فيها، لا يخرجون منها أبداً. ومن دقة تحقيق علة امتناع من يكفر أنه بسبب الكبر، وليس بسبب الجهل، أو قلة البراهين وضعف الآيات، ولذلك حدد وفسر وعلل امتناعهم بالتكذيب والاستكبار ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ ﴾ فإن علة وسبب تكذيبهم هو الاستكبار. مما يبين خطر الاستكبار على النفس، فإذا كان خطره قد امتد إلى الدين، وما يتبعه من الجنة والنار، فكيف بقوة أثره على ما هو دون ذلك، فإنه يؤدي إلى البطر والتجبر. فسبحان الله تعالى الذي ظهرت حججه حتى في دقة بيانه.

﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا
دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا
فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا
كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا

وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

يؤكد الله تبارك وتعالى شناعة من يكذب عليه عَزَّ وجل ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ فليس هناك أشنع وأقبح ممن تَقَوَّلَ واختلق على الله تعالى ما لم يقله ﴿ أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ أو كذب حجج الله تعالى وأدلته الدالة عليه، وعلى صدق نبوة أنبيائه، فأنكر صحتها وردَّها متعاظماً لنفسه. وقد ورد البيان الرباني في تشنيع المكذبين على الله تعالى والمكذبين بآياته بأسلوب التقرير، فجاء سؤالاً تقريراً ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ فهل هناك أظلم ممن افترى على الله الكذب؟ فالجواب: لا، فتقرر بالنفي. كما تضمن النص الكريم الاستنكار لقولهم في آن واحد، فهو تقريري بأنه ليس هناك أكبر جرماً من أولئك، واستنكاري، بمعنى: فهل هناك أكثر وأعمق وأدهى ظلماً ممن يفتري على الله الكذب، وفي هذا بيانٌ وشدٌ للانتباه بقوة التحذير، واستحقاق العقوبة القاسية. فليس هناك أبعد ظلماً من هذا الصنف من الناس الذين يستحقون سوء العذاب. فهؤلاء سيأخذون نصيبهم مما كُتِب لهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ولكن ما هو نصيبهم الذي كُتِب لهم؟ فهذا النص الكريم بهذا السياق استجمع كل ما سبق علمه من الله تعالى عنهم؛ فَكُتِب في اللوح المحفوظ، من آجال، ومن عقوبة، ومن رزق، فقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى الأقوال في ذلك، بأنه: العذاب، وأنه نصيبهم مما سبق لهم من الشقاء والسعادة، وأنه نصيبهم من الأعمال، وأنه نصيبهم مما وُعِدوا في الكتاب؛ من خير أو شر، وأنه ينالهم نصيبهم من الكتاب الذي كتبه الله على من افترى عليه، وأنه ينالهم نصيبهم مما كُتب لهم من الرزق والعمر والعمل. وقال أيضاً ابن جرير: أولئك ينالهم نصيبهم مما كُتب لهم من خير وشر في الدنيا، ورزق وعمل وأجل، وذلك أن الله جَلَّ ثناؤه أتبع ذلك بقوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[١] وقال ابن كثير: قال محمد بن كعب القرظي، قال: عمله ورزقه وعمره، وكذا قال الربيع بن أنس؛ وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه[٢] وسواء كان المقصود نصيبهم في الدنيا أو نصيبهم في الدنيا والآخرة، فإن

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/١٦٨–١٧٥) ملخص

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٢١)

سلطان النص الكريم استجمع الدلالات في تظافر وتكامل وتوافق، ليتأكد العمق البياني العظيم في بلاغة كلام الله العزيز الكريم.

ثم بين الله تعالى حال انقضاء آجال أولئك، وكيف يكون أمرهم، حتى يكون الْمُخَاطب على بينة وموعظة من ذلك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فإذا جاءت رُسُل الله تعالى لأخذ أرواحهم، وهم ملك الموت وأعوانه، تقول لهم الرُّسُل ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أين هم الذين كنتم تشركونهم وتدعونهم من دون الله تعالى؟ أين هم عنكم اليوم؟ أين هم من إنقاذكم؟ ليفيد التوبيخ، والتقريع واللوم على التفريط في عدم الطاعة، باستكبارهم، ونأيهم عن آيات الله تعالى. فيردون جواباً ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي: ذهبوا وغابوا عنا، فافتقدناهم، وهنا يحصل منهم الاعتراف ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ فيقررون ويُقِرُّون تقرير الشَّاهِدِين على أنفسهم، والمعترفين بأنهم كانوا جاحدين وحدانية الله تعالى. وهذه أولى مواقف الندم التي لا مجال لتصحيحها. نسأل الله تعالى العافية.

ويخبر الله تعالى عَمَّا يُقال لهؤلاء المكذبين بآياته؛ المفترين للكذب عليه ﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ ادخلوا مع جملة من كان مثلكم، وعلى دأبكم؛ ممن اتصفوا بمثل صفاتكم من الجن والإنس، فإنهم في النار، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وقوله تعالى ﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ ﴾ إن الله تعالى يقول لهم ذلك بواسطة الملائكة، لأن الله تعالى لا يكلم الكفار يوم القيامة[1] وإذا دخلت أمة على من سبقها كان العتاب بينهم ما قاله عَزَّ وجل ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا ﴾ فتلعن وتشتم الأمة القادمة من كان قبلهم من أهل ملتهم، قال السدي رحمه الله تعالى: يلعن المشركون المشركين، واليهود اليهود، والنصارى النصارى، والصابئون الصائبين، والمجوس المجوس، تلعن الآخرة الأولى[2] مما يفيد أن الاقتداء بغير علم وحقيقة وبرهان صحيح فإنه يؤدي إلى الندامة والتهلكة، وحينها لا ينتفع المقتدي بمن قلد واقتدى، بل يلعنه ويشتمه على ما كان من اغراء بينهم، فقد تلاعنوا، لأن بعضهم ضل باتباع بعض. وقد سمى الله تعالى العلاقة في الملة بين هؤلاء الكفار أُخُوَّة ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا ﴾ فكل مشارك لغيره في ملته أخ لهم.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٢/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٧/١٠)

ويخبر الله تعالى عن حالهم حين يجتمعون في النار جميعاً ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابًا ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ فإذا ادَّاركوا فيها، أي: تلاحقوا واجتمع فيها أهل الملل الكافرة من الأولين والآخرين جميعاً، فإنه يحصل بينهم هذا الحوار ﴿ قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابًا ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ فتقول آخر أهل كل ملة دخلت النار لأختها التي سبقتها، وضلت بسبب الاقتداء بها، وبما شَرَّعوه من الافتراء ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابًا ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ فيخاطبون ربهم أن يضاعف لهم العذاب، لقاء تأسيسهم الكفر، فيخبر الله عَزَّ وجل عن جوابه الذي سيكون لهم، وهو ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعۡفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾ فجميعكم، من أولكم إلى آخركم فإن له الضعف من العذاب. ثم يقول عَزَّ وجل ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾ فإنه عذاب مضاعف؛ ولكن لا تعلمون ذلك. ويفيد كذلك: لا تعلمون أيها المخاطبون ما لكل فريق من العذاب، ويفيد كذلك: لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ذلك، ذكر تلك المعاني ابن الجوزي رحمه الله تعالى[١] وهذا من بديع التوجيه الكريم؛ بأن حمل واستوعب السياق تلك الأوجه في أربع كلمات ﴿ لِكُلٍّ ضِعۡفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾

ومن جليل الفوائد وعظيمها أن أوضح جَلَّ جلاله الحال التي سيكون عليه أولئك الكافرين منذ أول لحظات مفارقة الدنيا، عند نزع الروح، لتقوم الحجة على الكافر، وليتعظ ابن آدم جميعاً، فإنه مُقبل على حقيقة واضحة المآل، فلا عذر لأحد من خلقه. فسبحان الله العظيم.

ثم يستمر الحوار بين أُولاهم وأُخراهم ﴿ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٍ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾ فتُجيب وتَرُد أُولى كل أمة مضت على أُخراها من بعدهم؛ ممن اقتدوا بهم وسلكوا مسلكهم بما أخبر به تبارك وتعالى ﴿ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٍ ﴾ ليس لكم من فضل تفضلتم به علينا من تخفيف العذاب، فجميعنا سواء في العذاب وفي ضِعْفِه، فلم يخفف عنكم لقاء اتباعكم لما اخترعنا من الكذب على الله تعالى، وتكذيبنا بآياته. فكأن لسان حال الأولى يقول: سواء لعنتمونا أو لم تلعنونا، وسواء طلبتم لنا ضعف العذاب أو لم تطلبوه، فجميعنا سواء في العذاب وفي ضِعْفِه، فليس لكم فضل علينا بالتخفيف عنكم، فَلُوموا أنفسكم باتباعكم لنا، ولا تلومونا، فهم يتبرؤون منهم، ومن اقتدائهم بهم. وهكذا

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٣/٣)

كل متأس بمنحرف لا يلوم إلا نفسه، وأن تَأسِّيه لا ينفعه بشيء، ولا عذر له به، بل يتحمل كل إنسان مسلك نفسه، ومسؤوليتها ﴿**فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ**﴾ فذوقوا العذاب بما اكتسبتم من الكفر والتكذيب بآيات الله تعالى. ومن فوائد البيان أن قولهم ﴿**بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ**﴾ فيه تحديد للمسؤولية، بأنكم أنتم الذين اكتسبتم الكفر، فأنتم مسؤولون عن أنفسكم، فذوقوا النتيجة، فلم نكن نحن الذين أكسبناكم الكفر وأرغمناكم عليه، فكان بإمكانكم أن تكتسبوا الإيمان بالآيات، وبطاعة الرُّسُل الذين بعثهم الله تعالى إليكم. فإنه حوار يبعث في النفوس الحذر من مجاراة الظالمين، والاتباع بغير هدى وآية وحجة.

ويخبر الله تعالى عن حال هؤلاء الكفار بعد موتهم ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ**﴾ فالذين كفروا بأن كذبوا وصدوا وأنكروا آيات الله تعالى، متعالين عليها ومستكبرين عنها ﴿**لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ**﴾ فأول ما تواجهه أرواحهم أنها لا تفتح لها أبواب السماء، فضلا عن أعمالهم المردودة جميعاً، لأنها فاسدة خبيثة، فالذي يصعد إلى السماء هو الكلم الطيب والعمل الصالح، كما قال تعالى في سورة فاطر ﴿**إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ**﴾ وفي الحديث عن قبض روح العبد الكافر قوله صلى الله عليه وسلم (... حتى ينتهي إلى السماء الدنيا، فَيُستَفتَح له، فلا يُفتح له) [١]

وتدل كلمة ﴿**لَا تُفَتَّحُ**﴾ على المبالغة، لتشديد التاء الثانية، لتفيد استحالة فتح أبواب السماء لهم، وفي هذا بيان وإنذار، وتوبيخ وتهديد وتقريع لكل مستكبر على الله تعالى. وكلمة ﴿**وَٱسۡتَكۡبَرُواْ**﴾ تدل على التعالي، وكأنهم في غنى عَمَّا جاءهم من الله تعالى من الهدى، لأن الاستكبار يحمل معنى الإعجاب بالنفس، فيرى في نفسه أنه أكبر من أن يستسلم لآيات الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وإن أعظم أنواع التكبر هو التكبر على الله تعالى، بالامتناع عن قبول ما جاء عنه من الحق سبحانه وتعالى، وذلك بالخضوع له بالعبادة، والاستسلام له بالتوحيد والانقياد له بالطاعة. ولذلك لا يدخلون الجنة ﴿**وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ**﴾ وأكد الله تبارك وتعالى استحالة دخولهم الجنة كاستحالة ما ضربه من مثل جَلَّ جلاله ﴿**وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ**﴾ وهذا للمبالغة في استحالة دخولهم الجنة، كما يستحيل أن يدخل الجمل في ثقب

---

(١) أحمد، المسند (٤٩٩/٣٠) برقم (١٨٥٣٤)

الإبرة، والسَّمْ هو الثقب الصغير، فكما أن هذا الحجم الكبير لا يمكن له أن يدخل في ثقب الإبرة الصغيرة، فكذلك استحالة دخول الكافر الجنة. ليؤكد خلودهم في النار. أجارنا الله تعالى منها وجميع المسلمين. فكان جزاؤهم من جنس أسلوبهم وعملهم، فكما أنهم بكفرهم واستكبارهم عن آيات الله تعالى الواضحة، واستعلائهم عليها، فإنه قد استعلت عليهم منزلة ومكانة السماء ورفعتها وكذلك حظوة الجنة ونعيمها وفضلها، فقد قابل استحالة استسلامهم ودخولهم في دين الله تعالى، قابله ايضاً استحالة حصول شرف صعود أرواحهم إلى السماء ودخول الجنة. فهو بيان وتحذير عظيم من الله تعالى العظيم. مما يبين عظيم رحمة الله تعالى، إذ يعظهم ويحذرهم، ويبين ما هم قادمون إليه بكل وضوح.

ومن تعدد البيان أن لفظة ﴿ٱلْجَمَلُ﴾ قد قُرئت ﴿الجُمَّلُ﴾ فتكون بمعنى الحبل الغليظ، وقيل حبل السفينة، فيكون المعنى حتى يدخل الحبل الغليظ في ثقب الإبرة الصغير، وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والصواب من القراءة، ما عليه قراءة الأمصار، وهو ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ بفتح الجيم والميم، وتخفيفها، وفتح السين من (السَّمِّ) لأنها القراءة المستفيضة في قراءة الأمصار، وغير جائز خلاف ما جاءت به الحجة[1]

ثم قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: بمثل هذا الجزاء العظيم من الحرمان من الجنة نجزي كل الكافرين، بأن لا تفتح لهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة، فإن الإجرام الحاصل منهم هو المانع لهم من تحصيل الفضل، ليقابله حصول العذب العظيم ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فلهم فرش من جهنم ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وهي الأغطية، أي: أن لحفهم وأغطيتهم من جهنم. نسأل الله تعالى العافية. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وبمثل هذا الجزاء نجزي كل ظالم، فكل كافر قد ظلم نفسه بكفره وجحوده لآيات الله تعالى، فأكسبها هذا العذاب المهين. وقد وصفهم الله تعالى بالمجرمين، ووصفهم بالظالمين، وفي ذلك تجلية وتوضيح لصفة فعلهم ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولصفة ما أوقعوا أنفسهم فيه من ظلم أنفسهم ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بأن ظلموها بجرمهم الذي اكتسبوه من الاستكبار؛ والكفر بآيات الله تعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/١٩٤-١٩٥)

لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى جزاء الكافرين، يذكر عَزَّ وجل جزاء المؤمنين، ليقارن الْمُخَاطَب بين المسلكين والجزاءين، حتى يتعظ، ويكون على بينة ووضوح من الأمر ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فالذين التزموا الإيمان بالله وبِرُسُله وخاتمتهم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم؛ وبما جاءهم من الله تعالى، وقرنوا الإيمان بعمل الصالحات، فأولئك أهل الجنة المصاحبون لها. وقد سمى الله تعالى تشريعه بالصالحات ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ليفيد أن شرعه منزه عن كل فساد، فما هو إلا صلاح وإصلاح، فهو صلاح للنفس، وصلاح لحياتها، وصلاح لآخرتها، وصلاح لمجتمعها، فهو صلاح في كل صغير وكبير.

ومن دقائق البيان أن خص الله تعالى من اتصف بصفتين عظيمتين بدخول الجنة: فأولها: الإيمان ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي: صَدَّقُوا بقلوبهم، فآمنوا بجميع موجبات الإيمان وحقائقه، من غير استثناء. فآمنوا بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن، وبيوم القيامة، والبعث، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، وبجميع كتبه ورسله، وكل ما هو متعلق بالإيمان. وأما والصفة الثانية: هي ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التي هي عبادة لله تعالى بطاعته. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا وفي الآخرة.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ العلاقة الترابطية والمتلازمة بين الإيمان وبين العمل بالطاعة لله تعالى وفق ما شرع. فقد جمع الله عَزَّ وجل بينهما بحرف العطف. فالذين آمنوا بتصديقهم بالله تعالى وبرسوله وبما قررته شريعة الله تعالى، وعملوا الصالحات التي هي القيام بما أوجب الله تعالى من العبادات الشاملة لجميع ما أمر الله عَزَّ وجل به من الفرائض وغيرها من السنن والمستحبات. فإنه بذلك يتعاضد الإيمان مع عمل الصالحات، فيشتركان في الطاعة ولامتثال بها. وسَمَّى اللهُ سبحانه وتعالى أعمال دينه بالصالحات، لأن جميع الأعمال التي أمر الله تعالى بها قد اتصفت بتحقيق الصلاح والإصلاح في النفس، ومع الله تعالى، ومع الغير. وتستوفي جميع أوامره عَزَّ وجل، وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة

مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله. وهذا البيان يستحث المؤمنين على لزوم الطاعة، والمسارعة إلى كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه. وهو فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى لأهل طاعته. كما يستحث الكفار على المسابقة إلى الدخول في الإسلام، والامتثال لدين الله تعالى، الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق صلاح هذا الدين هو مراعاته لأحوال الإنسان، فلم يكلف نفساً إلا وسعها ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾ فتشريع الله تعالى متضمن من الصالحات ما ينصلح به أمر العباد، بل ومن دقته توافقه مع فروق طبيعة النفس البشرية، فإن الله تعالى لم يكلف نفساً إلا وسعها، فلا يكلفها فوق طاقتها وقدراتها، فقد راعى الفروق الفردية بين العباد، في قدراتهم وتقلبات أحوالهم، مما يتأكد به أن هذا الدين بتشريعه العظيم قد انتفى منه ما يصعب على النفس أن تقوم به، فلا مشقة في شرع الله تعالى، ومنها عبادة القصر والجمع في صلاة المسافر، وتأجيل صيام المسافر والمريض، وتقدير النفقة، وغيرها من التشريعات.

فإن من رحمته سبحانه وتعالى أنه لم تكن في الشريعة ما يشق على النفس، ولا بما لا تتسع له القدرة البشرية، ومن رحمته أنه رَخَّص لكل حال من أحوال العباد بما يتوافق ويتناسب مع تغير وتقلب أحوالهم، فرخص للمريض مثلاً: الإفطار في رمضان ثم القضاء، ورخص للعاجز عن الصلاة قائماً، أن يُصلي جالساً، وجعل ربع العشر للزكاة. وللساهي في الصلاة سجود السهو. فمن رحمته تبارك وتعالى لم يُكلف ولم يُلزم أحداً إلا بما تتسع له طاقته وقدرته. وهو عالم بسعة كل أحد من خلقه، فيعرف سعة وقدرة المريض على ما يمكن أن يقوم به، وكذلك صاحب المال والفقير، والخائف والآمن، فيعلم الله تعالى حال كل أحدٍ من عباده على ما يمكن أن يقوم به من أمر في طاعته، فيما افترضه أو ندب إليه، وكذلك يعلم على أي حال يمكن أن يقوم بها، فلا يخفى عليه شيء عَزَّ وجل.

وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الجنة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فهم مصاحبون للجنة، خالدون ومقيمون فيها، لا يتحولون عنها أبداً، فليس فيها من الأسباب ما يخرجهم منها، وفي هذا مزيد من التطمين، بأن من دخلها كان آمناً من الخروج منها، ومن كل ما يسوء أمره ونفسه وحاله، فهي دار جزاء ومكافأة؛ لا دار ابتلاء وامتحان، ومن خصائص أهلها الذين يدخلونها أن الله تعالى ينزع الغل من قلوبهم ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ وهذه نعمة نفسية عظيمة، فَيُخَلِّصُ الله سبحانه وتعالى قلوب أهل الجنة من الحقد، ويصفيها من الحسد، فلا يحمل بعضهم على بعض في شيء كما يكونون في الدنيا، فتنتفي من القلوب الشحناء، والعداوة والحقد والحنق والحسد على ما هم فيه من تفاضل الدرجات، بعضهم عن بعض، فتصبح القلوب نظيفة طاهرة، سعيدة بما يليق بنعيم الجنة. كما أن دلالة ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ تفيد التخليص، بقلع الغل

من مكانه في الصدر، وذلك بجذبه واستخراجه وأخذه من مكانه، فينعدم وجوده نهائياً، فلا يبقى له أثر في الصدر، ومن جليل الفوائد أن مكان الغل ومستودعه في الصدور ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ وهذا من دقائق البيان التي تبين للمخاطبين دقة علم الله عَزَّ وجل مع دقة بيانه الكريم.

ومن مزيد ثواب الله تعالى وكريم عطائه، أن بَيَّنَ عَزَّ وجل وصف الجنة التي أعدها لهم؛ بأنها ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي: أنها جنات من البساتين التي تجري من خلالها الأنهار، في جريان مستمر، لا ينقطع، ولا يضعف. فتجري من أسافلها، لتمر في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها وقصورها، من غير انقطاع. أي: تتدفق من خلالها الأنهار الكثيرة. حيث وردت ﴿ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ بصيغة الجمع، لإفادة الكثرة والتعدد والتنوع. فقد اتصفت تلك الجنات بكثرة الأنهار ودوام تدفقها من تحت قصورها، وبين أشجارها. فيزداد بها المؤمن سعادة وبهجة وسروراً.

ثم يخبر الله تعالى بما يقولون من كثرة ما يجدونه من النعيم المقيم ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ فيحمدون الله تعالى ويثنون عليه على أن وفقهم لهذا النعيم، بطاعته ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ ويُرجعون هدايتهم واتباعهم لما جاء به المرسلين إلى توفيق الله تعالى لهم ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ بل يجزمون ويؤكدون أنه لولا توفيق الله تعالى بهدايتهم للحق لما حصل لهم ذلك. ويفيد هذا أن على المؤمن أن يحمد ويشكر الله تعالى على أن وفقه للإيمان والإسلام ولشريعته، وأن يسأله الثبات على ما هداه له، ويسأله أن يكون من أهل الجنة، فإنه لا توفيق إلا بتوفيق الله تعالى وهدايته. فالحمد لله تعالى على نعمة الإيمان والإسلام، ونسأله الثبات على ما يحبه ويرضاه، وأن يبلغنا جميعاً جناته التي تجري من تحتها الأنهار بفضله ورحمته، إنه كريم رحمن رحيم لطيف.

ويقول أهل الجنة عند رؤيتها ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ فعند رؤية الجنة يقرون بما أقروا به في الدنيا إقرار معاينة، بعد أن كان إيماناً بالغيب، فأقروا بالحق بما رأوا، ونفوا بذلك كلما وُصِفُوا به من قبل الكفرة المستكبرين. ﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيقال لهم: تلك هي الجنة التي كنتم تُوعدون بها في الدنيا، فقد رأيتموها حقيقة. ﴿ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي بسبب أعمالكم نالتكم رحمة الله؛ فدخلتم الجنة، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم، وإنما سبب الحمل

على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم[١] (لن يُدخِل أحداً عملُهُ الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا) [٢]

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يخبر الله تعالى بتفاصيل ما يكون من تخاطب بين أهل الجنة وأهل النار، وكذلك ما يكون من التخاطب بين أصحاب الأعراف وأهل الجنة وأهل النار ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾ فالذين أدخلهم الله تعالى الجنة ينادون الذين أُدْخِلُوا النار، قائلين لهم: إننا قد وجدنا حقيقة ما وعدنا به ربنا على ألسنة رُسُله، وما جاء في كتبه التي أنزلها ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ فهل وجدتم النار التي وعدكم بها الله تعالى بسبب كفركم. ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾ وقد تضمن هذا البيان الخطابي تفاصيل دقيقة، منها إنعام الله تعالى على أصحاب الجنة، بأن تحدثوا في نعيهم مع أصحاب النار وهم في غمرة العذاب. وقد بين الله تبارك وتعالى حديث أهل الجنة لأهل النار بأسلوب النداء ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ والنداء يكون للبعيد، ولكن بقدرة الله تعالى يُسْمِعُ اللهُ بقدرته كل طرف مخاطبة الطرف الآخر له. وقد سمى الله تعالى كل فئة بما لصقت به من المصاحبة والملازمة ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ مما يفيد الثبات والدوام بالمصاحبة، حتى أصبحت صفة مصاحبة لهم، فأصحاب الجنة في مصاحبة لها

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٢٤)

(٢) البخاري، الصحيح (٤/٣٠) برقم (٥٦٧٣)

لا تزول، وأصحاب النار في مصاحبة لها لا تزول. وهذه المناداة تُوقع مزيداً من الحسرة والندامة لأصحاب النار، فتكون عذاباً نفسياً لهم، إضافة إلى العذاب الحسي، كما يفيد هذا البيان من الله تعالى التنبيه والوعظ للأحياء بما سيكون من حال الفريقين، ليكون ذلك إنذاراً للعاصي، وبشارة وتثبيتاً لمن أطاع.

وجملة ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾ أفادت تحقق ما وعد الله تعالى به لمن أطاعه، فأصبح حقاً لا ريب ولا لبس فيه، يعايشونه كما جاء الوعد به، وحرف ﴿ قَدْ ﴾ أفاد التحقق والتأكيد، وكلمة ﴿ حَقًّا ﴾ أفادت مزيد تأكيد التحقق، وفي جملة ﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾ سؤال استفهام، يفيد ما يثير الألم والحسرة، والتوبيخ والتقريع. ويجيب أصحاب النار بكلمة واحدة ﴿ قَالُوا۟ نَعَمْ ﴾ دون مزيد من الإيضاح، بما يفيد: نعم وجدنا ما وعد ربنا حقاً، كما جاء على ألسنة الرسل، وما نزل من الكتب.

فينادي مناد بينهم ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: فنادى مناد بين أصحاب الجنة وأصحاب النار يقول ﴿ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: غضب الله تعالى على الظالمين، فسماهم الله تعالى في هذا الموقف بالظالمين، لأنهم ظلموا أنفسهم بإدخالها هذا العذاب، بسبب جناياتهم من الكفر والاستكبار على الله تعالى، فأودت بهم إلى هذا العذاب، فلم يظلمهم الله تعالى، بل ظلموا أنفسهم. وقد بين الله تعالى جناياتهم فيما قاله المؤذن بينهم بالنداء ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ فجناياتهم مركبة من ثلاثة أعمال، الأولى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: يحولون بين الناس وبين ورود سبيل الله تعالى، والصد يفيد المنع؛ بأسلوب التهوين والتخذيل والتكذيب والقدح، فلم يكتفوا بكفرهم، بل تجاوزوا ذلك إلى صد الناس عن سبيل الله تعالى. والعمل الثاني لهم هو: ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي: محرَّفة زائغة، فيريدون رد الإيمان والاستقامة إلى الضلالة، وهذا يفيد ويدل على أنهم يحاربون دين الله تعالى، ويحاولون الإضلال والطعن في هذا الدين، وإخراجه عن استقامته وحقيقته إلى الاعوجاج. وأما العمل الثالث: ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ والكفر ستر الشيء، فيسترون الحقيقة بتكذيبها، والتغطية عليها، أي: ينكرون الآخرة، فيجحدونها، ومن يجحد الآخرة فقد كذَّب الرُّسُل وأنكر قولهم وبيانهم وحججهم، وبذلك أنكروا ما جاء عن الله تعالى، ومن يجحد الآخرة فقد جحد البعث والنشور، والجزاء، والجنة والنار، فيجعلون من نكرانهم لها ما يتمادون به في الضلال، ويوهمون أنفسهم بأنه لا عقوبة، ولا حساب، ولا بعث ولا نشور.

ثم يبين الله تعالى أن سوراً مضروباً بين الفريقين ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أي حاجز، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة الحديد ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ ونقل ابن جرير رحمه الله تعالى: أن الحجاب، هو السور، وهو الأعراف، وسُمّي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يَعْرِفُون الناس[١] ولا أحد يعرف عرض هذا السور إلا الله تعالى، فملكوت الله تعالى أعظم من أن يتصوره الإنسان، أو أن يحيط به علماً. ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف. مَنْ هُم؟ وكلها قريبة؛ ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة، وابن عباس، وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله[٢] وقد زودهم الله تعالى بأنهم ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ﴾ أي: أن أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة وأهل النار، وسيما أهل الجنة: بياض الوجوه، وسيما أهل النار: سواد الوجوه، وزرقة العيون، والسيما: العلامة، وعرفوا الناس لأنهم على مكان عال، يشرفون فيه على أهل الجنة وعلى أهل النار[٣]

فنادى أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنة ﴿ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ والنداء هو رفع الصوت، مما يفيد بُعْد أهل الأعراف عن أهل الجنة وأهل النار، فنادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة مُسَلِّمِين عليهم ﴿ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: حلت عليكم أَمَنةُ الله من عقابه، وأليم عذابه[٤] ويخبر الله تعالى عن أهل الأعراف بأنهم ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ فهو إخبار لنا أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة، وهم يطمعون في دخولها، قاله الجمهور[٥] وإذا اتجهت أبصار أهل الأعراف تجاه أصحاب النار سألوا الله تعالى أن لا يدخلهم النار ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فيسألون الله تعالى أن لا يجعل مقامهم مع القوم الذين ظلموا أنفسهم، باكتساب سخط الله تعالى، تلقاء كفرهم وبغيهم ومحاربة دين الله تعالى.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠٨/١٠-٢٠٩)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٥/٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٠/٣)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢٥/١٠)

(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٠/٣)

ومن الحوار الذي سيدور قوله تعالى ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ فينادي أهل الأعراف رجالاً من أهل النار، يعرفونهم بأوصافهم. وقد وردت المناداة بصيغة الماضي ﴿ وَنَادَىٰٓ ﴾ مما يعطي أن ما سيكون مستقبلاً فكأنه قد كان وحدث، ليتبين ويفيد أن قدرة الله وتعالى ومراده كائن لما سيكون؛ وكأنه قد كان وحصل، ليتصوره الْمُخَاطَب ويعيشه كأنه يراه، فسبحان الله العظيم، فما أعظم بيانه، وما أجمل بلاغته. وهذا النداء من أصحاب الأعراف لأصحاب النار بما يعرفونه من سيما أهل النار ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ يعيرونهم ويستلهبون مشاعرهم في تقرير خطأ كفرهم ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ ﴾ لم يغنكم كثرتكم، ولا ما جمعتم من حطام الدنيا، وتكثركم منها وبها، وتكاثركم فيما بينكم، وكذلك يعيرونهم باستكبارهم ﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ ولا تكبركم واستكباركم على آيات الله تعالى، وعلى رُسُلَه. فأين هم اليوم عنكم؟

يقول الله تبارك وتعالى ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ فأهل النار أقسموا أن أهل الأعراف داخلون النار معهم، وأن الله لن يدخلهم الجنة، فيقول الله تعالى لأهل النار ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني أهل الأعراف ﴿ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ رواه وهب بن منبه عن ابن عباس[1] فيتفضل الله تبارك وتعالى عليهم بأن يدخلهم الجنة، فيقول الله تعالى لأصحاب الأعراف ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ ادخلوا الجنة، فلا خوف عليكم مما تكرهون وتخافون، ولا حزن على ما مضى مما فاتكم، فأنتم في أمن واطمئنان. وهذا من لطف الله تعالى وكرمه على من تساوت حسناته مع سيئاته. فعاملهم بلطفه وكرمه ورحمته وتفضله عليهم سبحانه وتعالى.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١

(١) المرجع السابق (١٤٠/٣)

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بأن هناك حواراً استغاثياً من أصحاب النار لأصحاب الجنة ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ينادي أصحابُ النار لأصحاب الجنة نداء استغاثة. فبدأت استغاثتهم بالنداء الذي يفيد البعد، ولكن الله تعالى يُسمع من يشاء، وله الحكمة البالغة ﴿ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فيطلبون ويتمنون الماء والطعام، حتى أنهم ينادون مناداة المستغيث لأهل الجنة، مما يدل على عظيم ما نزل بهم من شدة العطش والجوع، عقوبة لهم من الله تعالى على ما كان وسلف منهم في الحياة الدنيا، فعن سعيد بن جبير أنه: ينادي الرجل أباه أو أخاه، فيقول له: قد احترقتُ، فأفض علي من الماء، فيقال لهم أجيبوهم، فيقولون ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] أي: أن ماء الجنة وطعامها محرمان على الكافرين ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ فهما محرمان على الذين اتخذوا دين الله تعالى وكتبه ورسله في الدنيا لهواً ولعباً، إذ كانوا يسخرون ويهزؤون ممن يدعوهم إلى دبن الله تعالى، مخدوعين مغرورين بحياتهم الدنيا، ومستكبرين عن سبيل الله تعالى، فعقابهم هو قوله تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي: نتركهم في النار، كما تركو العمل لهذا اليوم، فيعاملهم الله تعالى معاملة من نسيهم، لأنه سبحانه وتعالى لا يغيب ولا يمتنع عن علمه شيء، ولا ينساه تبارك وتعالى، ولكنه بمعنى التّرك، فيكون حالهم هو الحال المنسيين المتروكين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر، وقال أيضاً: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا[2] فيكون

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٢٨)

(٢) المرجع السابق (٢/٢٢٨)

جزاؤهم اليوم هو من جنس ما كانوا فيه في الدنيا، بأن ننساهم بمثل ما نسوا يومهم هذا، فنتركهم كما تركوا الاستعداد ليومهم هذا، فحالهم هو حال المنسيين في العذاب، المتروكين المهملين فيه، فلا يُكْتَرَثُ لحالهم، وفي هذا توبيخ وتحذير لهم، وموعظة وتحذير من ذلك، فإن هذا هو حالهم في النار، جزاء لِمَا كان منهم من جحود آيات الله تعالى ونكرانها. وفي نعتهم بالجحود لآيات الله تعالى ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ما يفيد ويبين أنه كان في قرارة أنفسهم أنهم يعلمون أنه الحق، ولكن يخالفون ما يعلمون ويعتقدون، وما هو مُتأكد عندهم، قال الأصفهاني عن الجحود: هو نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه[١] فالجحود هو مخالفة معرفة الحقيقة، بأن يكذب الحقيقة التي يعرفها ويدركها تماماً.

ويذكر الله تعالى بأن هؤلاء الكافرين المستغيثين بأهل الجنة قد جاءتهم النذر في الدنيا ﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإعراضهم عن دين الله تعالى، وجحودهم لآياته، وتغافلهم عن يوم القيامة والجزاء والحساب برغبة وعناد منهم؛ وإلا قد جاءهم كتاب الله تعالى، فبلغهم بلاغاً واضحاً لا لبس فيه، بل بلغ التوضيح فيه درجة التفصيل المبين الواضح ﴿فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهو على علم الله تعالى الواسع العظيم، وبما يناسب العباد ويحقق لهم به طريق الهدى، وحصول الرحمة للقوم الذين يتجاوبون معه فيؤمنون. وفي قوله تعالى ﴿فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ تعظيم لكتاب الله تعالى، وتعظيم لمضمونه ومحتواه، بأن ما فيه من الآيات والحجج والبراهين على علم بما يقنعهم ويبين لهم الحقيقة، ويؤكد لهم ما تستقيم به العقول والنفوس، فيأخذ من أخذ به إلى الهدى الذي تتحقق به رحمة الله تعالى للمؤمنين.

ومن دقة بيان هذه الآية الكريمة أن فيها تعظيم ما جاء من عند الله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ﴾ فبالرغم من أن القرآن الكريم نزل من الله تعالى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام، إلا أنه نسب المجيء بالقرآن الكريم له سبحانه ﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ﴾ وكأنه مباشرة لهم، مما يفيد عظيم منزلة القرآن الكريم، وقوة حجته، وذلك لما فيه من البراهين العظيمة الدالة على أنه من الله العزيز، إذ لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثله أبداً، ولو اجتمعت له الخلائق أجمعين، ثم أكد الله تعالى عظيم البيان في محتوى الكتاب ﴿بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ﴾ فالتفصيل يؤكد البيان الواضح المجزأ تجزئة يتميز بها دقة وضوح الحق من الباطل، والحلال من الحرام، والوعد والوعيد، والعبر والقصص، وأحداث الأمم، الذي تندفع به الجهالة، وتتحقق به

[١] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٨٨)

المعرفة، فالشيء المفصل هو الذي كثرة فصوله وتفصيله وبيانه. ثم إن هذا الكتاب جاء ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ فهو ليس مجرد كتاب، بل إنه على علم الله تعالى؛ الذي وسع علمه كل شيء، ومن ذلك ما أنزل من دقة بيان الكتاب وتفصيله، وكذلك عِلْمُهُ بما ينصلح به مَنْ أُرْسِلَ إليهم هذا الكتاب، فيعلم تفاصيل مكنون العباد، وما يصلح لهم، وما ينصلح به شأنهم، وما يتحقق به مراد الله تعالى، وبالتالي فإن الذي أنزله قد بلغ قمة وذروة ما ينصلح به الإنسان.

ومن دقة مضمون الكتاب أنه تتحقق به الهداية ﴿ هُدًى ﴾ فهو هداية لمن اتبعه، فقد اجتمع فيه كمال الهداية وانتفى منه الغموض، فالذي يهدي به الله تعالى واضح جلي مفصل، مما يفيد قوة هدايته وقوة تأثيره، وأن ثمرته الرحمة ﴿ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فهو رحمة لمن يؤمن به، والرحمة متضمنة للإحسان والإنعام والإفضال، فتتحقق لمن اتبع كتاب الله تعالى الرحمة من الله تعالى، فأي فضل أكبر من رحمة الله تعالى، فالحمد والشكر لله على نعمة الكتاب. وقد جاء لفظ الكتاب بصيغة التنكير ﴿ بِكِتَٰبٍ ﴾ وكذلك العلم ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ ليفيد التعظيم. وبما يفيد أنه إذا أطلق الكتاب مجرداً فلا يعني إلا كتاب الله عَزَّ وجل. فإنه كتاب الله تعالى لا غيره، لأنه أعظم كتاب أنزله الله تعالى على العباد.

ومن مزيد الفوائد أن الكتاب هنا، إذا أُطلق على أساس أهل الأعراف أجمعين فإنه يراد به كل ما أنزل الله تعالى من كتاب، فهو وصف تتصف بها جميع كُتُب الله تعالى، وإن خُصص فإنه يُراد به القرآن الكريم. قال الإمام الشوكاني: والمراد بالكتاب: الجنس إن كان الضمير للكفار جميعاً، وإن كان للمعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم فالمراد بالكتاب القرآن[1] فهذه الدلالة من هذا السياق أفادت سعة عطاء أوجه البيان، بما يقرر عظيم بلاغته، وإعجازه البياني. فسبحان الله العظيم.

ثم يقول تعالى مستنكراً على هؤلاء الجاحدين بالقرآن الكريم ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾ فبعد هذا البيان والتفصيل لهذا الكتاب يمتنعون عن التصديق والإيمان ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾ فهل ينتظرون ما وُعِدُوا به من العذاب والنكال والنار، قاله مجاهد وغير واحد فهو سؤال استنكار عن عدم تجاوبهم، ومحادتهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أي: يوم القيامة، قاله ابن عباس ﴿ يَقُولُ

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢١٠)

﴿ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ أي: يقول الذين تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا[١] يقولون ندماً وتحسراً على ما كان منهم ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ فيعترفون بأن رُسُل الله تعالى جاءت بالحق، بما يفيد أن هذا الحق الذي لو اتبعناه لَكُنَّا من الناجين ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ فيتساءلون تساؤل النادم، هل من شفعاء يشفعوا لنا مما وقعنا فيه، أو نُرد إلى الدنيا فنعمل بغير ما كفرنا به ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ فقد أفقدوا أنفسهم حظها من الجنة، وفقدوا ما كانوا يفترون من الكذب، فأين اليوم عنهم ما كانوا يفترونه؟ وجملة ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ تشمل جميع أنواع ما كان منهم من افتراء وكذب: من معبودات، ومن تكذيب الآيات، ومن الاستهزاء بالرسل، وغير ذلك من أنواع ما كان يفتريه المكذبون.

ويُخبر الله تعالى عن عظمته وجلاله، وعظيم خلقه، فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ فإن الذي أنشأكم ورباكم بنعمه، ويصلح شؤونكم هو ﴿ٱللَّهُ﴾ فالرب هو السيد، وهو المالك، وهو المتصرف، مما يستلزم عبادته على الوجه الذي عَلَّمَكُم، ثم يخبر سبحانه وتعالى بدلائل ربوبيته وملكه وإيجاده وخلقه ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ فربكم عَزَّ في علاه هو الذي أنشأ السماوات والأرض، وكلمة ﴿خَلَقَ﴾ بمعنى الإيجاد والإنشاء، وفي هذا لفت الانتباه إلى عظيم مخلوقات الله تعالى، وسعتها ورحابتها، ثم أخبر عن مدة خلقها ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ ذكر ابن جرير وغيره رحمهم الله تعالى: أن الأيام الست هي: يوم الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وجُمع الخلق في يوم الجمعة[٢] وفي يوم الجمعة خُلق آدم عليه السلام، ويوم السبت لم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه سُمي السبت، وهو القطع[٣] ولله تعالى الحكمة في تقدير ما يشاء من الأيام والأوقات، وهو قادر على خلق ما خلق في لحظة، ولكن ليظهر للخلق بهذا التدبير حكمته وحلمه، سبحانه وتعالى، فله الملك، وله الحكمة في عدد تلك الأيام، وفي كل أمر وشأن. ثم قال تعالى ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ تبارك

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٢٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٢٤٥)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٢٩)

وتعالى ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العظيم، الذي يسع السماوات والأرض، وما فيها، وما بينهما، استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه[١] والإنسان بطبعه يستوعب دلالة النص، ولكن لا يستطيع أن يدرك هيئة وصورة ما غيبه الله تعالى عنه، وهنا تأتي حقيقة الإيمان بالغيب من غير تشبيه ولا تمثيل.

وبعد بيان عموم خلق السموات والأرض، يتدرج البيان إلى تفصيل شيء من عظمة خلقه، وتدبيره وتسييره للكون سبحانه وتعالى ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ فإن الله تعالى هو الذي يُورد الليل على النهار فَيُلبسه إياه، فيُذهب نور النهار بمجيء الليل، ويُذهب ظلام الليل بمجيء النهار، في تعاقب ونظم بديع ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: سريعاً، فكل واحد منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً دون فتور أو تأخر عن موعده. وكذلك من أمر تدبيره سبحانه وتعالى أمر الشمس والقمر والنجوم ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فبعد أن ذكر جَلَّ جلاله أمر الليل والنهار ذكر المؤثرات في الليل والنهار، والمتعلقات بهما، من الشمس والقمر والنجوم، وجميعها تحت تدبيره وسلطانه وتسخيره، فجميعها مذللة لما أراده الله تعالى منها، سواء من الظهور أو الأفول، فإنها تسير حسب إرادته وتدبيره وتصريفه سبحانه وتعالى. وكلمة ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ تفيد كمال الذل لأمر الله تعالى، فهي مُطَوَّعة طائعة كما أمر سبحانه وتعالى. ليدل ذلك على كمال عظمته وحكمته وحُكمه وقهره وجلال سلطانه عَزَّ في علاه.

ويلاحظ هنا التدرج في البيان من عموم خلق السماوات والأرض ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إلى ما يتعلق بجزء الليل والنهار ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ ثم إلى المؤثرات في حدوث الليل والنهار؛ ومظاهر ذلك، وهي: الشمس والقمر والنجوم ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ليفيد دقة البيان في تعليمه وبيانه وتوضيحه.

وبعد بيان عظيم ما خلق جَلَّ جلاله، يقرر لعباده أن له الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فلربكم كمال الملك، وله كمال التصرف المطلق في ملكه، وكل شيء ملكه سبحانه وتعالى ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ إثبات أن الخلق له وحده لا شريك له، وكذلك ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ إثبات مطلق بأن الأمر له، فإنه يأمر بما يشاء

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١١٨/٢)

سبحانه وتعالى، فمن له الخلق والأمر فإن له الملك المطلق ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فتبارك وعَظُم وتعالى عَزَّ وجل في أوصافه وأسمائه وأفعاله، وحلت بركته وكثر خيره وفضله وإحسانه، فهو رب العالمين الذي له الخلق والأمر.

وجملة ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ سؤال تقريري، فإن الذي أنشأ وأوجد هذا من العدم هو مالك هذا الخلق، وله الأمر والنهي المطلق، وله كمال التدبير، فلسان حال الْمُخَاطب هو: نعم له الخلق والأمر، وله علينا وجوب طاعته وإفراده بالعبادة، فيقرر باعترافه أن لله تعالى الخلق والأمر. وقد ابتدأ البيان بحرف التنبيه ﴿أَلَا﴾ لإظهار الاهتمام بما بعده من بيان حال أن لله تعالى الخلق والأمر والتدبير والسلطان المطلق.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

بعد بيان إثبات ربوبيته سبحانه وتعالى، وخلقه السموات والأرض، وتفصيل أمر حدوث الليل والنهار، وخلق الشمس والقمر والنجوم، يتدرج التوجيه الكريم إلى ما يخص العباد في عبادتهم له عَزَّ وجل، فيوجه تبارك وتعالى عباده إلى دعائه ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فجاء التوجيه الكريم من رب العالمين بصيغة الأمر، ليفيد وجوب الدعاء وأهميته كعبادة تُبَيِّنُ وتُظهر تذلل العبد وافتقاره وخضوعه لرب العالمين، الذي له الخلق والأمر، وما يمثله الدعاء من حقيقة الافتقار والمسكنة له سبحانه وتعالى. وقد أرشد تبارك وتعالى عباده إلى صفة حال الإنسان عند الدعاء؛ بأن يكون متضرعاً ﴿تَضَرُّعًا﴾ وهو الخشوع والتذلل والاستكانة، وكذلك يجمع للتضرع الإسرار بالدعاء ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: الإسرار به، وذلك بإخفائه، وعدم الجهر به، لأن في الإسرار به قطع للرياء، وتحقيق للإخلاص، بما يفيد أهمية الإخلاص في الدعاء، وأهمية التواضع والانكسار بين يدي الله تعالى، وإظهار مشاعر الاستكانة والتضرع والتذلل، مع الإخلاص في الدعاء، والبعد به عن مواطن الرياء.

ثم أرشد تبارك وتعالى عباده إلى أدب وخُلُق الدعاء، بعدم تجاوز الحق في الدعاء ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ فإن الله تعالى لا يحب من يعتدي في دعائه، ولا في غيره، بأن يتجاوز في سؤاله وطلبه، أو في هيئة دعائه عَمَّا يجب أن يكون عليه، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: الاعتداء في الدعاء على وجوه، منها: الجهر الكثير، والصياح، ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي، أو يدعو في مُحَال، ونحو هذا من الشطط[1] مما يفيد أن على المسلم أن يتأدب ولا يذهب لموانع استجابة الدعاء، بالاعتداء في دعائه، لأن لكل شيء حد، فيجب الوقوف عنده، فإن الله تعالى لا يحب من يعتدي ويتجاوز في دعائه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ فكيف يستجيب لمن انتفت عنه محبته تبارك وتعالى باعتدائه وتجاوزه لحدوده التي حدها عَزَّ وجل. فإنه جَلَّ جلاله لا يحب من يعتدي عموماً، ومنها الدعاء.

ويتدرج التوجيه الكريم من الأمر بالدعاء الذي يمثل العلاقة بين العبد وربه، وما يجب فيه من لوازم التضرع والإخفاء، واجتناب الاعتداء إلى ما يخص عموم تصرفات العباد، بأن تكون تصرفاتهم وفق محور الصلاح، فينهى الله تعالى عباده عن عموم مسلك الفساد ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ فقد أثبت كلام الله تعالى أن الأصل في الأرض الصلاح بكل مكوناتها ﴿بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ فإن الأصل فيها الصلاح، والفساد طارئ عليها، فنهى عن تحويل وتغيير هذا الصلاح أو شيء منه عن أصله الصالح إلى محور الفساد، وقد ورد الفساد على وجه العموم ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟﴾ ليشمل جميعه، فاستوعب النهي جميع أنواعه وأصنافه وأشكاله، وصغيره وكثيره، فأعطى مساحة في تأويل المقصود بالفساد عند أهل التفسير، ليحتوي جميع أقوالهم المتعددة، فقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى ستة أقوال في ذلك: أي لا تفسدوا بالكفر بعد إصلاحها بالإيمان، والثاني: لا تفسدوا بالظلم بعد إصلاحها بالعدل، والثالث: لا تفسدوا بالمعصية بعد إصلاحها بالطاعة، والرابع: لا تعصوا، فَيُمْسِكَ اللهُ المطرَ، ويهلك الحرث بمعاصيكم، بعد أن أصلحاها بالمطر والخصب، والخامس: لا تفسدوا بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه، والسادس: لا تفسدوا بتكذيب الرسل بعد إصلاحها بالوحي[2] وهذه الرحابة لمعنى الفساد، استوعبت جميع أنواع الفساد ودرجاته ومجالاته، لتستوفيه كاملاً مستوفياً، فالفساد يجمع جميع ما يُضاد الصلاح والإصلاح، وهذا من غزارة البيان وبلاغته في القرآن الكريم، فلا يمكن لمستدرك أن يستدرك شيئاً من الفساد لم يشمله النهي، لا في نوعه ولا في قليله ولا كثيره ولا مجاله،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٦/٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٦/٣)

ولا حالاته، ولا هيئته، كما أفاد النهي عن الفساد وجوب العمل على إبقاء الصلاح، وبما يحفظه وينميه بجميع أوجه الصلاح، مع وجوب إصلاح الفاسد، وتحريم الفساد في الأرض.

ومن جميل البيان ودقته أن جاء النهي عن إيقاع الفساد في محتوى دلالة الأرض ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ودلالة الأرض تشمل وتستوعب عين الأرض وما في باطنها وما على ظهرها، فاستقصى بذلك كل شيء، لأن جملة ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ تشمل ظهر الأرض وباطنها وما فوقها من نبات ودواب وإنسان، وما يجري فيها من مياه وغيره، وكذلك جمعت جميع أنواع السلوك: القولي والفعلي والقلبي الذي يحصل عليها ممن هو فوقها، وإن كان باعتبار الإنسان مخلوقاً من الأرض فقد استوفاه أيضاً من هذا الوجه، فإن ذلك من دقة البيان وغزارته وإعجازه في القرآن الكريم، فكلما تمعنت فيه أذهلك قوة دقة بيانه، فسبحان الله العظيم.

كما جاء النهي عن الفساد في الأرض بعد قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ فجاء التناسق بين عدم محبة الله تعالى للمعتدين وبين النهي عن الفساد في الأرض، والذي هو نوع من الاعتداء على الصالح بالإفساد.

ومن جميل البيان أن الله تعالى قطع سياق الدعاء بقوله تعالى ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ﴾ ليدل على أهمية ما قُطِعَ البيان من أجله، وهو أمر الإفساد، لأن الحديث لا يُقطع إلا من أجل أمر ذا أهمية بالغة، أو ليلفت الانتباه إليه بقوة، ثم يعود لأصل الحديث. فإنه الإعجاز البياني لكتاب الله تعالى العظيم.

ثم يعود البيان الكريم ليستوفي ما يجب استيفاؤه في الدعاء ﴿ وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا ﴾ أي: فادعوه وأنتم خائفون من عذابه، وطامعون في ثوابه. وخائفون من الموانع، وطامعون في الاستجابة، وفي هذا ما يحقق التوازن النفسي لدى من يدعوا الله تعالى، إذ هو أدعى لتحقيق التضرع والمسكنة لله تعالى، فالرجاء يحقق للداعي قدراً من الثقة التي تُكسبه الأمل في قبول دعائه، لتدفعه نحو العمل الصالح، ورجاء تحقق الخير، وأما الخوف فإنه يحقق للداعي الحذر من موانع استجابة الدعاء، فيمتنع عن التمادي في الباطل، ويخاف عواقب ما يكتسبه من الإثم، فيجعل العبد بين جناحي الخوف والطمع، فهما جناحي التوازن النفسي. وقد جاء التحفيز للرجاء في الحديث القدسي (يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك، ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي)[1]

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، برقم (٣٥٤٠)

ثم يخبر الله تعالى عن رحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهذا اطماع للعباد في التحلي بصفة الإحسان؛ الذي ربط الله تعالى قرب رحمته بالفاعلين للإحسان، وجاء الإحسان عاماً، ليستوعب ويتضمن جميع أنواع الإحسان، بالمال والجاه، ونفع البدن، والمواساة، والكلمة الطيبة، والعفو، وكظم الغيظ، ومفردات أخرى لا حصر لها من الدلالات الكريمة التي قد استوعبتها دلالة الإحسان أو المحسن. وفي هذا ترغيب وتنشيط للهمم نحو المبادرة للإحسان. فالرحمة من الله تعالى شاملة لجميع أوجه الخير والبركة والحفظ والعناية والستر والإنعام التي يسوقها الله تعالى بمنه وفضله للمحسنين. وفي هذا عظيم التحفيز للإحسان. فرحمة الله تعالى متضمنة لعطفه وعفوه وتجاوزه وكرمه وإحسانه القريب من المحسن الذي اتصف بصفة الإحسان.

ثم يخبر الله تعالى عن تدبيره في ملكوته عَزَّ وجل، فبعد أن ذكر جَلَّ جلاله خلق السماوات والارض، ثم تدرج إلى بعض تدبيره وصنعه، بأنه يُغشي الليل النهار، وأنه يدبر أمر الشمس والقمر، استأنف البيان عن أمر دلائل قدرته وحكمته وحكمه وسلطانه وتدبيره، بما يؤكد ربوبيته وألوهيته، فإنه عَزَّ وجل هو الذي يتحكم بالرياح ومسيرها. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ فهو الذي يرسل رياح الهبوب؛ طيبة النسيم، التي ينشأ بحركتها اجتماع السحاب وانتقاله ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ فهي منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، فتبشر بالغيث، الذي يستبشر العباد به وبنسيمه الطيب، وقد سمى الله تعالى المطر بالرحمة ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ قال ابن جرير رحمه الله تعالى: والرحمة التي ذكرها جَلَّ ثناؤه في هذا الموضع: المطر[١] فإن هذا التدبير أدعى لشكره وتوحيده وعبادته، فليس هناك قادر غيره على تدبير هذا الأمر بهذه الكيفية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ حتى إذا ﴿أَقَلَّتْ﴾ أي: حملت الرياح سحاباً قد ثَقُل بالماء لكثرته، ساق الله تعالى هذا السحاب بالرياح إلى البلد الذي أقفر ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وهو الذي قل الماء فيه وشح، حتى مات نباته، قال القرطبي رحمه الله تعالى: والبلد كل موضع من الأرض، عامر أو غير عامر، خال أو مسكون[٢] ومن فيض كرمه وعظيم قدرته سبحانه وتعالى أن جعله سحاباً وليس سحابة واحدة ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾ وقد نسب الله جل ثناؤه سَوق السحاب إليه ﴿سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وذلك بياناً لأمره، وتعظيماً لتدبيره، بأنه هو المتصرف، فيأمر الرياح

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٥٤/١٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٦/٧)

بأن تستجمعه؛ ثم تذهب به إلى البلد الميت، فيُنَزِّلُ اللهُ تبارك وتعالى الغيث عليها ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ ﴾ فأنزل به المطر، وسماه الله تعالى ماء ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ ﴾ ليفيد لفت الانتباه للنتيجة والقدرة العظيمة والمحصلة الجليلة التي ينبت بها الزرع، وهي الماء، بأنه سيتحول ويتكون منه الماء الذي تحيا به الأرض بعد موتها ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ فيخرج الله تعالى بهذا الماء الثمار بجميع أنواعه وأشكاله وأحجامه.

ومن غزارة الدلالة البيانية أن ذكر الله تعالى النتيجة والمحصلة للزرع وهي الثمار ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ فاستغنى في هذا الموضع عما هو قبل الثمر، وهو الإنبات وظهور الزروع، وذلك لبيان المقصد والمحصلة التي يرجوها الْمُغَاث والمحتاج والفقير وهو الثمر، بعد أن أجدبت أرضه من كل ذلك؛ فتجاوزه البيان إلى إيراد المحصلة التي هي ما ينتظرها الإنسان والحيوان التي أجدبت الأرض عليهم، فإن نَظَرَ أهل البلد الميت متوجهة لما يُسقيهم ويطعمهم، فناسب ذكر الثمر مقام الاحتياج والعوز؛ الذي يمثل الهدف والغاية، وكذلك ما ذكره سبحانه وتعالى في شأن الماء ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ ﴾ فإن الهدف من المطر هو تحصيل الماء، للحاجة والافتقار إليه، فورد ذكر المحصلة عن هيئة المطر، ليتناسب ذكر الماء مع مقام الحاجة القائمة. ثم من عظيم بيان جُودِهِ عَزَّ وجل وسعة رزقه وكرمه أن أخرج بهذا الماء جميع أنواع الثمار ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ فليس من نوع واحد فقط، أو بعضه، بل شمل كل أنواع الثمار في البلد الذي نزل فيه. وكل بلد له ثماره المناسبة له، فتخرج جميعها بإذن الله تعالى من ذلك المطر.

ثم تدرج البيان إلى هدف عظيم ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ فالذي أخرج الزرع من البلد الذي أقفر، حتى أنه لا نبات ولا ماء ولا حياة فيه؛ ثم يصبح حياً؛ كأنه لم يمت من قبل، كذلك يكون خروج الموتى وبعثهم من القبور، فالذي دبر إحياء هذا البلد على سعته، وكثرة تنوع ثماره؛ هو الذي يدبر إحياء الأموات من البشر، فليست ثمة مانع من ذلك، فالذي لم يمتنع عليه إحياء الأرض الميتة بما ساقها من السحاب المحمَّل بالماء، ثم أنزله، حتى ارتوت الأرض، ثم عادت إليها الحياة وكأنها لم تَمُت من قبل، فإنه كذلك لا يمتنع عليه إحياء الإنسان بعد موته، وبعثه من قبره كما تخرج الزروع من باطن الأرض، فما هو سر الغرابة، وعدم التصديق والحال ما ترونه من قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة. فلماذا لا تصدقون؟ فإنه بمثل ذلك يُخرج الموتى من قبورهم، كما يخرج الزرع من الأرض، فأين الصعوبة على لله القادر المقتدر؟ وفي هذا تقريب الصورة التعليمية بأدق البيان الواضح المشاهد، فالذي أخرج من الأرض الميتة زرعاً متنوعا في أشكاله وأحجامه وأنواع ثمره، كذلك يُخْرِج الموتى من قبورهم على هيئة ما خلقهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فلعلكم بهذا البيان

الاستدلالي تستدلون وتُوقنون بالبعث بعد الموت. فإنها حجة ظاهرة قائمة ما بقيت الدنيا. فسبحان الله المحيي والمميت، الذي يبعث عباده من القبور على ما كانت عليه هيئتهم وصورتهم. فله الحكم وله القدرة المطلقة.

ومن سياق المطر والإحياء والانتفاع به؛ يوضح الله تعالى لعباده مسلك الذين ينتفعون بآياته والذين لا ينتفعون بها ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ فالبلد الطيب الذي تمثله أرضه بقبولها الماء والارتواء؛ فإنه يخرج نباته سهلاً ميسوراً بإذن الله تعالى، فذلك مثل المؤمن الذي يقبل ما جاء عن الله تعالى، فينتفع به، فيخرج نفعه عليه سهلا يسيراً بتوفيق الله تعالى، وأما البلد الذي تمثله الأرض الخبيثة فهو ضد ذلك ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ فالبلد الذي خبثت أرضه، وانعدم صلاحها للإنبات، لشدة الملوحة، أو لأنها لا تُمسك الماء؛ ولا تنتفع به، فإن نباتها يخرج عسيراً ممتنعاً من التجاوب وإعطاء الخير، وهذا يمثله الكافر الذي لا ينتفع بما جاء من عند الله تعالى، فيمتنع عن قبول الخير كما امتنعت الأرض الخبيثة عن الإنبات، قال ابن الجوزي: قال المفسرون رحمهم الله جميعاً: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله، انتفع به، وبان أثره عليه، فشبهه بالبلد الطيب الذي يمرع ويخصب ويحسن أثر المطر عليه، وعكسه الكافر[1] ثم يقول تعالى ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ كذلك نوضح الأدلة والبراهين المتعددة لقوم يشكرون الله تعالى على هذه البينات، التي بَصَّرَهُمُ اللهُ تعالى بالحق من خلالها، ليتبعوه، كما بَصَّرَهُم بالشر ليجتنبوه.

مما يفيد ويوضح أهمية أسلوب ضرب المثل في التعليم والمحاجة والإقناع، وأن القرآن الكريم يقرب المعاني والصور والدلالات بأساليب غاية في الدقة والإقناع، ومنها ضرب المثل. من أجل تعليم الناس ما يجب عليهم. فالحمد والشكر لله العزيز الحكيم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ

[1] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٩/٣)

تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

بعد بيان الله تعالى في مطلع السورة أنه أنزل القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمر باتباعه، وذكر خلق آدم، وما يتعلق به، وذكر أمر أهل الأعراف وأهل الجنة والنار وتَخَاطُبُهم، ثم بين أنه الخالق سبحانه وتعالى، فقد خلق السماوات والأرض، وأنزال الغيث، الذي يحي به الأرض بعد موتها، وبمثله يكون البعث والنشور، ثم يتدرج البيان الرباني إلى موضوع القصص الذي فيه المواعظ والعبر، لِمَا فيه من الأحداث، وضرب الأمثال، وما يحتويه من الترغيب والترهيب والتعليم.

فبدأ تبارك وتعالى بقصة نوح عليه السلام، الذي هو أول رسول بعثه الله تعالى لأهل الأرض ﴿ **لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ** ﴾ فبدأ البيان بقوله تعالى ﴿ **لَقَدۡ** ﴾ المتضمن للام القسم، الملتصق بحرف **(قد)** والذي يفيد التأكيد والتحقيق، والقسم من الله تعالى للمخاطبين بهذا الشأن، ليدل على تعظيم الأمر، بما يدفع المخاطب للانتباه وأخذ الأمر بجد واتعاظ، فقد أرسل تبارك وتعالى نوحاً إلى قومه ﴿ **لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ** ﴾ فأفادت نون المتكلم في قوله تعالى ﴿ **أَرۡسَلۡنَا** ﴾ التعظيم والجلال والإجلال، بأن أرسل تبارك وتعالى نوحاً إلى قومه؛ رسولاً لهم من لدنه جَلَّ جلاله، فباشر نوح عليه السلام مهمته مباشرة ﴿ **فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ** ﴾ فبدأ عليه الصلاة والسلام قومه بياء النداء ﴿ **يَٰقَوۡمِ** ﴾ ليفيد أهمية ما ناداهم إليه، ليقول لهم توجهوا إلى لله تعالى بالتوحيد والعبادة، واصرفوها له وحده عَزَّ وجل ﴿ **ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ** ﴾ فليس لكم من إله تتوجهون إليه غيره سبحانه وتعالى، بما يعني ويفيد أنه يجب عليكم ترك كل معبود غيره.

ثم بين نوح عليه الصلاة والسلام لقومه طمعه في تصديقهم له واتباعه، وذلك من خلال بيان شفقته عليهم ﴿ **إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ** ﴾ فجملة ﴿ **إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ** ﴾ تفيد تعليل قوله لهم ﴿ **ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ** ﴾ وتفيد شفقته ورحمته، ومحبته لهم، وخوفه عليهم من عذاب الله عَزَّ زجل ﴿ **إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ** ﴾ إن خوفي عليكم إن لم تعبدوا ربكم وحده لا شريك له أن يحل عليكم عذاب يوم قد اتصف بالعظمة المهلكة، لما فيه من الهلاك والعذاب المقيم. مما يفيد ويؤكد أهمية

اللطف في الوعظ، وإشعار الموعوظ والمدعو بالهدف والمراد من ذلك، مع بيان شفقة الداعية والناصح على المنصوح، فإنها أبلغ في التأثير من البلاغ المجرد، الخالي من إثارة عاطفة الشفقة ومحبة الخير.

ثم يخبر الله تعالى بما رَدَّ به المشركون من قومه عليه ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ والملأ: هم الجماعة من الرجال، لا امرأة فيهم[١] وهم الأشراف والسادة، والرجال ليس معهم النساء[٢] فقال هؤلاء المشركون لرسولهم نوح عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فتقييمنا لما جئت به من توحيد الله تعالى: أنه هو الضلال الواضح البائن الذي لا لبس ولا شك فيه، فما أنت فيه يا نوح هو الانحراف والعدول منك عن طريق الحق والصواب إلى طريق الضلال. فالذي نرى فيما أنت فيه هو الضلال، مؤكدين صدق قولهم وحكمهم بأنه مبين ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مما يفيد ويبين أن الجاحد يصور الحق بالصورة التي تساعده على إثبات صحة جحوده بكل ما أوتي من قوة، مما يتطلب الصبر على ذلك، كما أن جملة ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ إيهام لأنفسهم بمعرفتهم لحقيقة ما جاء به، بأنها معرفة يتحقق بها سلامة وصدق ما نحكم به عليك، لأن جملة ﴿لَنَرَىٰكَ﴾ تفيد أنهم على علم بحقيقة ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام، بأنه ضلال بَيّنٌ واضح، لتشكيك من يخاطبهم فيما جاءهم به، وإيهام أتباعهم بمعرفتهم للحقائق؛ حتى يصدوهم عن دين الله تعالى. مما يفيد أن الجاحد يسعى للتشكيك والتضليل، وإيهام نفسه وغيره بما يجعلهم يصدقون أقوالهم ويكذبون بالحق ويجحدونه.

ثم أخبر تعالى برد نوح عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ فبدأ نوح عليه الصلاة والسلام جوابه لهم بلطف ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ فخاطبهم بما يفيد انتسابه إليهم، ثم نفى عن نفسه الضلالة ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ فبعد التَّلطف في ابتداء الخطاب، نفى عن نفسه الضلالة، ليرد زعمهم، ويؤكد لهم أن معرفتهم التي يزعمونها باطلة، وغير صحيحة، فإنني بعيد عن الضلال ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ فلست فيه من شيء، وإنما أنا رسول الله إليكم ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فبدأ البيان بحرف لكن ﴿وَلَٰكِنِّى﴾ وهو حرف عطف يفيد الاستدراك، فيثبت لما بعده حكماً مخالفاً لحكم ما قبله، فالذي قبله نفي للضلالة، وما بعده إثبات للحقيقة أنِّي ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فأنا رسول من عند الله تعالى، رَبَّ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦١/١٠)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١١١/٢)

كل شيء ومالكه، فليس هناك رب غيره، وأن مُهِمَّتِي هي: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ﴾ بما يفيد أنني أحمل رسالة من ربي، ومهمتي أن أبلغكم مضمون هذه الرسالة، وأنّي لست عليكم بحفيظ، ولست عليكم بوكيل، ولا متعالي عليكم، وأيضاً مهمتي النصح لكم بإخلاص ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ فأخلص لكم فيما جئتكم به، فيما فيه صلاحكم أنتم، وبالتالي ينتفي به كل مصلحة خاصة، أرجو بها الاستعلاء أو تحقيق مصالح ذاتية من وراء أخبركم به، وبهذا يستخرج من أذهانهم كل وهم يتوهمون تجاه شخصه عليه الصلاة والسلام، كما جاء في سورة هود ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ مما يفيد أن على الداعية إلى الله تعالى والناصح إلى الخير والحق أن يبين ما يَعْرِفُ به المنصوح أنه لا مصلحة له في نصحه، إلا ثواب الله تعالى، وذلك بدفع الوهم والشك، وقطع علائقه. لأن النصح هو تحري الفعل أو القول الذي فيه صلاح المنصوح، وتلك المتطلبات هي من لوازمه.

ثم أوضح لهم نوح ما يخصه من العلم الذي لا يعلمونه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فبين لهم ما يثبت نبوته ورسالته؛ بأن لديه من العلم المخصوص الذي خصه الله تعالى به ما لا يعلمون، قال مقاتل: أعلم من نزول العذاب ما لا تعلمونه، وذلك أن قوم نوح لم يسمعوا بقوم عُذِّبُوا قبلهم(١) ثم يخاطبهم بما يزيل ما يمكن أن يلتبس عليهم ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ فيستنكر منهم ما ردوا به عليه، قائلاً: أتستبعدون وتستنكرون أن تأتيكم موعظة من ربكم على لسان رجل منكم تعرفونه، ولم يكن على لسان من لا تعرفون ﴿لِيُنذِرَكُمْ ﴾ ليحذركم من العقاب والعذاب ﴿وَلِتَتَّقُوا۟ ﴾ ولتتقوا نقمة الله تعالى، بأن تعدلوا عن الشرك إلى التوحيد، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب، أن يوحي اللهُ إلى رجل منكم رحمة بكم، ولطفاً وإحساناً إليكم، لينذركم، ولتتقوا نقمة الله، ولا تشكوا به(٢) ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فرجاء أن تحصل لكم الرحمة من الله تعالى بسبب إنذاري ونصحي لكم، فتطيعون الله تعالى فيرحمكم برحمته.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٠/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٣٣/٢)

فكان الرد منهم هو التكذيب ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فلم يستجيبوا له، وأصروا على كفرهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ فأنجاه الله تعالى ومن آمن معه من العذاب الذي أصاب الكافرين منهم، وذلك بما أوحى إليه الله تعالى من صنع السفينة ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ وتم إغراق الذين كذبوا بالحجج والبراهين التي أتاهم بها عليه الصلاة والسلام من الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ أي غير مستبصرين للحق، مجانبين له، فانتقم الله تعالى منهم بالغرق، وأنجى رسوله نوح عليه الصلاة والسلام والمؤمنين.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

يخبر الله تعالى أنه أرسل إلى عاد أخاهم هوداً رسولاً ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ووصفه تبارك وتعالى بأنه ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: واحد منهم، قال الزجاج رحمه الله تعالى: وإنما قيل: أخوهم، لأنه بشر مثلهم؛ من ولَدِ أبيهم آدم، ويجوز أن يكون أخاهم، لأنه من قومهم، وقال أبو سليمان الدمشقي رحمه الله تعالى: وعاد قبيلة

من ولد سام بن نوح[١] وهذا يدل على لطف الله تعالى وحكمته، بأن بعث فيهم نبياً من أنفسهم، فيعرفونه، ويعرفون سيرته، بما ينتفي معه تكذيبه والشك فيه. ﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَـٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فقال لهم بمثل ما قال نوح من قبله لقومه ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَـٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ فالدعوة واحدة، والدين واحد، وهو توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وترك الشرك وقطعه. وبدأهم بمثل ما بدأ نوح لقومه، بمخاطبتهم بأحسن الخطاب ﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ﴾ لما في ذلك من تقرير الانتماء، وما يتبعه من الموالاة التي تستلزم الرغبة في تحقيق الخير لهم، وهذا هو مسلك الأنبياء مع أقوامهم. ثم وجه لهم سؤالاً استنكارياً، يستحثهم به إلى التعقل والتجاوب ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تتقون ربكم فتحذرون عقابه، وتنتهون عن الشرك ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ فرد عليه أشراف قومه وكبراؤهم من الذين كفروا ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ أي: في ضلالة عن الحق والصواب، ورموه بالسفاهة. التي هي: خفة الحلم، وسخافة العقل[٢] ليقلبوا الحق باطلا، والباطل حقاً، من أن ما هم عليه من شرك هو الحق، فنعتوا ووصفوا ما جاء به من عند الله تعالى أنه سخافة، لا يقبله عاقل، فكان جوابهم بمثل جواب قوم نوح مع نوح عليهما السلام. فالكفر واحد، والمنطق واحد، وقالوا أيضاً ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي: نعتقد أنك من فئة الكاذبين، فتدعي زوراً وبهتاناً أنك رسول من الله تعالى. فوصفوه بصفة السفه والكذب، فخالفوا ما كانوا يعرفونه عنه. مما يفيد أن المعاند يغير صورة من يضاده، مهما كانت سيرته حسنة وصادقة، فإنه يبدأ في تغيير الحقيقة، حتى تتوافق مع مزاعمه وتكذيبه، فيخادع نفسه، ويخدع غيره بقوله، مما يفيد أهمية الحذر من كلام المغرض.

فيرد عليهم نبي الله هود عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ فلم يبادلهم بمثل ما افتروا عليه من منكرات الوصف والذم؛ وإنما رد عليهم بلطف القول، الذي لم يتجاوز نفي ما وصفوه به فقط، من الظلم والاعتداء في الوصف، فليس بي شيئاً من السفه الذي وصمتموني به، فلست في ضلالة ولا خفة عقل، بل إن الأمر حقيقة حق واضح مبين، مما يدل على كريم خُلُقِه عليه السلام، وأدبه في التعامل معهم، ليعطي المنهجية الْخُلُقية في أدب الحوار مع من ساءت أخلاقهم، وسقطت آدابهم، فقال لهم ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥١/٣)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١١٤/٢)

﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ بل إنني رسول لكم من الله تعالى ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ رسول من ربي وربكم ورب كل شيء ومالكه، فإن دلالة جملة ﴿رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ تفيد أنه المالك والخالق والمتصرف، الذي يجب أن يُعبد وحده لا شريك له. ثم أوضح لهم مهمته ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى﴾ فإن مهمتي هي إبلاغكم بهذه الرسالة التي أحملها لكم من ربي تبارك وتعالى، وبالتالي فأنا مُرْسَل، فليس لي سلطان عليكم. وأيضاً ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ والنصح هو تحري الفعل أو القول الذي فيه صلاح المنصوح. فأخلص لكم فيما جئتكم به، فيما فيه صلاحكم أنتم، وبالتالي ينتفي به كل مصلحة خاصة أرجو بها الاستعلاء، أو تحقيق مكاسب ومصالح تخصني من وراء ما أخبركم به، وبهذا يستخرج من أذهانهم كل وهم يتوهمون تجاه شخصه عليه السلام، كما جاء في سورة هود ﴿يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ كما أكد سلامة نصحه وإخلاصه بالأمانة، مما يفيد أن على الداعي إلى الله تعالى وإلى الخير والحق أن يبين ما يَعْرِفَ به المنصوح أنه لا مصلحة له في نصحه، إلا ثواب من الله تعالى، وذلك بدفع الوهم والشك، وقطع علائقه.

كما أكد صدق نصحه بأمانته ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أمين في نصحي، وأمين على الرسالة، وفيما أنصح فيه، فلا أكذب ولا أزيد ولا أنقص، فلا أتجاوز ما أمرني به ربي. مما يفيد أيضاً أن رسولهم معروف لديهم بالأمانة، فتأكيده لهم بها دليل على أنه عليه الصلاة والسلام كان متخلقاً بها، فهي منقبة له فيما اعتادوا منه عليه الصلاة والسلام. وكذلك يُستفاد من قول هود عليه السلام ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ بيان حقيقة المقصد، وبيان حقيقة الإنسان لنفسه، ودفع وصف المفتري عليه منهم، حتى وإن كان البيان فيه ثناء على النفس، إلا أنه ليس في موقع التباهي والتعالي، بل في موقع بيان الحق ودفع الافتراء والظلم وتحقيق المصلحة، كأن يقول الإنسان أنا ماهر في هذا الأمر أو الصنعة، أو متقن لهذا الشيء، فهو لبيان الحقيقة.

وقد قال لهم هود بمثل ما قال نوح عليهما الصلاة والسلام ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ فيستنكر منهم ما ردوا به عليه، قائلاً: أتستبعدون وتستنكرون أن تأتيكم موعظة من ربكم على لسان رجل منكم تعرفونه، ولم يكن على لسان من لا تعرفون ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ ليحذركم من العقاب والعذاب.

ثم يذكرهم بنعم الله تعالى عليهم، مبتدئاً ذلك التذكير بقوم نوح، من بعد أن أهلك الله تعالى الكافرين ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ فاذكروا نعمة الله تعالى عليكم، بأن جعلكم خلفاً لقوم نوح، بعد هلاك الكافرين، ففي هذا تذكير بأمرين: تذكير بنعمة الاستخلاف، وتذكير وعظ بما حصل لقوم نوح من العذاب، وهي موعظة جليلة بحدث حادث عظيم لمن كذب بما جاء به رُسُلُ الله تعالى، ثم ذكرهم بنعمة الله تعالى في أجسامهم ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان أطولهم مائة ذراع، وأقصرهم ستين ذراعاً[١] فزادهم الله تعالى في أجسامهم طولاً وعظماً على أجسام قوم نوح[٢] ثم كرر تذكيرهم بعموم نعم الله تعالى عليهم، بعد أن ذكرهم بالخصوص، لزيادة التذكير والتأكيد ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾ أي: جميع نعم الله ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي: لعلكم إذا تذكرتم نعم الله تعالى عليكم تطيعونه وتستجيبون لما جئتكم به عن الله تعالى، فتفوزوا بنعيم الله تعالى في الآخرة، وتتجنبون عذابه وانتقامه.

وفي قول هود عليه السلام لقومه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ما يفيد الإشفاق والطمع، فهو إشفاق واطماع منه أن يكونوا مؤمنين، فيسلمون من العذاب، وأيضاً كونوا راجين بطاعتكم حصول الفلاح. ومن مزيد الفوائد أن في تَذَكّر العبد لنعم الله تعالى ما يقود إلى الشكر والطاعة، ليتحقق بذلك الفوز والفلاح والنجاح. فالطمع في الفلاح يأتي بتذكر النِّعم وفعل ما يلزم تجاهها من الشكر والثناء على الله تعالى، مع فعل المزيد من الطاعة والامتثال.

فردوا على جميل وطيب كلام هود بالعناد والتكبر ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فبدأوا جوابهم باستنكار دعوة نبيهم لهم من توحيد الله تعالى، وترك كل معبود غير الله تعالى، مما يشركونه في عبادتهم لله عَزَّ وجل، معللين تمردهم وطغيانهم وعنادهم وموقفهم الاستنكاري لدعوة نبيهم بعلة التقليد المتوارث من شرك آبائهم ﴿ لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ ولسان حالهم يقول: كيف نوحد الله تعالى إزاء هذا الموروث؟ فكيف نترك ذلك الإرث من الأصنام ونوحد الله تعالى؟ فاستصعبوا الأخذ بالحق لقاء موروثهم الباطل. مما يدل على خطورة التقليد الباطل، وأهمية دفعه بالحق، فاختاروا ما يحذرهم منه نبي الله تعالى ورسوله هود عليه

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥١/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦٦/١٠)

السلام، قائلين في تكذيبهم وتحديهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فإن كنت صادقاً في نبوتك ورسالتك فأتنا بالعذاب، مما يدل على عظيم عنادهم وتكذيبهم وطغيانهم وتمردهم، مع شدة التشبث بالموروث الباطل.

فقال لهم هود عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس، قيل هو مقلوب من رجز، وعن ابن عباس، معناه: عذاب وسخط[1] فرد عليهم نبي الله هود عليه السلام، بسؤال استنكاري ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ يقرر بهذا السؤال الاستنكاري حقيقة ما تعللوا به من ميراث الشرك عن الآباء ممن سبقهم، أتحاجونني في مسميات أنتم وضعتموها، باختراعكم، من غير دليل ولا حجة عندكم عليها من الله تعالى ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ ليس هناك حجة وبرهان من الله تعالى تحتجون بها على ما تَدَّعُون، مما يفيد أنها مخترعة منكم، بل أنتم الذين وضعتم لها الأسماء. فكيف تعبدون ما صنعتم وسميتم؟ وفي هذا حجة قوية وصارمة عليهم لو كانوا يطلبون الحق، ثم أحالهم بما يفيد التهديد إلى انتظار العقوبة ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أي: فانتظروا ما طلبتموه من العذاب لقاء عنادكم، وصدودكم عن الحق ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ فأنا منتظر معكم فيما سيحل بكم من عذاب الله تعالى الذي طلبتموه.

فأنجى الله تبارك وتعالى نبيه هود، ومن معه من المؤمنين ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ فقد نجاهم الله تعالى برحمته، وإن من عناية ربنا جَلَّ جلاله وتكريمه لنبيه وللمؤمنين أن أظهر نجاتهم بالرحمة الخاصة بهم منه عَزَّ وجل ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وأما أهل الكفر فكان العذاب قاطعاً وباتراً لشأفتهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: استأصل هؤلاء الذين جمعوا بين التكذيب بحجج الله تعالى وبين انتفاء الإيمان عنهم. بل كان الاستئصال شاملاً لهم، حتى أنه لن يبق منهم أحد، فدابر الشيء نهايته ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مما يبين قدرة الله تعالى، وقوة عقابه، وشدة عذابه سبحانه وتعالى. وفي ذكره عَزَّ وجل لهذا القصص، ما يبين للناس حال من يكفر به، ويتمادى في حق أنبيائه، فالقصص عبرة وموعظة.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥١/٣)

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

يخبر الله تعالى أنه أرسل إلى ثمود أخاهم صالحاً ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ووصفه تبارك وتعالى بأنه ﴿أَخَاهُمْ﴾ كما وصف رسوله نوح ثم هود من قبل، عليهما الصلاة والسلام، بأنه أخ لقومه ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي أنه: واحد منهم، فهو أخوهم، باعتبار أنه بشر مثلهم؛ من ولد أبيهم آدم، ويجوز أن يكون أخاهم، لأنه من قومهم، وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى أن علماء التفسير والنسب قالوا: أن ثمود بن عائر بن إرم، بن سام، بن نوح، هو أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طسم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة، قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام؛ إلى وادي القُرى وما حوله(١) وهي الحِجْر.

ومن لطف الله تعالى وحكمته، أن بعث فيهم نبياً من أنفسهم، فيعرفونه، ويعرفون سيرته، بما ينتفي معه تكذيبه والشك فيه. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ فقال لهم بمثل ما قال نوح وهود لأقوامهم ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فالدعوة واحدة، والدين واحد، وهو توحيد الله

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٣٧)

تعالى، وإفراده بالعبادة، وترك الشرك وقطعه. وبدأهم بمثل ما بدأ به نوح وهود لقومهم، بمخاطبتهم بأحسن الخطاب ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ لما في ذلك من تقرير الانتماء، وما يتبعه من الموالاة التي تستلزم رغبته في تحقيق الخير لهم، وهذا هو مسلك الأنبياء مع أقوامهم. فأكد لهم أنه ليس هناك إله غير الله تعالى ﴿ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ﴾ بما يفيد القطع بأنه ليس هناك معبود غير الله تعالى يستحق أن يُعبد، وهو كذلك قطعٌ بأن ما تتخذونه من أصنام ومعبودات من دون الله تعالى باطلة من أساسها.

ثم يشير إلى البينة والعلامة والحجة والآية التي من الله تعالى لهم، ليتأكد لهم بهذه الحجة أنه رسول الله تعالى، وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى، لتنتفي كل أسباب الامتناع ﴿ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ ﴾ وهذه البينة والحجة والآية ليست من عندي، بل هي من عند الله تعالى ﴿ بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ وكذلك نسب الناقة لله تعالى، تعظيماً لهذه الآية، وبياناً لقوة حجتها ودلالتها، وخروجها على غير ما جرت به العادة. وكذلك نص على أنكم المخصوصون بهذه الآية ﴿ لَكُمۡ ءَايَةٗ ﴾ وقد أخرج الله تعالى هذه الناقة من صخرة ملساء، فتمخضت بها، ثم انفلقت الصخرة؛ فخرجت الناقة. وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أن ثمود قالت لنبي الله صالح عليه السلام: ائتنا بآية إن كنت من الصادقين، فقال لهم صالح: اخرجوا إلى هضبة من الأرض، فخرجوا، فإذا هي تَمَخَّضُ كما تَتَمَخَّضُ الحامل، ثم إنها انفرجت، فخرجت من وسطها الناقة، فقال صالح عليه السلام ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ واستشهاد نبي الله صالح على صحة نبوته بالناقة لأنهم سألوه إياها[١] قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أخرج لهم الناقة حين سألوه، من حجر صلد، فكان لها يوم تشرب فيه ماء الوادي كله، وتسقيهم مثله لبناً، لم يشرب قط ألذ وأحلى منه، وكان على قدر حاجتهم على كثرتهم[٢] فخروج هذه الناقة من الهضبة أو من الصخرة، مع ما سبق من تَمَخّضها دليل وحجة على أنها آية، لأن الإنسان لا يستطيع على مثل ذلك، وأن هذا لا يمكن أن يحدث إلا بفعل قاهر لا يستطيع أن يأتي به أحد إلا خالق الكون عَزَّ في علاه، فكانت حجة بالغة الوضوح، وكذلك من حجيتها أنها تعطي لبناً لا يمكن لأعداد من البقر أن يعطوا مثله، لا من حيث الكمية ولا من حيث الطعم، وكذلك مقدار

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٣/١٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٢/٧)

شربها من الماء الذي يفوق أمثالها، بل يفوق عدداً لا حصر له من البقر. ثم أمرهم أن يتركوها تأكل في الأرض، وأن لا يمسوها بأي سوء ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ وكونها تأكل من أرض الله تعالى دليل على أنهم غير مكلفون برعاية طعامها وشرابها، فليس عليهم شيء من مؤنتها، وكذلك نسب الأرض لله تعالى ﴿أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ ليؤكد أن الملك لله تعالى، وأن الخلق لله تعالى. وفي قوله ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ ليشمل ممرها ومرقدها وما تأكله وتشربه، لأن كلمة الأرض تشمل سطحها وما عليها وما في جوفها وما يخرج منها، فليس لكم الحق في منعها.

وحذرهم من الإساءة إليها بأي نوع من السوء، لأن كلمة السوء من قوله تعالى ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ يشمل كل قبيح، وكل فساد، وكل أذى، وكل أمر يغمها، من ضرب أو طرد، أو منع من مطعوم ومشروب، فنهاهم عن أن يمسها شيء من ذلك، فالأرض أرض الله، والناقة ناقة الله تعالى، فواجبكم معاملتها بإكرام، فإنها آية الله تعالى. وفي هذا غاية الدقة والبيان والتحذير، مع قوة البينة والحجة. كما يفيد ذلك أن لله تعالى ما يشاء من الآيات البينات، فسبحان الله تعالى.

وحذرهم نبيهم صالح من أن يمسها السوء، فيأتيهم العذاب ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: سوف يستأصلكم عذاب شديد في ألمه البدني والنفسي، وفي هذا تحذير وابتلاء واختبار لصدق إيمانهم واستجابتهم، فهل يتركونها تأكل من أرض الله تعالى أو يؤذونها؟

ثم أكد لهم فضل الله تعالى عليهم، من خلال تذكيرهم ببعض ما أنعم الله تعالى عليهم ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فبدأ نبي الله صالح في تذكير قومه بلفت انتباههم لما يعرفونه من نعم الله تعالى، لأن في التذكير تنبيه، وإرجاع العقل والفهم للحقائق، كما أن التذكير يكون بما وقع، ولذلك ذكرهم بما يعرفون من نعم الله تعالى ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ أي: تأملوا وتفكروا ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي: تخلفون عاداً في الأرض بعد هلاكها، وهذا تذكير بامتنان الله تعالى عليهم بنعمة الوجود، وبقائهم بعد أن دمر الله تعالى قوم عاد. والنعمة الثانية: قوة التمكين في الارض ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ فذكرهم بنعمة

التمكين ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أنزلكم منازل في الأرض التي تسكنونها، ولم يقل سبحانه وتعالى: بوأكم الأرض، أي أنزلكم جميع الأرض، بل من دقة البيان أن دخل حرف (فِي) ليفيد: أنه سبحانه وتعالى قد أعطاهم منازل من الأرض، وهداهم بما مكنهم فيه، من اتخاذ نوعين من البيوت، الأول: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تتخذون بيوتاً عالية فيما سَهُلَ من الأرض المنبسطة، والنوع الثاني: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ فقد كانوا ينقبون الصخر منازل لهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: اتخذوا القصور في سهول الأرض للصيف، ونقبوا الجبال للشتاء[1] وهذا يدل على نعمة التمكين لهم بالفكر وبقوة الأجساد، لأن اتخاذ القصور المرتفعة، ونحت الجبال مساكناً لهم يحتاج قوة بدنية للنحت، وقوة فكرية للبناء والتخطيط حتى يحصلوا على مبتغاهم من الجبال الصلبة الوعرة.

ثم كرر سبحانه وتعالى عليهم التذكير بعموم نعم الله تعالى عليهم، بعد أن ذَكَّرَهُم بتفصيل الخصوص بما خصهم به سبحانه وتعالى، وذلك لزيادة التذكير والتأكيد ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: جميع نعم الله، ثم نهاهم عن الفساد بأسلوب يحمل التأكيد ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تقابلوا هذه النعم بالفساد، وجاء لفظ الفساد عاماً، ليشمل جميع أنواع الفساد، كما ربط ما يقع من الفساد بالأرض، ليشمل ويعم جميع ما يقع عليه الفساد، لأن دلالة الأرض تشمل وتستوعب عين الأرض وما في باطنها وما على ظهرها، فاستقصى بذلك جميع أنواع الفساد، وجميع ما يقع عليه الفساد، قَدْرَاً ونوعاً وعملاً وتطبيقاً، وعلى جميع الأحوال والأوجه والأنواع والقدر. وهذه من دقائق البيان اللفظي في القرآن الكريم، إذ استقصى الفساد استقصاء كاملاً. ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ومن دقائق البيان استخدام دلالة ﴿تَعْثَوْاْ﴾ في النهي عن الفساد، فإن العيث والعثى يعني: الإفساد، فورد النهي بكلمة ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ أي: لا تفسدوا في الأرض، وتأكيدها بقوله تعالى ﴿مُفْسِدِينَ﴾ فلا يكون حال السعي منكم في الأرض هو حال الإفساد، فإن السعي إما يكون إصلاحاً أو إفساداً.

كما ورد النهي لهم بعد تذكيرهم بما يجب عليهم، وأيضاً ورد تذكيرهم بعد أن أعطاهم الخير والتمكين، مما يدل على أهمية ذلك من حيث الترتيب ومن حيث التدرج، لأنه أبلغ أثراً، وأكرم توجيهاً وأدعى للقبول والاتعاظ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع حكيم بن حزام، حيث أعطاه من الغنائم، ثم استزاده فزاده،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٣/٣)

ثم نصحه بعد أن زاده، حتى لا يفهم من النصيحة أنها من أجل المنع، قال حكيم ابن حزام رضي الله عنه: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال لي:(يا حكيم إن هذا المال خَضِرٌ حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى) قال حكيم: فقلت يا رسول الله: والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا[١] مما يدل على توافق منهجه صلى الله عليه وسلم مع منهج الله تعالى.

ثم بين جَللَّ جلاله ما دار من حوار بين من كفر وبين من آمن ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ فالذين استكبروا من قوم صالح يخاطبون الضعفاء من المؤمنين، وقد سمى الله تعالى الكافرين بالذين استكبروا ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ ليبين أن كفرهم جهلاً، أو لعجز في الآيات، بل إن كفرهم كان جحوداً للحقيقة التي استيقنتها أنفسهم، لأن صفة الكبر تُطلق على من عرف الحق وتركه عمداً؛ استعلاء بنفسه على الحق، وفي هذا تقرير لكفرهم بأنه كفر عناد وجحود.

ثم إن الذين استكبروا من قوم صالح قالوا للضعفاء من المؤمنين ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴾ قال الطبري رحمه الله تعالى: يعني أهل المسكنة من تُبَّاع صالح، والمؤمنين به منهم، دون ذوي شرفهم؛ وأهل السُؤدد منهم[٢] وفي اختيار الضعفاء تخطيط ومكر من الذين كفروا من أجل استمالتهم بتشكيكهم في إيمانهم، حتى يعودوا بعد إيمانهم كفاراً، فيحققوا مرادهم بتقليل اتباع نبي الله صالح عليه السلام، لتحصل الهزيمة والنكسة للمؤمنين ولنبيهم، ففي نظرهم أن الضعفاء أرجى قبولاً وتأثراً، فبدؤهم بسؤال تشكيك ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فهو سؤال استفهام، يفيد الاستنكار والتشكيك، مع قياس مردودهم، ومعرفة مدى عمق إيمانهم وقناعتهم بما جاء به نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام. وهنا رد المؤمنون رداً قاطعاً؛ بما يفيد تمام الإيمان الذي لا يدخله شك ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ لا مجال للشك والا للتشكيك، ولا مجال للنقاش، فقطعوا عليهم سُبُل المناقشة. وهي المنهجية القاطعة تجاه من يريد أن يشكك المؤمن في دينه، وخاصة لمن ليس لديه سعة علم. فرد

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤٠٢/٢) برقم (٣١٤٣) وله شرح في بيان فوائده، كتاب: الفوائد السنية من السيرة النبوية، خالد بن حامد الحازمي ص (٥٣٣-٥٣٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٠/١٠)

المستكبرون على المؤمنين بجواب قاطع عن كفرهم ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ فعندما لم يجد الكافرون مجالاً للمساومة، أعلنوا كفرهم عناداً.

فبدأ الكافرون تمردهم وعنادهم بالنَّاقة ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ ﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله: قوله تعالى ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ ﴾ أي: قتلوها، قال ابن قتيبة: والعقر يكون بمعنى القتل[١] والعقر هو الجرح، وقيل قطع عضو يؤثر في النفس[٢] فيتلفها. وأسند العقر إلى الجميع، مع كون العاقر واحد منهم، لأنهم راضون بذلك، موافقون عليه[٣] ﴿ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: استكبروا واسْتَعْلَوا عل الحق، وتجبروا عن اتباع ما أمر الله تعالى به ونهى عنه، فهذا الفعل بالناقة أظهر استكبارهم وتجاوزهم وتماديهم وغلوهم في محادة الله تعالى ورسوله صالح عليه الصلاة والسلام، ومن إمعانهم في الكفر أن طلبوا العذاب ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ يعني: قتلنا النَّاقة فتعال بالعذاب الذي تقول به، مما يدل على أن الكفر يجر إلى التمادي ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ أي: فأخذتهم زلزلة الأرض، وهي حركة مع الصوت ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ فصار الذين استكبروا واستعلوا على الحق من قوم صالح في مكانهم منكبين على ركبهم، ووجوههم على الأرض؛ لاصقين عليها، كما يجثم الطائر، فسقطوا صرعى لا يتحركون. قال الطبري رحمه الله تعالى: وإنما عُني بالرجفة ههنا الصيحة التي زعزعتهم، وحَرَّكَتهم للهلاك، لأن ثمود أُهلكت بالصيحة فيما ذكر أهل العلم[٤] وقال المفسرون: معنى ﴿ جَٰثِمِينَ ﴾ بعضهم على بعض، أي: أنهم سقط بعضهم على بعض عند نزول العذاب[٥]

فأدبر عنهم نبي الله صالح بعد هلاكهم ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ فخرج معاتباً لهم على طغيانهم، وكرههم لمن كان ينصحهم،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٣/٣)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٣/٧)
(٣) الشوكاني، فتح القدير (٢٢٠/٢)
(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٢/١٠)
(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٤/٣)

مبيناً بلاغه وجهده معهم ﴿ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ ﴾ مما يفيد بَذْلُه الجهد في تحري سُبُل النصيحة والتحذير والإبلاغ، ولكن كان موقفهم منه؛ أنهم لا يحبون من كان ناصحاً لهم ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ فيخبر حكاية عن حال قد مضت.

وانصرف نبي الله صالح عنهم بعد عقر الناقة، لأن الله تعالى أوحى إليه أنِ اخرج من بين أظهرهم، فإني مهلكهم، وقال قتادة: ذُكِر لنا أن صالحاً أسمع قومه، كما أسمع نبيكم قومه، يعني بعد موتهم[1] فقد ورد في صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن أبي طلحة (أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فَقُذِفُوا في طَوِي من أطواء بدر، خبيث مخبث....فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا وجدنا ما وعد ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا. قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكَلِّم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع منهم، قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخاً وتصغيراً ونَقِيمة وحسرة وندما)[2]

﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

يخبر الله تعالى أنه أرسل نبيه لوطاً عليه الصلاة والسلام إلى قومه، ولوط هو ابن هارون بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام[3] ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي: واذكر نبأ نبي الله تعالى لوطاً عليه السلام في مخاطبته ودعوته

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٤/٣)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٨٦/٣) برقم (٣٩٧٦) وله شرح في بيان فوائده، كتاب: الفوائد السنية من السيرة النبوية، خالد بن حامد الحازمي ص (٢٣٤-٢٣٥)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤٠/٢)

لقومه، إذ بدأهم بسؤال استفهام ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كيف تخترعون فاحشة ما سبقكم إليها أحد من العالمين، مما يفيد الإنكار والتوبيخ مع تقرير أمور عديدة، أولها إتيان ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهي فاحشة اللواط، وفي تسميتها بالفاحشة ما يدل على عظيم جرمها، لأن الفاحشة تُطلق على ما اشتد وعظم قبحه من الأفعال والأقوال، والثاني: أنها مخترع ومبتكر منهم ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهي حادثة جديدة لم يعملها قوم من قبلكم، وفي قوله ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نفي تام بأنه لم يعمل هذه الفاحشة غيركم ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهذا نفي عام، ونفي قاطع بأنه لم يعملها أحد من المخلوقين، لأن كلمة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تشمل جميع العوالم، فلم تعملها حتى الحيوانات، والأمر الثالث: بيان نوعها ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ فتقضون إربكم وشهوتكم من الرجال؛ تاركين ما زَيَّنَهُ اللهُ تعالى للرجال من النساء، فعدلتم عَمَّا خَلَقَ اللهُ لكم من النساء إلى الرجال، ومن جميل أدب البيان أنه تم البيان عن حقيقة الفاحشة بتوجيه مملوء بالإفصاح الذي توشح بالأدب العميق، وحفاوة مكارم الأخلاق، بما يفيد أهمية الأدب في مثل هذه الأمور. ثم صدر الحكم عليهم بفعلهم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ فهذا الفعل هو إسراف، لأنكم تجاوزتم الحد من الحلال إلى المبالغة في إتيان الحرام بأبشع صوره، فقد تجاوزتم ما هو محله فطرياً من النساء، إلى ما يتنافى مع الفطرة ومكارم الأخلاق.

فكان رد قومه عليه بأقبح وأسوء الأفعال: إذ أمروا بطرده وإخراجه ومن معه من المؤمنين ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فلم يكن لهم جواب حصيف يستطيعون الرد به على نبيهم لوط عليه الصلاة والسلام إلا الطرد والإخراج، معللين ذلك ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: فلوط ومن آمن معه يتنزهون عن ما يفعلون من الفاحشة، مما يوجب إخراجهم من قريتهم، ووصفوهم بالتطهر، مما يفيد أنهم يعلمون أن فعلهم منافي للطهارة، وأن لوطاً ومن آمن معه يتنزهون عن هذه الفاحشة، وأنهم لا يريدون ممن يتنزه عن فعلهم القبيح أن يسكن معهم. وقد يكون من باب السخرية والاستهزاء، مما يفيد أن من يعمل القبائح لا يستأنس لمعايشة المتنزهين عن القبائح، فإنهم يعادونهم ويبغضونهم. وهذا ظاهر في كل وقت وفي كل مكان.

ثم أخبر الله تعالى أنه نجى لوطاً ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فقد نجى الله تعالى نبيه لوطاً وأهله من المؤمنين، واستثنى امرأته من الأهل الناجين، لعدم إيمانها، فكانت ضمن

الكافرين ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في عذاب الله تعالى، الغائبين عن النجاة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ولم يقل: من الغابرات، لأنه أُريد أنها ممن بقي مع الرجال، فلمَّا ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[١] من الذين غبروا في ديارهم، أي بقوا فَهَلَكُوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، وكانت كافرة، موالية لأهل سدوم[٢]

وأما الكفرة فقد أمطر الله تعالى عليهم العذاب الشديد. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عباس: أي الحجارة. قال مجاهد: نزل جبريل، فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط، ورفعها، ثم قلبها، فجعل أعلاها أسفلها، ثم أُتبِعُوا بالحجارة[٣]

ومن دقائق البيان أنه بعد أن ذكر سبحانه وتعالى الفعل الأصلي ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ ألحقه بالتأكيد ﴿مَّطَرًا﴾ وهو ما يتحقق به التأكيد والمبالغة من شدة ما أمطرهم به من الحجارة. ويفيد ويبين معنى فعل الإمطار ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ الإنزال من العلو للحجارة، لتكون أكثر اثراً عليهم، ولتفيد دلالة كثرة الحجارة، وتعاقبها في السقوط، وكأنه مطر في كثرته وقوته وعلوه، غير أنه من الحجارة.

ثم يأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبعٌ له عليه الصلاة والسلام بأن يتأملوا عاقبة هؤلاء المكذبين بالله ورسوله، المستحلين للفواحش. فقال تبارك وتعالى ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فتأمل نهاية المجرمين، وكيف حل بهم العذاب فأهلكهم. وقد أفادت دلالة ﴿فَٱنظُرْ﴾ التأمل بالعقل والقلب في عواقب الإجرام، وما ينتهي بأهله من العقوبة المدمرة المهلكة. مما يفيد تحذير الخلائق من العناد والكفر، وأن هذا الهلاك هو عاقبة كل من يكذب بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، ويتجرأ بفعل الفواحش والمعاصي، فإن الله تعالى لا يعجزه إهلاك فرد ولا مجموعة ولا جماعة ولا أمة من الناس.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٨/١٠)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١٢٤/٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٥/٣)

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ
جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ
أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ
بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ
وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٨٧) ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ
كُنَّا كَٰرِهِينَ (٨٨) قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن
نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا
بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ
(٩٠) فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ (٩١) ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ
رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ (٩٣)﴾

يخبر الله تعالى أنه أرسل إلى مدين أخاهم شعيباً ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ شعيب هو بن ميكيل بن يشجر، وتطلق مَدْيَن على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز، وهم أصحاب الأيكة(١) قال قتادة: مدين: ماء، كان عليه قوم شعيب، وقال: مدين هو ابن إبراهيم الخليل لصلبه(٢)

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٤١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٥٥)

ووصَفَهُ اللهُ تبارك وتعالى رسوله شعيب عليه الصلاة والسلام بأنه ﴿أَخَاهُمْ﴾ كما وصف رُسُلَهُ هود وصالح من قبل، بأنهم إخوة لأقوامهم، فهو أخوهم، باعتبار أنه بشر مثلهم؛ من ولد أبيهم آدم، ويجوز أن يكون أخاهم، لأنه من قومهم. وابتدأ شعيب حديثه لهم بصيغة الانتماء ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ﴾ لما فيها من التلطف، وما تحمله من معاني الخير ومحبته لهم، وكراهية الشر عليهم، والتواضع وعدم الاستعلاء، مما يفيد أن مسلك الأنبياء كان مسلكاً رفيع المستوى الأخلاقي والدعوي، فيقدم النموذج والقدوة للداعي والناصح والمعلم للخير.

ثم يوجههم إلى ما يجب عليهم تجاه ربهم وخالقهم عَزَّ وجل ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ فاستهل كلامه لهم بتوجيههم إلى عموم العبادة، بأن تصرف لله تعالى، معللاً ذلك بأمر التوحيد، وإفراد الله تعالى بالعبادة، ونفي كل معبود غير الله عَزَّ وجل ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ فليس لكم رب وإله تعبدونه وترجونه وتخافونه إلا الله تعالى، ثم أرشدهم لما يحمله من البينات في رسالته لهم ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: الرسالة البينة الواضحة بأنها من الله تعالى، ثم يأمرهم بوفاء الكيل ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ مما يفيد أنه شاع عندهم التطفيف في الموازين، وقد جمع لهم هذا النص الكريم جميع ما يُكال بالمكاييل، وجميع ما يُوزن بالموازين، ثم تدرج إلى ما هو أعم من ذلك ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: البخس هو النقص، ويكون بالتعييب للسلعة، أو التزهيد فيها، أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وظاهر قوله ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ أنهم كانوا يبخسون الناس في كل الأشياء[1] ثم تدرج معهم إلى ما هو أعم مما سبق ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ ومن بلاغة النهي أن الفساد يعم قليله وكثيره، ودقيقه وجليله، كما اشتمل النص الحكيم على التقرير بأن الأرض ومن عليها وما هو في باطنها قد تحقق فيه كمال الصلاح والإصلاح منه سبحانه وتعالى، فالنهي هو نهي تحذير عن تغيير هذا الصلاح بالفساد، فينهاهم عن عموم الفساد الذي يستوعب التطفيف في المكاييل والموازين، وبخس الناس أشياءهم؛ وغير ذلك من أنواع الفساد، ليستوعب مساحة الأنواع والأشكال، حيث استقصى النهي فعل الفساد بالقول والاعتقاد والعمل، وسواء كان المخصوص بالتطفيف في الموازين والمكاييل أو غيره من الشرك والمعاصي، فشمل الفساد جميع ما هو ضد الصلاح.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٢٤)

وسبق فيما تقدم من هذه السورة بيان ذلك، وهذه إعادة لما تقدم بيانه: فقد أصلح الله تعالى الأرض بكل مكوناتها، ونهى عن تحويل هذا الصلاح أو تحويل شيء منه عن أصله الصالح إلى محور الفساد، وقد ورد الفساد على وجه العموم؛ ليشمل جميعه، مما أدَّى إلى استيعاب جمع أنواعه وأصنافه وأشكاله، فأعطى مساحة في تأويل المقصود بالفساد عند أهل التفسير، ليحتوي تنوع أقوالهم جميعها، فقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى ستة أقوال في ذلك: أي لا تفسدوا بالكفر بعد إصلاحها بالإيمان، والثاني: لا تفسدوا بالظلم بعد إصلاحها بالعدل، والثالث: لا تفسدوا بالمعصية بعد إصلاحها بالطاعة، والرابع: لا تعصوا، فَيُمْسِكَ اللهُ المطرَ ويهلك الحرث بمعاصيكم، بعد أن أصلحاها بالمطر والخصب، والخامس: لا تفسدوا بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه، والسادس: لا تفسدوا بتكذيب الرسل بعد إصلاحها بالوحي[1] وهذه الرحابة لمعنى الفساد، استوعبت جميع أنواع الفساد ودرجاته ومجالاته، لتستوفيه كاملاً مستوفياً، فالفساد يجمع جميع ما يُضاد الصلاح والإصلاح، وهذا من غزارة البيان وبلاغته في القرآن الكريم، فلا يمكن لمستدرك أن يستدرك شيئاً من الفساد لم يحتويه النهي، لا في نوعه ولا في قليله ولا كثيره ولا مجاله، ولا حالاته، ولا هيئته، كما يفيد النهي عن الفساد ما يوجب العمل على إبقاء الصلاح، وبما يحفظه وينميه بجميع أوجه الصلاح، مع وجوب إصلاح الفاسد، وتحريم إيقاع الفساد في الأرض.

ومن جميل البيان ودقته أن جاء النهي عن إيقاع الفساد في محتوى دلالة الأرض ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ودلالة الأرض تشمل وتستوعب عين الأرض وما في باطنها وما على ظهرها، فاستقصى بذلك كل شيء، لأن جملة ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ تشمل ظهر الأرض وباطنها وما فوقها من نبات ودواب وإنسان، وما يجري فيها من مياه وغيره، وكذلك جمعت جميع أنواع السلوك: القولي والفعلي والقلبي الذي يحصل عليها ممن هو فوقها، وإن كان باعتبار الإنسان مخلوقاً من الأرض فقد استوفاه أيضاً من هذا الوجه، فإن ذلك من دقة البيان وإعجازه في القرآن الكريم، فكلما تمعنت فيه أذهلك قوة بيانه ودقة استقصائه، فسبحان الله العظيم.

ثم يبين ويوضح نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: أن التمسك العملي بتطبيق بيان الله تعالى هو الخير الذي ينجيكم من كل شر ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فهو خير لكم من مسلككم الذي أنتم عليه إن كنتم مصدقين بما جاءكم من الله تعالى، مما يبين أن الإيمان والتصديق بما جاءكم من الله تعالى هو الذي سينقلكم إلى الخيرية، لأن الإيمان والتصديق محور التطبيق والانقياد لله تعالى. مما يفيد أيضاً أن في عدم تصديقكم ما يجعلكم في أضداد الخيرية من سوء الحال وسوء العاقبة.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٦/٣)

ثم أتبع تلك الموعظة بنهيهم عن التَّعَرُّض لمن اتبعه من المؤمنين ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ فلا تقعدوا بكل طريق تتوعدون بالشر والعدوان لمن آمن، تبتغون صرفهم عن دين الله تعالى، من أجل تحقيق الاعوجاج لدينه عَزَّ وجل. وهذا النهي اشتمل على التحذير من مغبة ما نهاهم عنه، فإن لم تأتمروا بما جاءكم من الله تعالى فلا تسلكوا مسلك المانع المعطل المعتدي على غيره ممن أطاع وآمن.

ثم يعاودهم نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام بمزيد النصح والإرشاد، وذلك من خلال التذكير لهم ببعض نعم الله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ فاذكروا ما كان من قلة عددكم، ثم كَثَّر الله تعالى نسلكم، وهذه مِنَّةٌ عظيمة، إذ أن في القلة ضعف، وفي الكثرة قوة، مما يستوجب منهم شكر الله تعالى بطاعته واتباع رسوله شعيب عليه الصلاة والسلام، وفي هذا موعظة لغيرهم بأن يتذكر الإنسان ما كان عليه من قبل، وما هو فيه من بعد، لما في ذلك من دفع النفس لشكر الله تعالى.

ثم يلفت انتباههم إلى ما نزل بغيرهم ﴿ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فتأملوا وتبصروا فيما حصل للأمم من قبلكم من العذاب والاستئصال، إذ كان عاقبة فسادهم عليهم نقمة ووبالاً وهلاكاً، والأمر بالنظر يشمل التفكر بالبصيرة، والمشاهدة بالعين، والسمع بما سمعوا، وبما تناقل وانتقل لهم عن أحوال الأمم السابقة، ليحصل الاتعاظ الذي يدفع لطاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أهمية التأمل والتفكر، فإنها نعمة عظيمة من الله تعالى على الإنسان.

ويلفت نبي الله شعيب قومه إلى حال انقسامهم إلى طائفتين ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ فطائفة صدَّقت فآمنت بما جاء به عن الله تعالى، وطائفة كذبت به وكفرت، فلم تؤمن بما جاء عن الله تعالى، فأمامكم الصبر حتى يحكم الله تعالى في شأنهم معكم ﴿ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ فاشتمل الأمر بالصبر في هذا السياق على نوعين من التوجيه، فهو للكافرين من باب التحذير، ولقومه الذين اتبعوه من باب التحلي بالصبر على أذاهم، والصبر على الإيمان والعمل بشريعة الله تعالى، ولكنه جاء بأسلوب الدعوة إلى انتظار النتيجة، التي يؤكد لهم بها هلاكهم، ويؤكد لهم بمضمونها ثقته وصدقه في النتيجة، بأن تكون هلاكاً لهم، ونجاة للمؤمنين، كما أنه يقرر لهم بهذا الإيضاح أنه لا يستطيع أن يقضي بشيء عليهم من نفسه، فإن الحكم سيأتي من الله تعالى المتصف بالعدل ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ فحكمه سبحانه وتعالى تمام وكمال العدل، فهو لا يجور عَزَّ وجل، بل هو

خير من يحكم، فليس هناك خير منه في الحكم والعدل عَزَّ جاهه. فرد عليه الكفرة من قومه ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ فأخذوا بأسلوب التمادي والطغيان، إذ لم يكتفوا بعدم الإيمان، بل تمادوا إلى تهديد نبي الله تعالى شعيب عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين بالطرد والإبعاد من قريتهم، أو أن يعودوا معهم على الكفر. ولم يكن شعيب على ملتهم من قبل، فجمعوه مع من كان في ملتهم، فرد عليهم عليه الصلاة والسلام بسؤال استنكاري ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ﴾ قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: الهمزة لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود، والواو للحال، أي: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا للعود إليها، أو تخرجوننا من قريتكم في حال كراهتنا للخروج منها، أو في حال كراهتنا للأمرين جميعاً. والمعنى: إنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين، ولا يصح لكم ذلك، فإن الْمُكْرَه لا اختيار له، ولا تُعَدُّ موافقة المكره موافقه، ولا عوده إلى ملتكم مكرهاً عوداً، وبهذا التقرير يندفع ما استشكله كثير من المفسرين في هذا المقام[1]

فهو إذاً سؤال استنكاري لمدى جرأتهم وتعاليهم واستخفافهم بنبي الله تعالى شعيباً عليه الصلاة والسلام وبمن معه من المؤمنين، ويؤكده النص الكريم الذي بعده، والذي يؤكد أن قوله لهم هو قول الواثق بالله تعالى؛ والمتحدي لهم، ليؤكد لهم أن الأمر والشأن ليس لهم، وأنه ليس بوسعهم ذلك ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ فإن أخذنا بملتكم وتركنا ما نحن عليه من الإيمان فقد اخترعنا كذباً على الله تعالى، بأن ادعينا خلاف ما أمرنا الله تعالى به، وجعلنا أمره عَزَّ وجل هو ما أنتم عليه، فلا يصح منَّا أن ننهج ملة كفركم، بعد أن نجانا الله تعالى منها، وفي هذا قطع لأملهم في رجوع نبي الله شعيب ومن معه عن دين الله تعالى.

كما أن في قوله ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ أنه نسب الهداية والنجاة إلى الله تعالى، فهو الذي هداهم ونجاهم من ملة الكفر، ووصفها بأنها نجاة، أي: خلاصاً خَلَّصنا وانتزعنا وأنقذنا من مهالك الكفر، ليبين لهم أن الكفر هلاك، والإيمان نجاة، وأن الكفر تدمير للإنسان في حياته وآخرته. ثم يؤكد لهم عن استحالة ما يريدون إلا إذا أراد الله تعالى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيستحيل أن نعود في ملتكم إلا إذا شاء الله تعالى وأراد ذلك، فرَدَّ عليهم باستحالتين، الأولى: استحالة كفرهم رغبة منهم، أو خوفاً من بطشهم وإخراجهم، والثانية: أن الله تعالى أمر عباده بعبادته، فيستحيل أن يريد لهم الكفر. فإن الله تعالى

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٢٥)

مُنَزَّهٌ عن أن يريد لعباده الكفر، كما في قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وقد فطرهم على الإسلام، وأرسل الرسل وأنزل الكتب، مما يفيد استحالة العودة في الكفر كما يتمنون ويرجون، وليشمل النص الكريم كذلك على تحقيق الامتثال والاستسلام لله تعالى في تحقيق ما يشاء، فهو الذي هدانا، وهو الذي لو شاء لأضلنا، وبهذا يحقق كمال الاستسلام لله تعالى في كل حال، بما يقرر العبودية المطلقة لله تعالى، وفي هذا اثبات المشيئة لله عَزَّ وجل.

ثم يذكر سعة علم الله تعالى ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ فإن علم الله تعالى مدرك لكل شيء، ما هو منكم وما هو منَّا، وما نحمله في قلوبنا وتحملونه في قلوبكم، فلا يخفى عليه ما أنتم عليه وما نحن عليه سبحانه وتعالى. ثم يعلمهم ويخبرهم بمن هو المعين لهم ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ فإننا معتصمون بالله ومعتمدون عليه في إيماننا ونصرنا، وأن يحول بيننا وبين الكفر والخذلان.

ثم يتجه بالدعاء والاستغاثة بالله العزيز الحكيم ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ أي: احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق، الذي امتلأ عدلاً، وانتفى منه الجور والحيف والظلم، ثم مجد الله تعالى بما هو مناسب للطلب والدعاء ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين، فلا حكم أعدل وأخير من حكمك يا الله. مما يفيد أهمية تمجيد الله تعالى عند الدعاء بما هو مناسب للدعاء والمسألة.

ورد الكافرون بالحكم على شعيب ومن معه بأنهم هم الخاسرون ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فحكموا بالخسارة لكل من آمن واتبع نبي الله شعيباً، وهذا من أجل تنفير الناس، وصدهم عن سبيل الله تعالى، فعاقبهم الله تعالى على كفرهم وتماديهم وعنادهم، ونواياهم في طرد المؤمنين بأن أخذتهم الرجفة ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ فأخذتهم الزلزلة، فأصبحوا منكبين على ركبهم، ووجوههم على الأرض؛ لاصقين عليها، كما يجثم الطائر، فسقطوا صرعى لا يتحركون، بعضهم على بعض، أي سقط بعضهم على بعض عند نزول العذاب بهم.

ثم أخبر الله تعالى عن حال هؤلاء الكافرين بعد هلاكهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَا﴾ فأصبحوا كأن لم ينزلوها، ولم يسكنوها، ولم يعيشوا فيها، ولم يغتنوا فيها، وهذا حال كل متكبر متعال عن الحق، بأن مآله الفناء، فكأنه لم يعش فيها، ولم ينزلها. لتكون عبرة لكل أحد، بأنه بعد الفناء كأنه لم يعش في الدنيا، فقد ذهبت جميع متعتها. ولم يبق إلا العمل وجزاء العمل يوم القيامة.

ثم يتكرر الوصف والبيان من الله تعالى لهم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فإن الذين كفروا بتكذيب رسولهم شعيب قد أصبحوا هم الذين قد تحققت فيهم الخسارة الكاملة. فقد لحقت الكافرين كمال الخسارة، إذ فاتهم ربح الآخرة، وفي هذا رد على قولهم: بأن شعيب ومن معه هم الخاسرون ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فقد جازاهم الله تعالى بالوصف الذي وصفوا به شعيباً ومن آمن معه، إذ أصبحوا هم الخاسرين. فقد خسروا دنياهم وآخرتهم، وأحلوا بأنفسهم شر العذاب وشر المآل. لتكون موعظة لمن بعدهم، بأن نهاية الدنيا كأنهم لم يعيشوا فيها، وكأن لم ينزلوها، فإن الإنسان سيفنى وينتهي بكل ما كسب وأخذ، فإنها عبرة لكل معتبر، نسأل الله تعالى النجاة والفوز بجناته وبرضاه وبكرمه ولطفه.

ثم يبين الله تعالى حال نبيه شعيب، فقال عزَّ وجل ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ فقد أدبر عنهم، قائلاً لهم عندما أيقن بنزول نقمة الله تعالى على قومه الكافرين ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ فأبلغتكم، وبالغت في النصح لكم، فلم أقصر في ذلك، شفقة عليكم؛ وطاعة لله تعالى فيما أُرسِلتُ به ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ فكيف أحزن وأتوجع على هلاك قوم جحدوا وحدانية الله تعالى، وصدوا عن سبيله، وكذبوا رسوله، وكفروا بالبينات. مما يبين أن الداعية والناصح والموجه والمرشد ليس عليه إلا القيام بواجب الإرشاد، والدلالة على الخير، والنصح، والاجتهاد في ذلك. ولا يحزن على من كذب وعصى بعد النصح، فذلك اختيارهم الذي اختاروه لأنفسهم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ
بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ
وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ
نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ

فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى تفاصيل أقوام من الذين كفروا بالله تعالى وبرُسُله، يُجمل جَلَّ جلاله ذلك بوعظ عباده بموعظة عظيمة جليلة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ فإن من رحمة الله تعالى أنه يتعامل مع كل أمة أرسل لها رسولاً بغاية الحكمة والرحمة واللطف، وأول لطفه هو إرسال الرسول، ثم يأخذهم بشيء من الشدة من أجل رحمتهم بها ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ فإن في أخذ أهلها بالبأساء والضراء هو لتحقيق مصلحتهم، فالهدف هو تحقيق مصلحة من أصابتهم البأساء والضراء ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ لعلهم يتذللون ويطيعون ربهم تبارك وتعالى. والبأساء أي: البؤس، وشظف العيش، وضيقه، وأما الضراء: فهو ما يصيب البدن من العلل والأمراض، فكل ذلك من أجل أن يستكينوا لربهم، وينكسروا له، ويتضرعوا ويتذللوا ويطيعوه، ويلتجئوا إليه، فما يصيبهم أو يصيب الفرد من قلة ذات اليد أو أوجاع وأسقام إنما هي رحمة من الله تعالى ليتضرع ويستكين لله تعالى، ويستفاد من ذلك أن ليس كل ما يصيب المؤمن مما يكرهه هو عقوبة له، بل قد تكون في حُكم وحكمة الله تعالى أنها لطف به، ليزداد قرباً من الله تعالى. ففي بيان علة ذلك ما يبين أن أقدار الله تعالى رحمة، وأن الله تعالى يحب العبد الأواب التواب المتذلل له عَزَّ وجل، وأنه يبغض المتكبر المتسلط المبتعد عنه. ومن فوائد الألفاظ دلالة كلمة ﴿قَرْيَةٍ ﴾ قال الزجاج: يقال لكل مدينة قرية، لاجتماع الناس فيها[١] وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: والقرى: لا تُسمَّى قُرًى، ولا القرية قرية إلا وفيها مساكن لأهلها، وسُكَّانٌ منهم، ففي إهلاكها إهلاك من فيها من أهلها[٢] ومن الفوائد المتعلقة بالأسلوب أهمية الإجمال في الوعظ بعد التفصيل، وأهمية الموعظة بالتذكير، وأهمية القصص في التربية والدعوة والنصح والإرشاد، فإن لها وقع في النفوس.

ثم من رحمته عَزَّ وجل أنه يبدل سيئات العباد بما هو خير وأحسن بفضله وكرمه ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ ﴾ فيبدل مكان السيئة المتضمنة للبأساء والضراء بالحسنة التي هي الرخاء

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٥٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٥٨)

والنعمة وسعة المعيشة، ومن بديع اللفظ وجماله وبلاغته أن دلالة ﴿ٱلسَّيِّئَةِ﴾ اشتملت على الشدة من البأساء والضراء، فالبأساء ما يصيب الأموال والمعاش من البؤس والفقر، وأما الضراء ما يصيب الأبدان من الأمراض والأسقام، كما شملت كلمة ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾ جميع أنواع الرخاء، مما يحل بالإنسان من الخير في ماله ومعاشه وبدنه وصحته. ومن فضل الله تعالى أن هذه الرحمة بالاستبدال تظهر ظهوراً واضحاً من كثرته ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي حتى كَثَر، فيكثروا وتكثر أموالهم، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: حتى كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم، من قولهم: عفا النبات، وعفا الشحم والوبر، إذا كثرت، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم[١] (أَعْفُوا اللحى)[٢]

وفي هذا إعلام من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بسنة الله تعالى في المكذبين، كما أن في هذا تحذير وتخويف وتهديد لقريش ولغيرهم من المكذبين، ويستفاد من ذلك منهجية الله تعالى المتضمنة للحكمة والرحمة، بأن يمس هؤلاء العباد بالشدة من أجل الاستكانة والتضرع، والرجوع له، ويبدل ما أصابهم من السيئة بعظيم العطاء حتى يكثر ويزيد، ويظهر.

فقابل هؤلاء منهج الله تعالى وحكمته فيما أصابهم من البأساء والضراء، واستبدال الله تعالى لهم ذلك بالحسنة من الخير والرخاء بأن قالوا: إنها عادة الأيام والدهر فيما حل بمن كان قبلنا ﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ فنفوا أن يكون ابتلاء من الله تعالى، وبالتالي نفوا مقاصده تبارك وتعالى، بل من شدة كفرهم وعنادهم أن قرروا أنه على شاكلة ما أصاب الآباء من الشدائد والرخاء، فلم يتعظوا، بل تعمدوا تفسير وتأويل سنة الله تعالى تأويلاً يحقق كفرهم. مما يفيد أهمية تأويل أقدار الله تعالى بما ينتفع به الإنسان في دينه ودنياه وآخرته، فيما يصيبه مما يحب أو يكره، كما قال سليمان عليه السلام في سورة النمل، عندما أحضر له عفريت من الجن عرش بلقيس، ملكة سبأ ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ فلم يتفاخر بل أطاع ربه بالحمد والشكر والاعتراف.

فأخذ الله تعالى أهل القرى المكذبين بالعذاب ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فأخذهم العذاب فجأة بنزوله عليهم من غير أن يشعروا بمقدمات له، مما يبين عظيم قدرة الله تعالى، وسرعة إيقاعه العقوبة

---

(١) الزمخشري، الكشاف (١٢٩/٢)

(٢) أحمد، المسند (١٣٧/٩) برقم (٥١٣٥)

إذا قضاها، فأظهر وبين صورتها أنه عَزَّ وجل أخذهم بغتة ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً ﴾ أي: فجأة بنزول العذاب، من غير مقدمات ولا علامات، وثاني صورتها ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ لا يشعرون بنزوله، حتى أهلكهم العذاب، فلا وقت للفرار، ولا وقت للتحصن، وأنى لهم التحصن والفرار من عذاب الله تعالى الذي لا يمتنع تحققه بأي مانع إلا بإرادته ومشيئته سبحانه وتعالى. مما يدل على أنه أشد الأخذ والاجتثاث وقطع دابرهم.

ثم يبين الله تعالى ثمرة الاستجابة، لو حصلت من أولئك ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ فلو أنهم أخذوا بخصلتين: هما: الإيمان والتقوى ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ ﴾ فالإيمان هو التصديق، والاعتقاد الجازم، بوحدانية الله تعالى وبرسوله، وبما جاء به، وكذلك التزموا التقوى، التي تدفع الإنسان للعمل بما جاء عن الله تعالى، لأن التقوى تجمع بين الخوف والرجاء، فالخوف يكون من عقاب الله تعالى، والرجاء متعلق بما عنده من الخير والعفو وللطف، فيستدفعان الْمُتَّقِي إلى الطاعة والامتثال، فلوا حققوا ذلك لكان الجزاء هو ﴿ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ودلالة ﴿ لَفَتَحۡنَا ﴾ تدل على عظيم العطاء، وتيسيره وتسهيله لهم، وتفيد إزالة موانع تحصيل الخير والبركة، بما يبين انفتاح الخير ومعايشته والتنعم به، مع تكثيره وإنزال البركة فيه، وهو فضل عظيم، مما يبين منزلة الإيمان والتقوى، وأنهما مفتاح الخير.

ودلالة ﴿ بَرَكَٰتٖ ﴾ تدل على الخير المبارك، الذي لا حدود لبركته ونفعه، لأن الخير بلا بركة هو زوال وامتناع أثره ونفعه. وربط تبارك وتعالى منبع الخير والبركة بالسماء والأرض ﴿ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ مما يدل على تنوع وكثرة هذه البركات، فمن السماء الغيث، والمطر الذي ترتوي به الأرض، وتجري به الأنهار، وتنبت به الأعشاب والزروع، ومن الأرض ما على ظاهرها وما في باطنها من الإخصاب والإنبات، وما يمكن لهم من البناء واستغلال مكوناتها وخيراتها في كل حاجة يحتاجونها. مما يفيد أن طاعة الله تعالى تحقق البركة والخير والعطاء، ولكنهم ما استجابوا لله تعالى. ومن فوائد السياق أن حرف **(لو)** أداة شرط، أفادت تعليق تحقق الخير والبركة بتحقيق الإيمان والتقوى ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فمن أراد الخير فعليه بلزوم التقوى مع الإيمان. فهما عماد الخير في الدنيا والآخرة.

ولعدم استجابت أهل القرى المذكورة لربهم سبحانه وتعالى تعالى ولرسوله حُرِمُوا من الحياة وخيرها، ومن نعيم الآخرة، بل واستأصلهم عذاب الله تعالى ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ استأصلهم الله تعالى بما كسبوا من الكفر الموجب لعذابهم. فكسبهم للكفر كان هو سبب ما حاق بهم من العذاب.

ثم يبين الله تعالى عظيم قدرته بثلاث استفهامات؛ تقرر حالات العقوبة وزمن وقوعها، وتستجمع التقريع والتوبيخ لأهل القرى المكذبة، مع الوعظ لغيرهم، وما يجب من الامتثال، كما تفيد التعجب من تكرر حالهم ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ ففي هذا تعجب من حالهم، واستشعارهم الأمن من عذاب الله تعالى، وهو سؤال يفيد الاستنكار والتعجب، فحالهم في كفرهم وتماديهم يثير التعجب الاستنكاري، فكأنهم في مأمن من عذاب الله عَزَّ وجل ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أكانوا في مأمن من أن يحل عليهم العذاب ليلاً وهم مستغرقون في نومهم غافلون؟ أيحسبون أنهم في مأمن من العذاب؟ فهو تقريع وتوبيخ لهم، وموعظة لغيرهم، وقد سمى الله تعالى عذابه بأساً ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ والبأس هو شدة العذاب ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ وهذا تكرار تأكيد، وبيان لوقت آخر من أوقات العذاب، ولنوع آخر من حالهم الذي يمكن أن يقع عليهم العذاب فيه، أو كانوا في مأمن أن يأتيهم عذاب الله تعالى نهاراً، وهم منشغلون بلعبهم، فيما لا يجدي عليهم نفعاً ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ وهذا تعجب ثالث، أيحسبون أنهم في مأمن من مكر الله تعالى بهم؟ وذلك بنقمته وعذابه الشديد، وأخذهم حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ فإن الذي يعتقد أنه في أمن من مكر الله تعالى فهو خاسر، إذ يتمادى في المعصية، ويرى أنه في أمان من عذاب الله تعالى، فإن من كانت هذه حاله فقد أوقع نفسه في خسارة فادحة، فإنه هو خاسر لنفسه، وخاسر لدينه، وخاسر لحياته، وخاسر لآخرته، فجمعت دلالة ﴿ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ أنواع الخسارة وحالاتها ومراحلها، وهذا من عظيم البيان، قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن[1] فحال المؤمن بين الرجاء والخوف، بينما حال العاصي الاستئمان.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٤٤)

ومن فوائد الترتيب والتدرج، أن الله تعالى، ذكر قبل ذلك حال بعض الأمم السابقة، ولفت الانتباه لما كان منهم، وبما عاقبهم به، ثم أجمل جَلَّ جلاله ذلك بوعظ عباده بموعظة عظيمة جليلة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾ ثم تدرج إلى بيان حالهم فيما لو آمنوا واتقوا ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ فلو أنهم أخذوا بخصلتين: هما: الإيمان والتقوى لحصلوا على بركات الله تعالى من كل وجه وسبب. ثم تدرج إلى عموم امتناعهم وتمنعهم واستكبارهم ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ والتدرج في هذا الأمر يفيد قوة البيان، ويفيد التأكيد، وشَدّ الذهن نحو التأمل لمضمون الخطاب والبيان ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴾ ثم أكده وكرره مع وقت وزمن آخر ﴿ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ ثم كرره وأكده على سبيل الإجمال ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ ﴾ ثم بين عاقبة من يكون حاله حال المستأمن لعقوبة الله تعالى ﴿ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ مما يفيد حُسن وجمال الترتيب، والتدرج الذي يستثير به النفس والعقل نحو مضامين النصوص الكريمة من آيات الله تعالى.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ أي: ألم يتبين للذين يخلفون غيرهم ممن سبقهم من حال الأمم السابقة وما فعلنا بهم ﴿ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ ﴾ فلو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم بسبب ذنوبهم ﴿ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ ﴾ أخذناهم بكفرهم ﴿ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ فإن لم يتعظوا بمن كان قبلهم، وبما جاءهم، فلو شاء الله تعالى لعاقبهم فختم على قلوبهم، حتى لا يصل إليها خير، فلا يسمعون سماع متعظ لآيات الله تعالى. فيكون عقابهم من جنس فعلهم، إذ أنهم ممتنعون عن الحق كأنهم لا يسمعونه ولا يتعظون به، فيعاقبهم الله تعالى بجنس فعلهم، وذلك بالختم على قلوبهم فلا يصل الخير إليها.

ومن فوائد السياق وقوة خطابه وجمال بيانه، أنه جاء بصيغة الاستفهام الاستنكاري، من عدم تفاعل الوارثين للأرض وتجاوبهم للحق؛ بالرغم مما جرى على من ورثوا عنهم الأرض بعد هلاكهم بسبب ذنوبهم، وقد بدأت الآية الكريمة بأداة الاستفهام ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ ألم يتبين، وفي هذا الأسلوب شد الانتباه إلى أمرين: الأول: ما حل بمن كان قبلهم، والثاني: من عدم اتعاظهم واستفادتهم، فيفترض أنهم يستهدون إلى الحق ويرجعون إليه، لقوة الموعظة الحسية التي وقعت بمن ورثوا عنهم الأرض من بعد هلاكهم. كما اشتمل النص الكريم على ما يمكن أن يلحقهم من العقوبة، فالأولى: ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي: ألحقنا بهم العذاب بسبب ذنوبهم، والعقوبة الثانية: ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ بأن يختم على قلوبهم فلا يهتدون إلى حق، ولا يتعظون بما يسمعون من الحق.

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

فبعد أن قص تبارك وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وما كان من إهلاك الكافرين منهم، وإنجاء المؤمنين، يقول تعالى ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ فتلك القرى التي أهلكناها ﴿ نَقُصُّ ﴾ أي: نتلوا ﴿ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ أي: نخبرك عنها، ومن أخبارها، وما كان من أمرهم، وما يشتمل عليه من أمر الرُّسُل التي أُرْسِلَت إليهم. لأن في ذكر قصصهم ما يثبت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك المؤمنين، وموعظة للكافرين. وفيها بيان حال المكذبين، وما يلقاه المرسلون من أقوامهم، وكيف أن الله تعالى يهلك الكافرين وينجي المؤمنين، وهي عبرة وموعظة وحجة على الناس، وأن في تفصيل أخبارهم آية من آيات الله تعالى التي تُثْبِت نبوته صلى الله عليه وسلم، إذ أنه عليه الصلاة والسلام لا يعلم تفاصيل أمر تلك الأمم. كما أن في ذكرها تحذير وتعليم لمن يُكَذِّب نبي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإن في حال من كذب الرُّسُل من أهل القرى السابقة موعظة وعبرة، فيلزمهم أن يرتدعوا عن تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فلقد جاءت رُسُل الله تعالى بالحجج والبراهين إلى الأمم السابقة ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسُل، فإن تكذيبهم بالرسل من قبل كان مانعاً لهم من الإيمان، ومن الأقوال في دلالتها: ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأمم الخالية، بل شاركوهم في التكذيب، وقيل في دلالتها

كذلك: فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذبوا من قبل رؤيتها[١] وذكر ابن كثير: عن أبي بن كعب رضي الله عنه: كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق، أي: فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك[٢] فقد سبق في علم الله تعالى عن من لم يؤمن بأنهم لن يؤمنوا، وذلك حين أخرجهم من صلب آدم، فَإِن عِلْمُ الله تعالى سابق بالعباد، أفراداً وجماعات. فسبحان الله العظيم، الذي وسع علمه كل شيء، وما كان وما سوف يكون قبل أن يكون. ولا تناقض بين جميع تلك التأويلات، فتكذيبهم كان مانعاً من إيمانهم، وأنهم تابعوا أقوامهم، فيقولون: أنترك ونذر ما كان يعبد آباؤنا من قبل، وكذلك من لم يؤمن بعد رؤية المعجزات والآيات فلن يؤمن، كما أن علم الله تعالى سابق لكل حدث وفعل، فالله تعالى عالم بما سيكون منهم ومن غيرهم قبل أن يكون. وهذا من بلاغة البيان الكريم في استيعابه للمراد من غير حاجة إلى تكرار، وكثرة التفصيل.

ثم قال عَزَّ وجل ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ فبمثل ذلك الطبع الشديد يطبع الله على قلوب الكافرين الْمُصِرّين، فيعاقبهم بجنس تمنعهم وامتناعهم عن الحق، فلا يؤثر فيهم نصح ولا وعظ ولا ترغيب ولا ترهيب ولا تذكير، فيكون الجزاء من نفس العمل. ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴾ أي: ما وجدنا لأكثر أهل هذه القرى من القرون الماضية من وفاء بالعهد، فيحفظونه ويحافظون عليه، ويتمسكون به. بل دأبهم نقض العهود في كل حال، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الوفاء بالعهد الذي عاهدهم حين أخرجهم من صلب آدم، وقال الحسن: العهد هاهنا: ما عهده إليهم مع الأنبياء أن لا يشركوا به شيئاً[٣] ولا يمنع أن العهد يشمل الأمرين معاً ﴿ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴾ أي: أكثرهم خارجين عن طاعة الله تعالى، مُتَّبِعين لأهوائهم، بغير هدى من الله، فالله امتحن العباد بإرسال الرسُل، وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمتثل لأمره إلا القليل من الناس[٤]

وقد تكرر ذكر ﴿ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أربع مرات: المرة أولى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ والذكر الثاني: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ والذكر الثالث: ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ والذكر الرابع:

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٠/٣-١٦١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤٥/٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦١/٣)

(٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٣٩/٢-١٤٠)

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ ففي تكرارها ما يثير النفس والفكر تجاه أمرها، مع ترسيخ ذلك في العقل، ليعقل من أمرها وأمر أهلها ما يستدفع للاتعاظ، فإنها تمثل أمماً من الناس، قد كفروا وجحدوا الآيات البينات، وكذبوا بالرُّسل، فأخذهم الله تعالى بكفرهم.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

فبعد أن ذكر الله تعالى تلك القرى التي بعث لأهلها رُسُلاً منهم، فإنه كذلك بعث الله تعالى من بعدهم موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ وكلمة ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ تفيد التعدد، فليست حجة وآية واحدة، بل آيات كثيرة ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ ونعتهم الله تعالى باسم حاكمهم والقائم بشؤونهم ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ وجعلهم في النعت تبعاً له، أي جماعته وقومه ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ لما كان من تسلطه عليهم، حتى أنهم عُرفوا باسم فرعون الذي تولى أمرهم. وفي هذا بيان لقوة الإنسان وضعفه، فعلى كثرة عدد الملأ إلا أنهم ضعفاء أمام قوة فرعون، وعلى فردية فرعون إلا أنه مَثَّلَ قوة الفرد على الكثرة. فاستقوى فرد على قومه واستعبدهم؛ فأصبحوا تبعاً له، وأمة برجالها ونسائها يبلغ بهم الضعف أن أصبحوا يأتمرون كرهاً بأمر فرد قد استذلهم.

وأوجز عَزَّ وجل صنيع فرعون وأتباعه مع موسى عليه الصلاة والسلام ورسالته وآياته بكلمتين ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي: كفروا بها، فوضعوها في غير موضعها، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وجملة ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ تتجاوز مقابلتهم لرسالة الله تعالى بالكفر إلى ما هو أرحب وأعم في دلالة المقصود، فاستوفى الظلم بردِّها؛ وعدم قبولها، وجحود آيات الله تعالى وحججه وبيانها، وفي رد آيات الله تعالى إيقاع الظلم منهم

عليها، لوضوحها، ولقوة حججها، كما يشمل ظلمهم معنى الجحود والنكران المتعمد لآيات الله تعالى ولرسوله ولرسالته، فظلموا بها نبيهم، وظلموا بها حجج الله تعالى، وظلموا أنفسهم، وظلموا غيرهم بأن صدوهم عنها، بنكرانهم لها، فاستوفى الظلم في سياق النص الكريم جميع الدلالات المتعلقة بتعاملهم مع ما جاءهم عن الله تعالى وما ترتب عليه.

ثم يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبعٌ له ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ أي: فانظر يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون، وتأملوا بقلوبكم كيف كان عاقبة هؤلاء المفسدين ونهايتهم التي انتهوا إليها ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ لأن العاقبة تفيد النهاية والمحصلة؛ بأن أغرقهم الله تعالى في البحر، ففيه لفت الفكر نحو العاقبة التي استحقها هؤلاء المفسدين، وفيها شد انتباه المخاطبين بذلك على مدى الدهور والأعوام، كيف ستكون عاقبتهم، وما الذي يستحقونه، وكيف سيكون العذاب عليهم، وكيف سيكون حالهم من قبل ومن بعد، وسماهم الله تعالى ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ والتي استجمعت جميع ما هو ضد الصلاح والإصلاح، إذ لم يقابلوا رسالة الله تعالى إليهم باي شيء مما يوصف بالصلاح، فصفتهم تدل على أن ما كان منهم هو الفساد المحض، فما ظنك بالمفسد في مقابلته للحق، وفي تعامله معه، وهو ضده من كل وجه. ودلالة ﴿كَيۡفَ ﴾ تفيد موضع وموضوع النظر والتفكر، لتفيد الاستغراق في التأمل، مما يفيد أهمية التفكر لما يؤول إليه من اكتشاف الخطأ من الصواب، والحق من البطل، للوصول إلى الاستنتاج المبني على الحقائق والمالات، فالأمر إذا سبقه النظر بالتأمل والتدبر، تأكد للمتأمل والمتدبر الحقائق بوضوح جلي. وفي هذا البيان ما يُستَنبَط منه المنهج التعليمي والتوجيهي الصحيح لبناء الإنسان بناء صحيحاً، بما يرفع من فكره وقراره واسترشاده.

وبعد إجمال موضوع رسالة موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون وملئه، وما كان من رَدِّهم، وما أشار الله تعالى به من العذاب الذي نالهم، ينتقل السياق الكريم إلى بيان تفاصيل ما دار بين موسى عليه السلام وبين فرعون ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فأول إعلام من موسى عليه الصلاة والسلام هو الإخبار بأنه رسول من رب العالمين، فكان التعريف بأنه مُرسل من رب العالمين، الذي هو رب كل شيء ومالكه، وبالتالي تنتفي ربوبية كل مربوب ومألوه من دون الله تعالى، وأنه مرسول لفرعون ولغيره، فلم يقتصرها على فرعون، بل قال على وجه العموم ﴿إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ثم بين منهجه وعدله في كلامه ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾ واجب ولازم علي ﴿أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾ فلن أتكلم عن الله تعالى إلا بما أمرني به، وهو الحق، فلن أقول خلاف

الحق الذي أُمِرْتُ به، فنفى عليه الصلاة والسلام عن نفسه مظنة الكذب، وكل تأويل فاسد بأنه يريد شيئاً لنفسه. فأول أمر يقرره ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ ثم استطرد فأجمل في الكلام ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ببرهان وحجة من ربكم، يدلل ويشهد على صحة ما جئتكم به، وصدق رسالتي إليكم بأنها من الله تعالى، وفي هذا تشويق وتأكيد ما يُثْبِت الحقيقة ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ ثم طلب من فرعون بعد حوار استوفته آيات أخرى من كتاب الله تعالى أن يطلق سراح بني إسرائيل ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في معناها: أي أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم، فإنهم من سلالة نبي كريم، إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، خليل الرحمن[١] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وقد طوى هنا ذِكْر ما دار بينهما من المحاورة[٢] لإظهار الهدف والمقصد، وإشغال الذهن والفكر به.

وأجاب فرعون ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فإن كانت معك حجة فأظهرها إن كنت صادقاً فيما تقول ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ فألقى موسى عصاه فإذا بها تنقلب ثعباناً، أي ذَكَراً من ذُكُور الحيَّات، وجملة ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ تدل على أنه واضح من كل وجه، فانقلبت العصا ثعباناً حقيقياً، وليس تخيلاً، ولا شبيه للثعبان، فكلمة ﴿مُّبِينٌ﴾ وصفت الثعبان بالوضوح والحقيقة في شكله وحركته وقوته، فلا مجال لتكذيبه، أو التوهم بأنه على غير الحقيقة. وهذا من دقة البيان الكريم في الوصف. ثم بادر موسى بالآية الثانية: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ فأخرج موسى يده من جيبه فإذا هي تتلألأ نوراً لكل مبصر، فلا شك ولا ريب في تحولها بقدرة الله تعالى.

وهنا أجاب جمهور سادة قوم فرعون على ما رأوا من الآيات بدعوى كاذبة فاسدة ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فقد اعتبروا هذه الحجج، وهذه الآيتين الكريمتين العظيمتين من أعمال السحر، الذي هو أخذ عيون الناس إلى خداع البصر، حتى يُخَيَّل إليهم أن العصا حية، وأن الشيء بخلاف حقيقته. فوصفوا موسى بصفة الساحر ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي مُتقنٌ ومتعمقٌ في معرفة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٤٦)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٣١)

السحر، فيأخذ عيون الناس بالخداع، فيتخيل الرائي أن العصا حية، ثم انتقلوا من الحكم عليه بالسحر إلى تأويل وتفسير مقصده بما نسبوه إليه من السحر ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ فإن هدف موسى هو إخراجكم من أرض مصر يا معشر القبط بهذا السحر.

ثم يتساءلون بينهم لاستظهر الحل المناسب ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أي: طلب الرأي منهم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ فماذا تشيرون به. فأشاروا على فرعون بمشورة ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ أي: أخره وأخاه، ريثما ترسل في مدن مصر من يجمع السحرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الْشُّرَط[1] أي رجاله المختصين بمثل هذا الأمر ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ فينتقوا ويجمعوا لك كل ساحر متصف بالخبرة والبيان والتجربة التي ظهر بها علمه بالسحر، أي: أنه سيكون هناك انتقاء، يعتمد على قوة المهارة، والحذق في صناعة السحر، فلن يجمعوا لك الكثرة منهم فقط، بل سينتقون ويصطفون لك منهم الْحُذَّاق المهرة بالسحر، حتى يواجهوا موسى عليه الصلاة والسلام.

ومن يتدبر ويتأمل ذلك الحدث؛ يرى فضل الله تعالى في تصريف شأنهم، فلم يبادروه بالقتل، ولا بالأذى، ولكن بادروه بما سوف يُعلن به موسى صدق أمره، وصدق رسالته، وقوة حجته، فينتشر به خبر صدق نبوته بين الناس، وهذا من تدبير الله تعالى، خاصة إذا عرف الناس أن الذين جمعهم فرعون من السحرة هم الأعلم بالسحر.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ
فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾
فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي
ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٥١/١٠)

لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان اجتماع كبار السحرة عند فرعون ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ أي: ووصل السحرة إلى فرعون. وهنا تشارطوا على الجزيل من العطاء إن حصلت لهم الغلبة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ وأفادت دلالة ﴿لَأَجْرًا ﴾ تعظيم العطاء، بأن يكون جزيلاً، لأن كلمة أجراً جاءت نكرة في سياق عمل كبير، وأيضاً أن الأجر من فرعون صاحب الأموال الطائلة، فوافق لهم على مطلبهم، ووعدهم برفع مكانتهم ليكونوا من جلسائه وخاصته وحاشيته؛ فيحظوا بالقرب منه ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي: أعطيكم ما أردتم، وأزيدكم بحظوة القرب، والمكانة والمنزلة مني.

بعد ذلك خاطب السحرةُ موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ فجعلوا لموسى عليه الصلاة والسلام الخيار بأن يبدأ أو يتأخر بعدهم، وهذا التخيير منهم قد يكون بناء على ما يجدونه في أنفسهم من الثقة، والتظاهر بالتجاسر والقوة، من أنهم واثقون من أنفسهم، وقادرون على كشف الحقيقة التي أوهمهم بها فرعون وأعوانه، فاختار رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام أن يبدؤا ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ﴾ وفي هذا حكمة جليلة، بأن ينظر الناس إلى هول سحرهم، فيتعجبون من ذلك، ويذهلون منه، فيتصورون صعوبة ما سيكون من حال وأمر موسى عليه الصلاة والسلام معهم، وربما يتوهمون من هول ما يرون أن الغلبة والفوز سيكون للسحرة، فإذا رأوا آية الله تعالى تلتهم ذلك الهول الرهيب من الحيات أدركوا حالاً أن ذلك لا يمكن أن يكون إلا من الخالق سبحانه وتعالى، فكيف لحية واحدة تلتهم آلاف الحيات ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهذا بيان من الله تعالى للمشهد، بأن أثر السحر إنما وقع على أعْيُنِ الناس، وأن فعلهم ليس بحقيقة ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ بينما الحقيقة أن حبالهم وعصيهم كما هي لم يتغير حالها، فالحقائق لم تتغير ولم تتبدل، بل وقع السحر على رؤية الأبصار، حتى تخيل الناس ما لا تدركه العيون حقيقة، فوقع الخوف في قلوب الناس ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ فأرهبوا الناس إرهاباً شديداً، إذ تخيل الناس أن الحبال تحولت إلى حيَّات تسعى، وجاء في التفسير كما ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى:

أن عدد السحرة الذين جمعهم فرعون سبعين ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف حبل، وسبعين ألف عصا[١]

﴿ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا بيان من الله تعالى عن أن الذي جاؤوا به سحر عظيم ليس بالأمر الهين، بل كان شديد الهول، حتى أنه من شدة هوله استرهب الناس بقوة الفزع والخوف، بل من شدة هوله أن استرهبوا قلوب الحاضرين.

وبعد حالة الفزع يُوحي الله تعالى لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ ﴾ وهذا يؤكد ويبين معية الله تعالى لموسى عليه السلام، وتوفيقه له، فأمره بعد أن أرهبوا الناس وأخافوهم، وأدخلوا الهلع في قلوبهم أن يُلْقي عصاه على الأرض ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴾ فعصى موسى التي تحولت إلى أفعى ابتلعت حبالهم وعصيهم التي أوهموا الناس بسحرهم أنها أفاعي تتحرك. وسمى الله تعالى ما صنع السحرة بالإفك، لأنه كذب غير حقيقي، فلم تتغير حبالهم، بل كانت كما هي، ولكن السحر وقع بإيهام النظر أنها أفاعي، ولذلك سماه الله تعالى بالإفك، وهو الكذب، وهذا من دقة الوصف، مما يعلم ويربي المسلم أن يكون دقيقاً في تسمية ووصف الأشياء بما يناسب حقيقتها.

وهنا ظهر الحق ﴿ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ فأصبح الحق أمامهم واقعاً وحقيقة لا ينكره إلا جاحد، واندحر بذلك الباطل من كل وجه، والتي منها، ما توهموه عن موسى بأنه ساحر، واندحر باطل السحر الذي لم يستطع مقاومة الحق، بل انخذل أمامه، خاصة وأن موسى واحد، ومعه أخوه هارون، بينما كان عدد الباطل سبعون ألف ساحر، فظهر الحق جلياً؛ وفسد ما عملوا من سحر. ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾ فَغُلِب فرعون ومن معه أمام نبوة موسى عليه الصلاة والسلام، وانقلبوا وعادوا أذلاء مقهورين صاغرين مخذولين، وجاء تصوير هزيمتهم بلفظ ﴿ فَغُلِبُواْ ﴾ فعل مبني لم يُذكر فاعله، ليفيد تعظيم وتفخيم الفعل والحدث والأمر الذي هزمهم وغلبهم، وأصبحوا به أذلاء صاغرين مقهورين، وهي آية الله تعالى التي أرسل الله تعالى بها كليمه موسى عليه الصلاة والسلام، حيث تحولت العصا إلى ثعبان حقيقي، بل ثعبان مفترس، يلتهم الحبال والعصي، حتى لم يعد لها وجود. فكان فعل عصى موسى عليه الصلاة والسلام حقيقة لا خيال.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٥٨/١٠)

وأمام هذا الموقف العظيم حدث من السحرة ما يغيض فرعون ومن معه من الكفرة ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ فلم يتردد السحرة أمام الحق، بما تأكد لهم ولغيرهم أن هذا أمر لا يكون من بشر أبداً، بل هو حقيقة وآية جلية عظيمة من آيات الله تعالى، فخروا لله تعالى سجداً، باختيارهم وطواعيتهم، تذللاً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً بالله تعالى وبما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام من ربه. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وخروا سجداً: كأنما ألقاهم مُلق لشدة خرورهم، وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا، فكأنهم أُلْقُوا[١] مما يبين أن دلالة ﴿ وَأُلْقِيَ ﴾ هي لتفخيم وتعظيم الموقف، وبيان مقدار تفاعل السحرة وتجاوبهم أمام هول وعظمة الآية والحجة الربانية، فكانت دلالة اللفظة الكريمة مصورة وموضحة لحالهم أمام هول ما حدث من عصا موسى عليه الصلاة والسلام، ثم قالوا من غير تردد، ولا اعتبار لما سيلحقهم من تجبر فرعون ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فأعلنوا إيمانهم، وقرروا أن الله تعالى هو رب العالمين، بل وسجلوا إيمانهم بنبوة موسى عليه الصلاة والسلام وأخيه هارون بتخصيصهما ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ فبالرغم من أن موسى وهارون هم من العالمين إلا أن تخصيصهم بالذكر ما يفيد تقرير الإيمان بنبوتهما، وهذا من توفيق الله تعالى لهم.

كما اشتمل السياق على تعيين وتحديد المقصود بالرب سبحانه وتعالى ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حتى لا يتوهم ولا يَعتقد فرعون أنه هو المقصود، لأنه كان يقول لهم كما في سورة القصص ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ وفي سورة النازعات ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لَمَّا آمنت السحرة، اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل[٢] فآمنو بالله تعالى وبموسى رسولاً من عند الله تعالى.

وهنا فُجِعَ فرعون بإيمانهم، وشَعُر بأن سلطته عليهم قد انتهت ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ سؤال استنكار وتعجب يوجهه فرعون للسحرة المؤمنين، كيف تؤمنون قبل أخذ الإذن مني، فشعر أن ولايته أصبحت لا قيمة لها، وأن ملكه قد اهتز، ومن مكره أنه أوَّلَ وصرف الأمر على غير وجهه الصحيح ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فتأول هذا تأويلاً

---

(١) الزمخشري، الكشاف (١٣٨/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٤/٣)

يُبقي له ملكه وجبروته، ليصرف الناس عن إيمان السحرة، بأن هذه خديعة بينكم وبين موسى، من أجل أن تُخرجوا أهلها عليَّ وعنّي، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: لتخرجوا من مدينة مصر أهلها من القبط، وتستولوا عليها، وتسكنوا فيها أنتم وبنو إسرائيل[١] فسوف تعلمون بصنيعي لكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهذا تهديد ووعيد مبطن بالشر الشديد لهم ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فهددهم بالتعزير والتقطيع من خلاف، وهو أن يقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى، والرجل اليمنى، فإنها عقوبة قاسية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان أول من صَلَبَ، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون[٢] فكان رَدّ السحرة على فرعون هو ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ فهذا تقرير منهم بالبعث بعد الموت، فقد تحقق في إيمانهم أن الرجوع إلى الله تعالى متقرر، وبالتالي فإن ما يجدونه عند الله خير مما يجدونه عند فرعون، وأن عذاب فرعون لهم أخف من عذاب الله تعالى لمن كفر، فكان القياس منهم هو قياس إيمان. مما يبين أثر الإيمان على تصرفات الإنسان، وشجاعته ورباطة جأشه.

ثم تساءلوا عن وجه الانتقام ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ فما الذي تُعِيبُهُ علينا؟ ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ فما الذي تستنكره منا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ فهل إيماننا وتصديقنا بآيات ربنا التي جاءتنا محل انتقام واستنكار؟ فهو سؤال استنكار، وتقرير ما يجب على الجميع تجاه آيات الله تعالى، واستنكار على تصرفه الذي يعادي الحقيقة الإيمانية، وما يجب عليه تجاه الحق، فإن فعلك بنا منافي للحق والحقيقة. وهنا التجأوا إلى الله تعالى وسألوه ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فعرفوا أنهم أحوج لعون الله تعالى، وأنه هو الذي يعينهم بالصبر، وتحمل مشقة ما يجدونه من فرعون، وقد سألوا ما يلائم موقفهم وهو الصبر، وطلبوه طلباً يستحوذ على كل ما سيجدونه ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: صبه علينا صباً، حتى يغمرنا، إذ أن كلمة ﴿أَفْرِغْ﴾ استجمعت عظيم الحاجة التي لا تقوم مقامها لفظة أخرى. فَصُبَّ علينا الصبر صباً حتى يغمرنا؛ فلا نتراجع عن إيماننا بك يا الله، مما يفيد أنهم لن يتخلوا عن دينهم أمام هذا الجبروت، بل تمنوا من الله تعالى أن يختم لهم بالإيمان ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فلا تجعلنا مفتونين ولا منحرفين عن الإسلام بعونك وتوفيقك وتثبيتك لنا.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٣٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٤٨)

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بما تآمر عليه فرعون وملأه ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ قال أتباعه المجرمون من قومه: أتترك موسى ومن معه ليفسدوا عليك أمرك وأهلك وأتباعك، ويخرج عن طاعتك، ويوقع الفرقة ويشتت الشمل، ويتركون عبادة آلهتك. فقد بدأ اتباعه بالتزلف والتَّقرُّب له من خلال إغرائه واستثارته تجاه موسى ومن معه من المؤمنين، وبيان ما يتوقعونه لملكه وزعامته، وقد عرضوا أمرهم بصيغة السؤال الاستفهامي الذي يحمل الاستنكار واستثارة الغضب، ليدفعه إلى حب الانتصار ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فلم يُوجهوا فرعون للحقيقة والخير، بل وجهوه لما يحب من الشر، ومعلنين له أن موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ومن معهم من المؤمنين مفسدون، فوصفوهم بغير الحقية، إرضاء لفرعون. مما يفيد أن المتملقين ينظرون لمصلحتهم، وليس للمصلحة الحقيقية، وذلك باستثارة ما يُعجبه مما يتملقون له به، وإن كانت نهايته وبالاً عليه. كما أنهم عمموا الفساد ﴿لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أرض مصر، وفي هذا التعميم ما يستثير فرعون، ويدفعه نحو أصعب القرارات وأشدها، لأنه يدخل في معنى قولهم ﴿لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ خدمه وعبيده وحاشيته وعساكره وغيرهم من أهل مصر. مما يؤكد أن الفاسد يصف الصالح والمصلح والحق بالفساد إذا عاداه واستنكره لما في نفسه من الكبر أو الحسد، أو لأي دافع يدفع لذلك. فَإن وَصفهم لموسى بالفساد ليس على الحقيقة، بل لما يتناسب مع مرادهم، وإلا فإن الحقيقة قد أظهرها اللهُ تعالى بالحق الظاهر، الذي كشف مقابله حقيقة الباطل، وحقيقة ما كانوا يعملون من الفساد.

ويخبر الله تعالى عن رد فرعون على المحرضين له من الملأ ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴾ فَفَنَّدَ ما سيقوم به تجاه موسى ومن معه، بأن يقتل الأبناء الذكور، ويبقي الإناث أحياء لخدمتهم ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴾ فنذلهم ونقهرهم، فنستعلي عليهم بالقهر والإذلال، فلما

بلغ موسى ما قاله فرعون، أوصى المؤمنين معه بوصايا ثمينة عزيزة ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ فوجههم إلى الاستعانة بالله تعالى، من خلال الدعاء والتوكل والالتجاء عليه عَزَّ وجل، ثم وجههم لأمر عظيم، وهو الصبر ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ لأن في الصبر مقاومة النفس وما تواجهه، وما قد يختلج فيها من الخوف، وما يصيبها من المكروه والأذى. ثم أوضح لهم تدبير الله تعالى، وسننه في ذلك ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ فالأرض ملك لله تعالى، ينقل ميراثها من وارث إلى وارث بمشيئته سبحانه وتعالى، وليست بمشيئة من عليها من الناس، وفي ذلك غرس لجانب الإيمان عموماً، والإيمان بالنصر خاصة، وأن الله تعالى قد يُورّثهم أرض مصر بنصره وقدرته عَزَّ في علاه، لأن العاقبة في سنن الله تعالى تكون للمتقين ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وهذه بشارة ووعد من الله تعالى بأن نهاية الأمر وخاتمته، وعاقبة ما هم فيه من محنة، ستكون للمتقين. وفي هذا بيان لمنزلة التقوى، بأنها سلاح القوة، وسلاح الانتصار، وأنها محمودة العاقبة في الدنيا والآخرة.

وجملة ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ قوة للمؤمن، وإرشاد له بأن زمام النصر هو الاستعانة بالله تعالى: بالدعاء والتوكل عليه، والأخذ بزمام وسهام الصبر، الذي يبتر الله تعالى بهما الشر والأذى. فإن الاستعانة بالله تعالى والصبر، قوة لها ثمرة الفوز والنجاح.

وجملة ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ قوة للمؤمن أمام حوادث الدهر، وأمام فواجع الأعداء، وأمام مغريات الحياة وانحرافات النفس والشهوات، وقوة لصد الشبهات. فإذا تلاطمت أمام المؤمن حوادث الدهر وفواجع الأيام، زاد في تقواه، وتصابر وقال لنفسه ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وإذا قابله الأعداء بالقهر والفواجع، لزم التقوى واستقوى عليهم بقوله ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وإذا استدرجته المغريات من الشهوات، ومالت لها النفس، استقوى بخطام التقوى، وقال ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وإذا أسدلت الشياطين عليه الشبهات، قطعها بقوة اليقين، قائلاً ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وإن رأى من غيره ما يستوجب الوعظ، قال له: اصبر ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فإنها سياج العاقبة التي يحظى بها المتقون، فإن تقوى الله تعالى هادمة لكل شر وأذى، ومدمرة لكل عدو.

ويخبر الله تعالى بحديث بني إسرائيل لموسى عليه السلام ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا ﴾ فيبث قوم موسى آلامهم وأوجاعهم من قهر فرعون لهم ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا ﴾ لقد فعل بنا أصناف الأذى، من قبل أن تأتينا ومن بعد مجيئك لنا. وكلمة الأذى: تفيد ما يصل من الضرر إلى الجسم أو النفس، أو ما هو متعلق بالعِرض أو الدين أو غيرها من تبعاته الدنيوية والأخروية. فهي عامة تدل على عموم الأذى وتنوعه، وجاء في التفسير عن الأذى الذي كان قبل أن يأتيهم موسى عليه الصلاة والسلام، ومن بعد ما جاءهم أنها كانت متنوعة. وفي ذلك ستة أقوال، تبين في مجمل عمومها تلك الأنواع التي كان يؤذيهم بها، فقد أورد ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن الأذى الأول والثاني: أخذ الجزية. والقول الثاني: أن الأذى الأول ذبح الأبناء، والثاني: إدراك فرعون يوم طلبهم. والقول الثالث: أن الأذى الأول: أنهم يُسَخَّرُون في الأعمال إلى نصف النهار، ويُرسَلُون في بقيته يتكسبون، والثاني تسخيرهم جميع النهار بلا طعام ولا شراب. والقول الرابع: أن الأذى الأول: تسخيرهم في ضرب اللَّبِن، وكانوا يعطونهم التبن الذي يخلط به الطين، والأذى الثاني: أنهم كُلِّفُوا ضرب اللَّبِن، وجعل التبن عليهم. والقول الخامس: أن الأذى الأول: قتل الأبناء، واستحياء البنات، والأذى الثاني: تكليف فرعون إياهم ما لا يطيقونه. والقول السادس: أن الأذى الأول: استخدامهم، وقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم، والثاني: إعادة ذلك العذاب[1] فإنها شكوى مريرة، وأذى عظيم من فرعون لهم.

فأجابهم موسى بما يرجوه من الله تعالى تجاههم، وتجاه فرعون الطاغية ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ فبدأ موسى عليه السلام بما يأمله بقوله ﴿عَسَىٰ ﴾ التي تفيد الرجاء والطمع بأن الله تعالى يهلك فرعون وأعوانه ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ ﴾ وفي هذا استحثاث لهم على مزيد الصبر والاستعانة بالله تعالى، والأمر الثاني الذي يرجو ويطمع من الله تعالى أن يحققه وهو ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فيجعلكم ترثون أرض مصر من بعد فرعون، فتخلفونه بعد هلاكه، فتكونون في أمن وطمأنينة، فلا تخافونهم بعد هلاكهم، وكلمة ﴿يُهۡلِكَ ﴾ تدل على الزوال والذهاب، وانقطاع أمر فرعون واجتثاثه، وقد حصل بأن أغرقه الله تعالى ومن معه، فلم يبقَ لهم وجود، ثم نبههم موسى عليه الصلاة والسلام إلى الحال التي يجب عليهم أن يفطنوا لها ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ فهو تنبيه تحذيري، ففي حال تحقق ذلك، فسيرى الله تعالى ما تعملون

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٧/٣)

بعدهم. وجملة ﴿ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ تفيد الاستفهام للتحذير، والتنبيه لمغبة ذلك الأمر، بما يستدعيهم للتأمل والتدبر، خاصة وهذا التوجيه قبل تحقق ما يرجوه موسى من ربه تبارك وتعالى، ليدركوا حالهم اليوم، فيقارنونه يوم يكون الأمر لهم، فهل تسارعون في طاعة الله تعالى، أو تخالفون أمره بعد التمكين، والله تعالى عالم بما سيكون منهم قبل أن يكون، ولكن ليتحقق بوقوعه منهم ما يقابله من الجزاء. كما أن في ذلك تنشيط لحالهم نحو الصبر والاستعانة بالله تعالى، والتزام التقوى التي أوصاهم بها سابقاً كما قال تعالى عنه ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ استعينوا بربكم مع الصبر على ما أنتم عليه، فإن توريث الأرض عائد لله تعالى، وأن العاقبة الحسنة واقعة ومتحققة للمتقين.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بما أدب به قوم فرعون لَعَلَّهم يرجعون للحق ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فلقد أخذ الله تعالى قوم فرعون بسنين القحط والجدب وقلة المطر لينالهم الجوع، والعرب تقول: مستهم السَّنَة، أي شدة السنة وجدبها، وكذلك نقص الثمار وقلتها لعلهم يعودون إلى الله تعالى، مما يفيد أن من فضل الله تعالى على عباده أو عبده، أنه عندما يمسه شيء من القلة في ذات اليد، أو غيرها فإنما هو رحمة به، من أجل أن يعود إلى الحق والاستقامة، ويستكين إلى ربه،

ويعود إليه، فيتضرع ويخبت، فما يمنعه الله تعالى عن عبده إنما هو نعمة عظيمة، مماثلة لعطائه النعمة، لما فيها من معرفة الله تعالى بعبده وما يصلح له، وما يؤدبه به.

ومن جميل البيان أن الله تعالى ذكر ما أصابهم على وجه العموم أولاً: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ ثم أعقب ذلك بعطف العام على الخاص، بما يفيد بيان أبرز وأظهر أنواع الابتلاء من عمومه ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ فالنقص من الثمرات هو جزء من العام ﴿بِٱلسِّنِينَ ﴾ فأفرده لبيان أهميته، ومن جميل فضل الله تعالى ورحمته، أنه لم يحرمهم الثمرات كلها، بل عاقبهم بالنقص، بما يفيد عدم الكفاية، وعدم وجود ما يغطي به الاحتياج. وكل ذلك لهدف وغاية متعلقة بمصلحة آل فرعون، لعلهم يرجعون إلى الله تعالى، ويتوبون إليه.

ثم يبين الله تعالى ما كان منهم تجاه ما أصابهم، وابتلاهم به سبحانه وتعالى ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ ﴾ والحسنة هي: كل ما يسر الإنسان من نعمة، سواء في نفسه أو بدنه، أو أحواله، فإذا جاءهم الخير، وأخصبت الأرض، وكثر الضرع، واتسع الرزق، والصحة والسلامة ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ فنسبوها لأنفسهم، بأنهم مستحقون لها، وأنهم بذلوا الجهد لتحصيلها، فلم ينسبوها إلى الله تعالى، ويشكروه، مما يفيد أن المسلم ينسب ما أنعم الله تعالى به إلى الله عَزَّ وجل، ولا ينسبه لجهده وحذقه، بل إن الذي أنعم بذلك هو الله تعالى، فهو الذي هداه، وسخر له ما أعطاه. وأما الوجه الثاني من تفسيرهم وتأويلهم حين يمسهم السوء كما قال تعالى ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ ﴾ والسيئة هي: كل ما يصيب الإنسان من أضداد الحسنات في بدنه أو نفسه أو أحواله المختلفة، فإذا أصابهم القحط وقلة المطر والثمار، وكثر عليهم البلاء، فإنهم يتشاءمون بموسى عليه الصلاة والسلام وبمن معه، فينسبون سبب البلاء إلى موسى ومن آمن معه، وفي هذا ما يبين عظيم انحرافهم الاعتقادي، وأنهم بهذا التشاؤم يشوهون صورة ومسلك وجود موسى عليه السلام معهم، ومن معه من المؤمنين. ومن دقة البيان قوله تعالى عنهم ﴿يَطَّيَّرُواْ ﴾ حيث جاء على صيغة التَّفَعُّل، ليفيد تكلفهم ذلك، بأن نسبوا ما أصابهم من القحط لموسى عليه السلام ومن معه. وفي اللغة، يقال: تطير فلان؛ واطَّيَّر، أي: تشاءم. والأصل هو رَدّ الخير

والشر والمضي والتَّوَقف لمسار الطيور وأصواتها، وقد جاء النهي عن التطير في قوله صلى الله عليه وسلم (لا عدوى ولا طيرة) [1]

ثم يوضح ويبين الله تبارك وتعالى حقيقة تطيرهم ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فابتدأ البيان بقوله تعالى ﴿أَلَآ ﴾ لتفيد الاستفتاح بالتنبيه والتوكيد والاهتمام ولفت نظر المخاطبين لما بعده، ثم أعقبها بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا ﴾ التي أفادت حصر ما أصابهم جميعه هو من عنده عَزَّ وجل ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فما أصابهم من الخير، وما أصابهم من مس السيئة بالجوع والنقص هو من عند الله تعالى، وهو الذي يسبب أسباب حصول الخير كإنزال المطر، وإنبات الأرض، وتوفيق السُّبُل للعبد. وقد جاء البيان من الله تعالى عن حظهم ونصيبهم بجملة ﴿طَٰٓئِرُهُمۡ ﴾ التي تعني الحظ والنصيب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فعلة وسبب قولهم هذا من التطير بموسى ومن معه عند حلول السيئة عليهم، وما ينسبونه من وقوع الحسنة لأنفسهم، هو لجهل أكثرهم، بسبب انغماسهم في الجهل والضلال، فيصدون الحق ويردونه، ولذلك سماهم الله تعالى في الآية التالية بأنهم مجرمين ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ فنقل وصفهم من عدم العلم إلى الإجرام الذي سببه الاستكبار، وفي البيان الذي سيأتي بعده نقلهم إلى التغافل ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ وذلك لافتعالهم التغافل عن آيات الله تعالى التي عرفوها، ولكن تجاهلوها، وتركوا الاعتبار بها؛ وكأنها لم تكن شيئاً، وذلك من شدة كبريائهم.

وفي وصف الأكثرية بأنهم لا يعلمون ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ما يبين أن القليل منهم يعرفون الحق، ولكن لغلبت أطماع الدنيا عليهم جعلتهم يعمدون إلى مجاراة الباطل. وقد انتفى جهلهم بحدوث الآيات المفصلة المتتابعة. وهذا يبين خطورة الجهل وأهمية العلم، وأهمية التواضع للحق، والأخذ به، فإن النجاة في التواضع للحق والعمل به.

ثم يخبر الله تعالى عن تمرد قوم فرعون وعنادهم للحق الذي ينتفي عنهم عذر جهلهم به ﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ فنفوا في استعلاء وكبرياء أن يقبلوا أي آية وحجة وعلامة دالة على نبوته ورسالته ﴿مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ ﴾ أي: مهما تكون الآية والدلالة والعلامة

[1] البخاري، الجامع الصحيح (٤/٤٦-٤٧) برقم (٥٧٥٦)

والحجة من القوة والبيان، فلن نقبلها منك، ولن نؤمن بك، فقابلوا ذلك بغرور التحدي، الذي يفيد أن عنادهم هو عناد مكابرة. كما أنهم ردّوا الحجة التي جاءهم بها موسى، وكذلك التي لم تأتيهم بعد، ليؤكدوا أن كفرهم هو كفر عناد وجحود للحق، بل رَدُّوا وأولوا الحجج والآيات البينات إلى السحر ﴿لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾ أي لتصرفنا عما نحن عليه، كما يفعل السحرة بسحرهم، بالرغم من أن السحرة الذين هم أعلم بالسحر قد آمنوا، وقبلوا العذاب من فرعون على أن ينقضوا إيمانهم، مما يؤكد لقوم فرعون أن آية العصا هي آية عظيمة. فلم يتعظوا بما مسهم من السنين ونقص الثمرات، بل يؤكدون إصرارهم على عدم التصديق والإيمان ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ وفي هذا إثبات المبالغة في عدم تصديقهم للآيات والحجج؛ مهما بلغت عدداً ووضوحاً.

ثم يبين الله تعالى ما أرسله إليهم من الآيات الأخرى الخارجة عن العادة ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ فقد سَمَّى اللهُ تبارك وتعالى ما أرسله آيات، أي براهين وعلامات وحجج، بل وصفها تبارك وتعالى بأنها ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ أي: تأتي الآية، ثم يفصل بينها زمنٌ، ثم تأتي التي بعدها، قال ابن قتيبة: بين الآية والآية فصل[1] وتأتي أيضاً بمعنى البينة الواضحة، فاجتمع فيها الفصل والتتالي والتعاقب والوضوح، فأرسل الله تعالى عليهم ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ الذي هو الماء، بما ينزل من المطر، وقيل: الغرق، وقيل: الطاعون، وقيل: الموت، وقال ابن جرير رحمه الله تعالى: جاز أن يكون الذي طاف بهم: المطر الشديد، وجاز أن يكون الموت الذريع ﴿وَٱلۡجَرَادَ﴾ هو الطائر المعروف ﴿وَٱلۡقُمَّلَ﴾ هو السوس، وقيل: صغار الجراد الذي لا أجنحة له، وقيل: البراغيث، وقيل: غير ذلك[2] ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ وهو الحيوان المعروف، الذي يظهر في الماء ﴿وَٱلدَّمَ﴾ قيل: أنه سال النيل دماً، وقيل: هو الرعاف[3] وفي هذا التنوع من الآيات، ما يلفت الانتباه إلى أنه أمر غير طبيعي، مما يوجب محاسبة النفس، والاعتراف لنبي الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام بما جاءهم به من عند الله تعالى، ولكن خطورة الكبر عظيمة على النفس. بل من حكمة الله تعالى أن جعل تلك الآيات متعاقبة، واحدة تلو الأخرى ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ فإنها آيات بينات وواضحة، وأنها إنذار من الله تعالى، ولكن ترفعوا عن أن يؤمنوا بها، فاستكبروا

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٠/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٧٩/١٠-٣٨٥)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٢٣٨/٢)

في أنفسهم ﴿ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ ﴾ وكونهم استكبروا دليل على أنهم تيقنوا أنها إنذار، وأنها علامات بينات واضحات من الله تعالى، ولكن الكبر خطير على النفس، فما منع أبو جهل عن الإسلام إلا الكبرياء، وبهذا كانوا كما وصفهم الله تعالى بالمجرمين ﴿ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ فالمجرم لا ينزع إلى الحق، بل ينازع الحق، وينزع إلى الباطل.

ويخبر الله تعالى عن تحايلهم عندما تمكن منهم هذا العذاب ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ فهذا اعتراف منهم بحقيقة نبوة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي: بما استودعك من العلم، أو بما اختصك به من النبوة ﴿ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ لئن أذهب عنا هذا العذاب لنصدقك بما جئت به، ونرسل معك بني إسرائيل كما رغبت، وكانوا يستخدمونهم عنوة، بامتهانهم بقسوة كما تم بيانه فيما سبق ﴿ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴾ فلما كشف الله تعالى عنهم ما أصابهم من العذاب إذا هم ينقضون ما عقدوه على أنفسهم من عهد ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ فانتقم الله تعالى منهم؛ بأن أغرقهم ﴿ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ الذي هو البحر ﴿ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ وذلك لتكذيبهم بآيات الله تعالى التي عرفوها واعترفوا بها، ولكن تغافلوا عنها، وتركوا الاعتبار بها؛ وكأنها لم تكن شيئا، وذلك من شدة كبريائهم. وفي هذا ما يدل على خطورة الكبر، إذ حال بينهم وبين ما عرفوا من الحق، بل شهدوا لموسى بذلك ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ مما يبين خطورة الكبر على تفكير وتصرفات الإنسان. مما يُوجب الحذر منه.

ومن دقة البيان أن الله تعالى تدرج في وصفهم بما يناسب حالهم، فبعد أن أخذهم بالسنين ونقص الثمرات، وتطيروا بموسى ومن معه، وصفهم الله تعالى بقوله ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ مما يفيد أن القليل منهم يعلمون، ولكن أطماع الدنيا غلبت عليهم، فجعلتهم يعمدون إلى مجاراة الباطل. وقد انتفى جهلهم بحدوث الآيات المفصلة المتتابعة. وبعد أن أرسل الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع، ولم يرجعوا عن

استكبارهم، انتقل وصف الله تبارك وتعالى لهم إلى أنهم مجرمين ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ فنقل وصفهم من عدم العلم إلى الإجرام، الذي يبين تماديهم وتغطرسهم مع ما أصابهم، وما علموا به جميعاً من صدق نبوة موسى ورسالته، وأنها من الله تعالى، ثم في التي بعدها نقل الله تبارك وتعالى وصفهم إلى التغافل، الذي يبين شدة الاستهتار والاستهزاء ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ وذلك لتغافلهم عن آيات الله تعالى التي عرفوها، وأيقنوا بها، ولكن تغافلوا عنها، وتركوا الاعتبار بها؛ وكأنها لم تكن شيئاً، وذلك من شدة كبريائهم وتغطرسهم في الباطل. وهذا من عظيم حلم الله تعالى الذي ظهر في تعامله عَزَّ وجل معهم، وكذلك عظيم البيان في تدرجه.

فلقد ابتلى الله تعالى فرعون وقومه بابتلاءات متنوعة متعاقبة، وهذا دليل على حِلم الله تعالى، إذ لم يعجل لهم العقوبة إلا بعد أن توالت عليهم الآيات والحجج والبراهين التي لا يجحدها إلا ظالم، كما دل نهج الله تعالى في كثرة آياته وحلمه على رحمته، فلم يُرِد لهم العذاب، ولكنهم أرادوه لأنفسهم، واختاروه طواعية. كما أن في نهج الله تعالى ما يعلم المسلم أن عليه أخذ ابتلاءات الله تعالى التي تصيبه بجدية، وفهم وتمعن، وأن يفتش عن حاله، وما كان عليه قبل الابتلاء، ليقف على دواعي ما أصابه، ثم يقوم بإصلاح حاله، ويؤوب إلى الله تعالى ويرجع إليه بالتوبة والطاعة، والاستغفار والخضوع له عَزَّ وجل.

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾﴾

يخبر الله تعالى أنه بعد أن أهلك فرعون وقومه بإغراقهم في البحر الذي فَرَقَهُ عَزَّ وجل لموسى عليه السلام ومن معه من بني إسرائيل، فتجاوزه موسى عليه الصلاة والسلام والذين معه، وقد تعقبهم فرعون لقتلهم، فانطبق البحر على فرعون وجنوده، فأهلكهم الله عَزَّ وجل أجمعين، بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى، وتغافلهم عنها، وكأنها لا تعني لهم شيئاً. ثم أورث الله تعالى أرض فرعون وقومه لبني إسرائيل ﴿وَأَوۡرَثۡنَا

ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ فهو الذي نصر سبحانه وتعالى، وهو الذي هزم، وهو الذي أهلك، وهو الذي أعطى، وهو الذي أَعَزَّ ويُعز، فأعزهم بعد أن كانوا مستضعفين ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ بعد أن كانوا مستضعفين عند فرعون، يُقَتِّلُ أبناءهم، ويستخدم نساءهم، ويُسَخّر رجالهم لأعمالهم ومهنهم، فسبحانه الله الْمُعِز لمن يشاء والمذل لمن يشاء، فهو الملك القدوس العزيز الحكيم، فقد أعطاهم بسخاء ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ قيل هي مشارق الشام ومغاربها، وقيل هي مشارق أرض الشام ومصر، وقيل هي على الاطلاق، في شرق الأرض وغربها(١) قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والظاهر أنهم ورثوا أرض القبط(٢) وأشار شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله إلى أنها أرض الشام، فإن الله تبارك وتعالى أخبر أنه بارك في أرض الشام في آيات، ومنها هذه الآية(٣) ولعل المقصود بمشارق الأرض بلاد الشام، ومغاربها بلاد مصر. فمصر غرب الشام، والشام شمال شرق مصر.

وقد وصف الله تعالى الأرض التي أورثها بني إسرائيل بالبركة ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ مما يدلل على أن الله تعالى وضع في أرضها بركة خاصة منه لها سبحانه وتعالى، ثم يبين الله عَزَّ وجل الوفاء بما وعد به بني إسرائيل، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وكذلك قوله لهم ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ فيحقق الله تعالى لكم ما وعد به ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ فقد أمضى الله كلمته وحكمه وإرادته لبني إسرائيل، وقد وصف الله تعالى كلمته بصفة الحسنى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وذكر ابن جرير وغيره من أهل التفسير أن كلمة الله الحسنى هي قوله تعالى في سورة القصص ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧١/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٣/٧)

(٣) ابن تيمية، الفتاوى (٣٢/١٥)

ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[1] فقد وصفها جَلَّ جلاله بالحسنى، فإنها امتلأت حسناً في معناها وفيما قضى الله تعالى به، فهي تعني الحسن في الكمال والإرادة والقضاء، إذ أمضى الله بها الحق والعدل والنصر لموسى ومن معه، والهزيمة للكفر والكافرين، فكانت العاقبة هي الحسنى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي فاضت حسناً في الحكم والقضاء، وحُسناً في التدبير والفصل، وتحقيق النصر لموسى عليه السلام ولمن آمن معه، والهلكة لفرعون ومن معه، الذين مثلوا الكفر والكافرين.

وقد خصص النص الكريم الذين وقعت لهم كلمته الحسنى بالذكر، وهم بنو إسرائيل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ فرفع الله تعالى من شأنهم لقاء صبرهم على طاعته أمام طغيان وجبروت فرعون وقومه. مما يبين أن عاقبة الصبر فوز ونجاح ونجاة وانتصار. وشملت الكلمة الحسنى تدمير فرعون وقومه ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ فأهلك الله تعالى ما كان يعمره ويبنيه وينشئه فرعون وقومه من العمارات والقصور، وكذلك ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ أي: ما كانوا يبنونه ويشيدونه من عريش للأشجار والجنان التي يرفعون عليها أشجارهم ذات التمدد، كالعنب وغيره. وجميعها تدل على الإهلاك من الله تعالى لهم ولما كانوا يصنعون. مما يفيد أن القوي من المخلوقين بالباطل هو عند الله ضعيف حقير إذا أراد إهلاكه وتدميره عَزَّ وجل، وأن الضعيف قوي عند الله تعالى إذا أراد رفعته وتمكينه ونصرته، فلا يعجزه شيء سبحانه وتعالى، وفي هذا تربية نفسية وإيمانية للمؤمن، وتهذيب لأخلاقه وتعامله إذا أدرك المقاصد والمعاني من هذا القصص. كما أن في ذلك تقوية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتعزيز للمؤمنين بشد عزيمتهم نحو الأمل، والصبر على ما يجدون من قومهم، وقد حقق الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين النصر، ومكنهم الأرض التي كانوا يستضعفون فيها، كما مَكَّن موسى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين.

وفي قوله تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مخاطبة من الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، فالكاف ضمير يعود للمخاطب ﴿رَبِّكَ﴾ وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، مما يفيد التنويه بأنه كما تمت كلمة ربك الحسنى بنصرة موسى عليه الصلاة والسلام، وهزيمة قومه، فإن الله تعالى ينصرك ويعلي شأنك، ويهزم من يعاديك، ففي ذلك بيان لقدرة الله تعالى ونصره لنبيه صلى الله عليه وسلم. كما أن في هذا

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٤٠٦)

إرشاد للمؤمنين، من أن الله تعالى نصر بني إسرائيل بعد أن كانوا مستضعفين، وأورثهم الأرض التي بارك الله فيها، وأصبحوا سادتها لقاء صبرهم على طاعة الله تعالى، وصبرهم على مواجهة أذى وظلم فرعون، فإن في ذلك موعظة وأسوة لكم، لتصبروا على دينكم، وعلى مواجهة وأذى أقوامكم وأعدائكم، لتكون لكم العاقبة كما كانت لبني إسرائيل. ففي ذلك توجيه بالأحداث وما فيها من عبر، للاقتداء والامتثال.

ثم يبين الله تعالى حال بني إسرائيل بعد هذا النصر والوفاء بما وعدهم الله تعالى ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ أي: قطعنا بهم البحر، فتجاوزوه بِالْبُعْدِ عنه إلى الأرض، فتحققت لهم السلامة والنجاة، وقد نسب عَزَّ وجل فعل المجاوزة وتحققها له سبحانه وتعالى ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾ فهو الذي جاوز بهم البحر، بانفلاقه حتى عبروه، فَمَكَّنَهم من النجاة، ليعرف المؤمن أن تسخير وتسهيل الأسباب لله تعالى وحده لا شريك له، كما قال تعالى في سورة الأنبياء عندما نجى ذا النون ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ فكما نَجَّى اللهُ تعالى ذا النون من بطن الحوت كذلك يُنَجِّي سبحانه وتعالى المؤمنين، فقد جاوز الله تعالى ببني إسرائيل البحر، لتحصل لهم النجاة، ويهلك عدوهم، بتدبير حكيم من القوي العزيز.

ثم في طريقهم يمرون بقوم ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ أي: يعبدون أصناماً من دون الله تعالى، بل كان أولئك القوم ملازمون لعبادتها، لأن وصفهم قد ورد بأنهم ﴿يَعۡكُفُونَ﴾ مما يفيد الملازمة لعبادتها، لأن اعتكاف الشيء ملازمته. ومن دقة البيان أن نسب مُلك الأصنام لهم ﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ أي: يعبدون ما يملكون، فهو أمر عجيب أن يصنع الإنسان الشيء فيملكه، ثم يعبده، وهو تحت أمره وسلطانه، إن شاء حطَّمَه واستبدله، وإن شاء أبقاه، فهو جهل، بل انتكاس في الفكر.

فطلب بنو اسرائيل من نبي الله موسى طلباً عجيباً؛ بالرغم مما مَرَّ بهم من الأحداث والآيات العظام ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ فنادوا نبيهم وهو معهم ﴿يَٰمُوسَى﴾ من أجل أن يصغي إليهم، ويتنبه لمطلبهم وقولهم، الذي يعبر عن أهمية ما سيذكرونه له على حد زعمهم. فطلبوا من نبيهم عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم معبوداً مثل هؤلاء، مما يدل على تأثرهم بما رأوا من عَبَدَة الأصنام، كما يدل هذا الأمر على أن الإنسان مُعَرَّض للفتن، فقد يُفْتَن بالضلالات التي في طريقه إذا لم يلتزم جادة الحق. فكأنما أصابهم عند فرعون، ونجاتهم من البحر، وإغراق فرعون وقومه غائبة عنهم، وكذلك ما رأوا من عصا موسى عليه الصلاة والسلام، وما أصاب القوم من الطوفان والضفادع والقمل، وكأنها آيات لم تؤثر فيهم، مما يبين أن الإنسان جهول، ظلوم كفَّار، إلا من عصمه الله تعالى، لتظهر حاجتهم للمتابعة في إصلاح النفس، وسؤال الله تعالى

العون والتثبيت، فقال لهم كليم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام ما ذكره وبينه تبارك وتعالى ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ فلقد وصفهم بجميع مجامع الجهل، فإنكم تجهلون عظمة الله تعالى، وتجهلون واجب حقه عليكم، وتجهلون توحيده، من أنه لا يُعبد سواه عَزَّ وجل، وتجهلون جهل هؤلاء المشركين، فقد تَعَجَّب من قولهم بعد تلك الآيات العظيمة التي مروا بها، فوصفهم بالجهل المطلق ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ زجراً وإبعاداً لهم عن هذا الطلب، وعن هذا التفكير الكفري، مع بيانه خطأ القوم الذين كانوا يعكفون على عبادة تلك الأصنام.

ثم بين لهم نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام حكم صنيع هؤلاء الكفرة الذين يعبدون الأصنام ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فهؤلاء هالك ما هم فيه من العبادة، وزائل وفاسد، لأنه لا صلاح فيه. وفي هذه الإجابة بيان لعلة وصفهم بالجهل، لأن هؤلاء هالك ما هم فيه من العمل، ومضمحل وزائل، لأنه لا يتم منه شيء، بل باطل ضد الصلاح، وضد الصواب ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فما يعملونه من تصوير وتجسيد لمعبود يعبدونه، هو ذاهب ومضمحل لأنه باطل، لا ينتمي للحق والصلاح والصواب. بينما أنتم على المنهج الصحيح المستقيم، مما يدل على خطورة أثر الانحراف على الاقتداء والإعجاب بما يزينه الشيطان في ذلك، وكذلك يدل هذا الموقف على أهمية العالم بين الناس، ليكون الموجه والمصحح إذا فقد البعض الصواب. ومن الفوائد التربوية والدعوية أهمية بيان علة الوصف، وعلة النهي، لأنها أدعى لترسيخ الحق وتثبيته، فضلاً عن التعليم وتأصيله.

ثم بعد بيان حقيقة طلبهم، وحقيقة الأصنام، والقوم الذين يعبدونها، انتقل بهم تعليماً إلى توحيد الله تعالى، فبدأ بنقض طلبهم، من خلال سؤال استنكاري يحمل التعجب من طلبهم وحالهم، بأن يجعل لهم إلهاً غير الله تعالى، فيقرر في سؤاله الاستنكاري توحيد الله تعالى ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾ أتريدون أن أتخذ وأطلب لكم إلهاً غير الله تعالى؟ كيف أطلب لكم غير الله تعالى إلهاً تعبدونه وهو الذي أنعم عليكم بإنعامه وفضله وتفضيله لكم على العالمين ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فقد فضلكم على أهل عصركم بما أنعم عليكم من انتشالكم من إذلال فرعون لكم، ثم أورثكم الأرض المباركة، فأعزكم ورفعكم على أهل زمانكم، ثم فَنَّد لهم بعض فضل الله تعالى عليهم، تذكيراً وتعليماً ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ فقد أنجاكم الله تعالى من إذلال فرعون لكم، فقد كانوا يُعَذِّبُونَكم أشد العذاب، يقتلون أبناءكم، ويستأثرون بإبقاء نسائكم لاستخدامهن في الخدمة، وإن فيما أصابكم ثم نجاتكم كان ابتلاء لكم واختباراً

من ربكم عظيم، مما يفيد وجوب الانتباه ولزوم الطاعة، وذلك بتعظيم الله تعالى، وتوحيده وشكره على ما أفاض عليكم من الخير. ومن جميل البيان وجميل الأسلوب أن بدأ النص الكريم بالعموم ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ثم تلاه البيان التفصيلي المتدرج بالتفنيد ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ مما يفيد أهمية أسلوب التذكير، وأسلوب التدرج في التفصيل بعد التعميم.

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ
لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا
وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ
مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ
سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ
بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن
كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ
ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

يخبر الله تعالى بما امتن به على موسى عليه الصلاة والسلام بتكليمه، وعلى بني إسرائيل بالهداية، وإنزال التوراة على موسى، المتضمنة لتفاصيل شريعتهم ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ فقد واعد الله تبارك وتعالى موسى ثلاثين ليلة، فأمره الله تعالى أن يكملها بعشر ليال أخرى، لتصبح أربعين ليلة، حِكمَة من الله تعالى ﴿فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ فتم الميقات المضروب لموسى كليم الله تعالى، ووجه موسى أخاه هارون لخلافته ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فأمر أخيه بثلاثة أمور: الأول: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ أن يخلفه في قومه الذين هم بنوا إسرائيل. والأمر الثاني: أن يصلح فيما يخلفه فيه

﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ أي: أصلح أمر بني إسرائيل، بحسن السياسة والتدبير. ومن دقة الوصية، أن نسب موسى نفسه إليهم، أي إلى بني إسرائيل ﴿ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ وذلك لرفع مستوى من يهتم بهم، ولبيان قيمة المأمور به وبهم ﴿ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ فأكد بهذا الأمر أهميتهم ومنزلتهم من موسى عليه الصلاة والسلام. والأمر الثالث: النهي عن ضد المأمور به ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ بما يفيد التأكيد على الأمر الأول والثاني، أي: لا تسلك معهم طريق المفسدين فيما تخلفني فيه؛ وهم الذين يفسدون الصالح، فيتحول من صلاح إلى فساد، ويقفون أمام الإصلاح.

وهذا التوجيه من موسى لأخيه قبل أن يتوجه عليه الصلاة والسلام إلى مكان مناجاة ربه تبارك وتعالى، مما يفيد أهمية الاستخلاف، سواء في الإمارة، أو الإدارة، وأهمية التنظيم، وأهمية التعليمات، وبيان المنهج الذي يجب أن يسير عليه من يخلف وينوب، وكذلك بيان منزلة الأمر ومكانته وأهميته، مما يدل ويفيد على أن كل مجموعة، وكل أمة لا يحسن أن تكون بلا أمير حتى وإن كان في شأن مؤقت. وذلك لأهمية الإمارة، إذ لا يستقيم أمر الجماعة إلا بها، وقد قال صلى الله عليه وسلم (إذا كان ثلاثة في سفر، فليؤمروا أحدهم)[1] مما يدل على أهميتها، وأن الأمة لا يستقيم أمرها إلا بأمير عليها. ومن بلاغة البيان التوجيهي من موسى لهارون أنه تضمن أمراً ونهياً، فكان الأمر بجملة مقتضبة، ولكنه كان جامعاً ﴿ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ﴾ وأما النهي ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فكان كذلك بجملة مقتضبة، تضمنت النهي عن كل فساد، هو كل عمل يتنافى مع الصلاح.

ثم قال تعالى عن مجيء موسى للميقات ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ أي: عندما جاء في الوقت والمكان المحدد بالتمام ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ أي: أسمعه الله تعالى كلامه، وهذا فضل عظيم، ومنقبة كريمة شريفة وعظيمة القدر والمنزلة، وهنا طلب موسى طلباً ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ فقطع الله جَلَّ جلاله طمع موسى في رؤيته عَزَّ وجل، بقوله له جَلَّ جلاله ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ فإن للحظوة التي وجدها موسى من الله تعالى دفعته نحو هذا الطلب. فرد الله تبارك وتعالى عليه بقوله عَزَّ وجل ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ لن تتمكن من رؤيتي. وفي هذا قطع لما طمع فيه موسى عليه السلام من رؤية الله تبارك وتعالى، وذلك بنفي وقطع تحققه، فإن الله تعالى أعظم من أن يراه العبد في الدنيا، فالإنسان لم يتهيأ لذلك، إذ لم يتهيأ هذا الإنسان لجلال الله

---

(1) أبو داود، السنن، (٨١/٣) برقم (٢٦٠٩)

تعالى وعظمته سبحانه عَزَّ في علاه وهو نبي ورسول، ولكن الله بحكمته ورحمته علل عدم تحصيل هذه الرؤية بموقف مشاهد عظيم، إكراماً لموسى عليه السلام، ولدفع ما قد يتوهم غيره من تقليل منزلته وحظوته، أو من غضب عليه، وكذلك لتعليم العباد وتعريفهم بعظمة جلاله سبحانه جَلَّ في علاه، فقال تعالى ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ انظر لحال الجبل كيف يكون حين يتجلى الله تعالى له ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ فإن استطاع الجبل على ثقله وكبر حجمه ورساوته أن يتحمل جلال الله تعالى وعظمته ونوره عَزَّ وجل فسوف ترى الله تعالى، ليبين لموسى عليه السلام أن المنع هو نتيجة عدم قدرته على تحمل جلال وبهاء ونور وعظمة رؤية الله سبحانه وتعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ فلم يتحمل الجبل نفسه من جلال وبهاء الله تعالى وعظمته ونوره، على الجزء الذي رأى مما تجلى له من الملك القدوس العزيز الحكيم، وهو قدر الخنصر، فعن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عَزَّ وجل ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ فأومأ بَخَنْصِرِه، قال: فساخ[١] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر[٢] فالذي تجلى من الله تعالى قدر الخنصر، فلم يتحمله الجبل الشامخ الراسي في ضخامته وقوته، فكيف بموسى عليه السلام، الذي أُغشي عليه من رؤية حال الجبل. فكيف لو رأى موسى ذلك القدر، وكيف لو رأى الجبلُ قدراً أكبر من ذلك، فسبحان الله العظيم، نور السماوات والأرض. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فلما اطَّلع الرَّبُ للجبل، جعل الله الجبل ﴿دَكّٗا﴾ أي: مستوياً بالأرض ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ يعني: سقط مغشياً عليه، لأن الصعق بمعنى الغشي بسبب هول وقوة شيء لا يتحمله. وعن الربيع: أن الجبل حين كُشف الغطاء، ورأى النور، صار دكًّا من الدكاك. وعن مجاهد: فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل يندك عن أوله، فلما رأى موسى ما يصنع الجبل خر صعقاً[٣]

ثم يبين الله تعالى ما حصل لموسى عليه السلام بعد أن أغشي عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ والإفاقة لا تكون إلا بعد الغشي، مما يبين أن الصعق هو الغشي ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ فغُشي على موسى من هول ما رأى من حال الجبل، فبادر بتنزيه الله تعالى والثناء

---

(١) أحمد، المسند (٤١١/٢٠) برقم (١٣١٧٨)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٥/٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢٧/١٠-٤٣٠)

عليه ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ سبحانك أن أسألك بمثل ذلك، وسبحانك في عظمتك وجلالك، وسبحانك في بهائك ونورك، ثم بعد التسبيح والتنزيه والتمجيد أردف ذلك بالتوبة مما طلب من رؤية الله تعالى ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ قال مجاهد: أن أسألك الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل[1] أي تبت إليك من سؤالي رؤيتك يا رب، وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل أنه لا يراك أحد. وعن ابن عباس: أنه لا يراك أحد، وكذا قال أبو العالية، قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة، وهذا قول حسن له اتجاه[2] وتفيد كذلك المبالغة في حقيقة الإيمان والمبادرة إليه من غير تردد ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فسبحان من استجمع كلامه جميع دلالات البيان في أوجز ما يكون السياق.

وذكر الله تعالى بأنه خاطب موسى، ممتناً عليه بما خصه من الفضل ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فلقد اصطفاه سبحانه وتعالى بتخصيصه واختياره من بين غيره من الناس برسالته سبحانه وتعالى، وبما تضمنته التوراة من تشريع، وكذلك بتكليمه عَزَّ وجل لموسى عليه الصلاة والسلام، ومن لطف الله تعالى أنه خاطب موسى عليه السلام بياء النداء ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ لما في ذلك من التأنيس، ودفع الخوف الذي أصابه من رؤية اندكاك الجبل، ثم أوضح وبين له كريم حظوته عنده سبحانه وتعالى من الاهتمام والاصطفاء والاختيار للنبوة والرسالة ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ فهذا الاصطفاء يحمل دلالة المكانة والمنزلة والتفضيل على الغير، ثم بعد بيان هاتين الخصيصتين الجليلتين، والمنقبتين العظيمتين يوجهه تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فخذ ما آتيتك وأعطيتك من النبوة والحكمة، ومن الكلام والمناجاة والتوراة وما أنعم الله تعالى به عليه، وكن من الشاكرين على ذلك الفضل. وذكر الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في ترتيب فضل الأنبياء أن محمداً صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم من الأولين والآخرين، ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٥٥)

(٢) المرجع السابق (٢/٢٥٥)

خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع الأنبياء كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل، ثم موسى بن عمران، كليم الرحمن عليه السلام[١]

وفي ذكر الله تعالى لموسى هذا الامتنان ما يعلمنا أهمية استئناس المخاطب عند التكليف، وبيان علة الاختيار في التكليف، لبيان أهمية وفضل التخصيص، الذي يدفعه لسماع وأخذ الوصية والتوجيه باهتمام، فإذا كان هذا من الله تبارك وتعالى مع عبده، فإنه من باب أولى أن يكون بين العباد في تعاملهم.

ثم يخبر الله تعالى بما أعطى موسى من العلم والرسالة ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ فهذه الألواح هي التوراة، ذكر القرطبي رحمه الله تعالى أنها التوراة، وأن الألواح: زمرده خضراء، وقيل: ياقوته حمراء، وقيل: من زبرجد، وقيل من خشب، وقيل من صخرة صماء[٢]

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً ﴾ أي: كتب الله تعالى له فيها من كل شيء يحتاجه العباد موعظة يتعظون بها ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ وتفصيل البيان في كل شيء يحتاجونه من أمر الله تعالى ونهيه، في العبادة والعقائد والحدود والأحكام والأخلاق والحلال والحرام، مما يدل على كفايتها لهم.

ويأمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام بمنهجية الأخذ لهذه الألواح وما فيها ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أي: بجد ونشاط وطاعة وشكر لله تعالى، وفيها تأكيد على ما سبق في الآية التي قبلها ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ مع زيادة القوة في الآية الثانية ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ مما يدل على أن العلم والدعوة والأمر بالمعروف يحتاج إلى هذه المنهجية المتعلقة بذات الشخص، بأن يأخذها بقوة الاهتمام والأداء، وليس بالقوة في تعامله مع غيره، بل إن القيام بحقها يكون في جد ونشاط وطاعة وشكر لله تعالى. وأما في تعامله مع قومه فيكون بأمر الإرشاد لهم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي: أن تأمر قومك بالعمل بهذه الأوامر، وينتهوا عن النواهي. والأخذ بأحسنها، لأن ما أُمروا به هو الأحسن، فجميعه حسن قطعاً، فيلزمهم الأخذ بها، وأن ما نُهو عنه فهو نهي عَمَّا لا يحسن، فيلزمهم ترك واجتناب ما نُهوا عنه، لأن كتاب الله تعالى متضمن للأمر والنهي، فما أمر الله تعالى به فهو الحسن بكماله وتمامه، وما نهى عنه فهو نهي عن غير الحسن.

---

(١) المرجع السابق (٢٥٦/٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٩/٧)

وكلمة ﴿بِأَحۡسَنِهَا﴾ تفيد المبالغة في الحسن، فكلما رأيت توجيهاً من كلام الله تعالى استحسنته، ووصفته بالحسن، وفي هذا استدفاع وترغيب لهم بالأخذ بتشريعها وما فيها. كما اشتمل جمال التوجيه ودقته على الأخذ بها وترك التفريط فيها. ثم ينتهي التوجيه ببيان مآل من يعصيه، ويعصي رسوله ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ نقل القرطبي رحمه الله تعالى أنها منازل عاد وثمود التي يمرون عليها، والقرون التي أُهلِكُوا، وقيل: هي جهنم، وقيل: هي ديار فرعون بعد هلاكها[1] ولا يمنع أن يجمع النص الكريم ذلك كله، ففي الدنيا يرون دار الفاسقين من الأقوام التي كذبت الرُّسُل، وفي الآخرة يرون جهنم التي هي دار الفاسقين في الآخرة. وفي قوله تعالى ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ تتضمن جميع الفاسقين، بما يفيد تهويل الأمر والحث على الالتزام بمراد الله تعالى ورسوله عليه السلام، فَقَدَّمَ منهج الله تعالى الأسلوب الأمثل في التوجيه الذي يستنبط منه الداعية والموجه والمعلم والقائد منهجية الأسلوب المؤثر، وآدابه، ومجرياته، وترتيبه وتسلسله.

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾

يخبر الله تعالى عن عقوبته لمن يتكبر على آياته وحججه ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ فعقوبة المتكبرين عن طاعة الله تعالى أنه عَزَّ وجل يُبعدهم ويصدهم ويحول بينهم وبين فهم أدلته وحججه تبارك وتعالى والإيمان بها، وعن نفعها والانتفاع بها، وذلك مجازاة لتكبرهم على الإيمان واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، واستعظامهم لأنفسهم بغير حق، وهذا من شناعة أنفسهم، ومن تشنيع وصفهم، فكان جزاؤهم بمثل أسلوبهم ومن نفس منهجهم، فكما امتنعوا وانصرفوا عن آيات الله تعالى يُبعدهم الله تعالى ويصرفهم عن الانتفاع بآياته، مما يفيد أهمية التواضع لله تعالى ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وعدم الاستعلاء أو التفاخر، فإنها تحول بين المتكبر وبين أوجه الخير والنفع، وقد ذم الله تعالى التكبر والمتكبرين في مواقع كثيرة من كتابه العظيم، وفي هذا تحذير لغيرهم من مسلكهم، وتوبيخ للمتكبرين، وبيان لعقوبته التكبر على آيات الله تعالى.

---

[1] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٩/٧)

ومن صفات هؤلاء المتكبرين قوله تعالى ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ وإن يروا حجج الله تعالى لا يؤمنون بها، ولا يلتفتون إليها، فيعرضون عنها إعراض تكبر، بالرغم من معرفتهم لحجيتها وقوتها، ولزوم الإيمان بها، مما يدل على خطورة الكبر، فإنه يستعلي بالنفس عن الانقياد للحق الذي بان وظهر لها. ومن صفاتهم كذلك قوله تعالى ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ وإن شاهدوا وعاينوا وتيقنوا طريق النجاة الذي هو الرشد، لا يسلكونه، بل يبتعدون عنه، ويسلكون ما هو ضده، والصفة الأخرى لهم كما قال تعالى ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ وإذا رأوا طريق الفساد والهلاك الذي هو الغي، لزموه واتخذوه وسلكوه طريقاً لهم، ومنهجاً يسيرون فيه. وعلة هذا الاتجاه هو ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ فبسبب تكذيبهم لآيات الله تعالى وحججه وبراهينه انصرفت قلوبهم وعقولهم وأذهانهم عن الحق؛ فغفلوا عن الاهتداء به، وانصرفوا انصراف من يغفل عنها، بسبب تعاظمهم في أنفسهم على الحق. مما يفيد أن الاستكبار يؤدي إلى جحود الحق ونكرانه. اللهم إنا نعوذ بك من الكبر والتكبر، ونسألك أن تتولانا بهدايتك وجميل وحُسن الخاتمة.

ثم يوضح الله تعالى مصير أعمال المكذبين ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فالذين كذبوا بآيات الله تعالى ومنها الرسل والكتب، وغيرها من الحجج والبراهين، ويكذبون بلقاء الله تعالى في الآخرة؛ فإن أعمالهم باطلة، لفقدانهم الإيمان، فلا وزن لها عند الله تعالى، ولا ينتفعون بها، لأنهم كفروا فلا يرجون بها ثواباً عند الله تعالى. ثم يختم الله تعالى ذلك بسؤال تقريري، يقرر فيه ما يستحقون ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أفلا يستحقون إلا بما كانوا به يعملون؟ فهل يجزون بغير ما عملوا؟ فالجواب: أنهم لا يستحقون إلا بما يماثل أعمالهم. فإذاً هذا تقرير يُجِيبُ عليه كل عاقل: بأن الله تعالى لم يظلمهم، بل وفَّاهم ما يستحقون من الجزاء.

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ

ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن الذي حدث من قوم موسى، أي من بني إسرائيل عند خروج موسى إلى الطور للقاء ربه تبارك وتعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ أي: بعد خروج موسى عليه السلام إلى الطور اتخذ قوم موسى ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ أي: من بعض حليهم التي استعاروها من القبط قبل حدوث الغرق ﴿ عِجْلًا ﴾ وهو ولد البقر ﴿ جَسَدًا ﴾ وهو صف للعجل بأنه على شكل جسد ﴿ لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ له صوت البقر. وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أن السامري اتخذ من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً له خوار، والخوار صوت البقر، وكان هذا منه بعد ذهاب موسى لميقات الله تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك، وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة في سورة: طه ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴾[1] ووجُود الصوت للعجل الذي صنعه السامري دليل على أنه مجوف، فيدخل فيه الهواء، قال الزجاج: والجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز، إنما هو بمعنى الجثة فقط، وقال ابن الأنباري: ذِكر الجسد، دلالة على عدم الروح منه، وأن شخصه شخص مثال وصورة، غير منضم إليهما روح ولا نفس[2]

فينكر الله تعالى عليهم ضلالهم بهذا العجل الذي اغتروا بتشكيله، وحدوث الصوت منه ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ وهذا استفهام استنكار، كيف يُفتنون بجسد لا يتكلم ولا يهدي، مما يفيد كذلك أنه استفهام توبيخ وتقريع، ألم يروا ببصيرتهم، وبأعينهم أنه لا يستطيع أن يتحدث إليهم، ولا يستطيع أن يدلهم على أي طريق يتخذونه من الخير والصلاح. مما يؤكد أهمية القياس العقلي، وأهمية التفكير، فإنه بمجرد التفكير الصحيح يتأكد لهم أن من هذه صفته لا يمكن أن يكون إلهاً يُعبد، فيرجون منه خيراً، أو يدفع عنهم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٥٧) ملخص

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٧٧)

شراً. فإن اتخاذهم له معبوداً من دون الله تعالى ظلم لأنفسهم ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: اتخذوه إلهاً فكانوا ظالمين لأنفسهم بهذا القرار، وظالمين للحق والحقيقة، فهو اتخاذ ظالم من كل وجه.

ثم يبين الله تعالى حالة نفوسهم من الندم على ما صنعوا ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: لما ندموا على ما فعلوا، وقد ورد السقوط من غير ذكر الفاعل، لإظهار عظيم ما سقط في نفوسهم من الحسرة والندم، فالسقوط بمعنى الندم، لأنه يقال للنادم: سقط في يده، فكأنهم سقطوا في أيديهم، فلم تعد لهم قوة تحملهم من شدة الندم، فلما اشتد ندمهم وحسرتهم، وسقط الندم والحسرة في قلوبهم، أخذوا يتوسلون الله تعالى أن يرحمهم ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وهذا بعد أن عاد موسى إليهم، وعاتبهم، وعَلَّمَهُم، وأحرق العجل فعرفوا أنهم قد وقعوا في معصية الله تعالى ﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾ أي: فعرفوا واكتشفوا أنهم قد ضلوا باتخاذهم العجل، ووقعوا في معصية الله تعالى ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وهذا انكسار وتوبة منهم لله تعالى، واعتراف منهم، وأدركوا عظيم خطئهم، فجعلوا وحصروا نجاتهم في حصول رحمة الله تعالى فقط، ثم حصول مغفرته لهم عَزَّ وجل، فإن لم يتحقق ذلك لهم من الله تعالى، سوف تتحقق لهم الخسارة العظيمة، بأن يدخلوا ضمن الخاسرين ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وفي هذا تعميم لنوع الخسارة، لتشمل خسارة الدنيا والآخرة.

ويذكر الله تعالى حال وموقف موسى وتعامله مع قومه بعد عودته من الطور، إذ وجدهم يعبدون العجل ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ أي: كانت حالة موسى لما عاد إلى قومه ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ قال أبو الدرداء رضي الله عنه: الأسف منزلة وراء الغضب، أشد من ذلك. وتفسير ذلك في كتاب الله تعالى: ذهب إلى قومه غضبان، وذهب أسفاً[١] وقيل الأسف: الحزن والغضب معاً، وقد يقال لكل واحد منهما على الانفراد[٢] فاجتمع في حال موسى عليه السلام أمران عظيمان، الأول: الغضب، والثاني: ما هو أشد منه، وهو الأسف، الذي هو الحزن والألم الشديد على ما كان من قومه، ومن رحمة الله تعالى أن أخبره قبل وصوله لقومه، لأنه لو شاهد الأمر وعاينه قبل معرفته المسبقة لربما كان حاله أعظم من ذلك، مما يفيد أن في إخبار الله تعالى له قبل وصوله إلى قومه هي رحمة به من عدم هول المفاجأة التي لا يحتملها. ثم من فوائد ذلك

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٤٥٠)

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (١٧)

أن الإنسان قد يحصل على نعمة، وقد يردفها ويعقبها ابتلاء، وكل ذلك لحكمة من الله تعالى، مما يفيد أن الأنبياء يبتليهم الله تعالى في أقوامهم، فكيف بمن هو دونهم من الخلق، فإن لله تعالى حكمة ومشيئة عظيمة لا تدركها عقول الخلق.

فيخاطب موسى قومه ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيَ﴾ فخاطبهم بوصف عملهم وفعلهم من صناعة العجل وعبادته بأجمع وأقوى صفات الذم ﴿بِئْسَمَا﴾ فهي في كلام العرب مستوفية لتمام الذم، وأوقع موسى عليه السلام الذم على عملهم، وعلى ما خلَّفوه، وعلى ما أوليتموني بهذا الفعل من بعد ذهابي عنكم، وبما أوقعتموه في ديننا من الشرك، وكلمة ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾ إشعار لهم بأنهم أوقعوا به في أنفسهم، وأن هذا العمل متعدي عليه في دينه ورسالته وما أمره به ربه عَزَّ وجل، فلم تَخْلِفُونِي بما أحب منكم، بل أخلفتموني بأشد ما أكره. وجملة ﴿مِنْ بَعْدِيَ﴾ تفيد من بعد ذهابي عنكم، فبدلتم بعدي ضد ما رأيتم مني، وما كنتم عليه معي، وما تعلمتموه من توحيد الله تعالى، والإخلاص له جَلَّ جلاله، ونفي الشركاء عنه، وتقرير العبادة له وحده لا شريك له، ثم لغيابي عنكم تصنعون معبوداً تعبدونه من دون الله تعالى، خاصة وقد سبق المرور على القوم الذين يعكفون على أصنام لهم، وأوضح لهم موسى عليه الصلاة والسلام بطلان ذلك، فأخلفوا موسى عليه السلام بأمر كان مستبعداً جداً، وبما لم يتوقع ذلك منهم، مما يفيد أن الإنسان في أمس الحاجة إلى شدة التمسك بالدين، والالتجاء إلى الله تعالى بسؤال الثبات، كما تظهر الحاجة الدائمة للعلماء والقدوات الصالحة، وهي حاجة لا تنفك عن الإنسان.

ثم يؤنبهم موسى عليه السلام على فعلهم ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ والعجلة مسابقة الشيء والتقدم عليه قبل وقته، أي: أنكم استعجلتم سخط ربكم عليكم، وسبقتم ميعاد ربكم الذي وعدنيه، وهي الأربعين ليلة، ففعلتم وصنعتم ذلك العجل، وفي هذا تهديد وتقريع وذم شديد لصنيعهم، ففعلكم هذا استعجال منكم لأمر الله تعالى. بما يفيد أن هذا الاستعجال يتحقق به السخط والعقوبة العاجلة. ومن شدة ألم موسى عليه الصلاة والسلام وغضبه مما حصل من قومه، أن ألقى الألواح من يديه غضباً على قومه ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ وفي إلقاء الألواح دليل على قوة تأثره وغضبه عليه الصلاة والسلام.

ثم توجه إلى أخيه هارون بالعتاب ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: فبعد عتاب قومه، ألقى الألواح غاضباً، ثم توجه موسى عليه السلام إلى أخيه هارون، وخصَّه بالعتاب، فبدأ عتابه بدلالة من اللطف ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أي: أمسك برأس أخيه، ولعل في مسك شعره أو رأسه ما يجتمع فيه بين اللطافة وبين قوة العتاب، فمع شدة الغضب الذي وصل إليه موسى حتى ألقى الألواح من شدة هول ما أخلفه قومه،

إلا أنه تمسَّك بأعلى قمة الأخلاق والأدب مع أخيه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي بلحيته وذؤابته، وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين، صلوات الله وسلامه عليهما. وأن ذلك متعارفاً عليه عندهم، كما كانت العرب تفعله من قبض الرجل على لحية أخيه وصاحبه إكراماً وتعظيماً، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال(١) وكون هارون أكبر من موسى عليهما السلام ما يبين أن القيادة والسياسة والإدارة وقوة التأثير ليست بالأكبر سناً، بل بما يهبه الله تعالى للعبد، وهذا يبين إعداد الله تعالى لمن يصطفيه رسولاً، وما يتميز به موسى عليه السلام من القدرات التي وهبها الله تعالى له. فكان من جليل أسلوب التعامل مع أخيه أخذه برأس أخيه ولحيته ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ مما يبين أهمية التلطف في العتاب، وتوقير الأخ لأخيه. وكيف يكون التعامل بينهما في الجانب العملي.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان جواب هارون لأخيه موسى عليهما السلام، مبيناً له ما يرفع عنه علة العتاب، فأفاده بما كان يحيط به من قومه ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ فأجاب هارون أخيه موسى عليهما الصلاة والسلام بنسق أدبي كريم ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ وهي جملة تفيد اللين والعطف، ليصغي إليه ويسترعي منه ما يقول من التوضيح، فيبين له مكانته ومنزلته منه ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ فبادله بنفس المشاعر الأخوية. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وقد كان أخاه لأبيه وأمه، وأن إضافته إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحد، وذلك أدعى إلى العطف والرقة، وأعظم للحق والواجب(٢) وهذا يدل على أهمية مراعاة الحقوق الأدبية، ويدل على أن الأنبياء يقدمون في منهجهم السلوكي أرقى أساليب الأدب والأخلاق، وأن في ذلك الأسلوب ما تَلين به القلوب، وأدْعَى إلى التفاهم بين الأخوين.

وجملة ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ هي جملة لين وعطف، ثم أوضح هارون حال وموقف قومه منه ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ فقومهما الذين عبدوا العجل استضعفوا هارون بعدم طاعته، فخالفوا أمره ونصحه لهم، مما يبين أنه لم يأل جهداً في وعظهم ونصحهم من أجل كفهم عَمَّا سوَّلت لهم أنفسهم من صنع العجل وعبادته، ولكنهم تطاولوا عليه حتى قاربوا قتله ﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ فأوشكوا على قتله، ولكن لم يفعلوا ذلك. مما يفيد أن هارون عليه السلام، قام بما يجب عليه، ولكنهم قد أُعجبوا بما اخترعوا من عبادة العجل، بما

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٤/٧)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١٥٨/٢)

يؤكد أن الإنسان مغرم بما افتتن به، ومحارب لمن ينصحه عَمَّا فُتِن به، مما يلزم الداعية والناصح الأخذ بالحكمة، وأن ليس عليه إلا النصح والإرشاد، وليس عليه تحقيق الهدف فيهم.

ثم يطلب هارون من أخيه موسى عليهما السلام أمرين ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فالأمر الأول: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾ فلا تعاملني بما يجعلهم يفرحون علي مما قد يحصل منك بي. لأن الشماتة: سرور العدو بما يصيب من يعاديه من البلاء والمصائب، ولذلك فإن مما تعوذ منه صلى الله عليه وسلم شماتة الأعداء؛ كما جاء في الحديث[1] والأمر الثاني: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لا تحكم عليَّ بما هو محكوم على الظالمين، فتعتقد أني تهاونت في الأمر، فكان مراد هارون متعلق بثلاثة أشياء، أن لا يظن به موسى أنه قد قصر فيما يجب عليه، فإنه أداه كما يجب، وأن لا يُفْرِح عليه أعداؤه الذين عبدوا العجل، وأن لا يحكم عليه بما هو محكوم على الظالمين، فمراده أن يرضى الله تعالى عنه، ويرضى أخوه موسى عنه، فلا يكون مع القوم الظالمين، الذين استجمعوا ظلم أنفسهم، وظلم الدين، وظلم الرسالة، وظلم الرسول، فيكون من الهالكين، فبادره موسى عليه الصلاة والسلام بما يَسُرُّهُ ويحقق مراده، ليزيل ما أهمه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فطلب من الله تعالى أن يغفر له ولأخيه، وهنا لم يخصص الدعاء لأخيه، بل جمع نفسه مع أخيه في طلب مغفرة الله تعالى، ليفيد أن حاجته لمغفرة الله تعالى كحاجة هارون، وأنهما سواء في هذه الحاجة، وليُظْهِر لأخيه المعية والصحبة، وأن كليهما مُعَرّض للخطأ والتقصير، ثم سأل الله تعالى أن يدخلهما في رحمته ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾ واصفاً الله تعالى بما هو أهله ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فأنت يا ربنا أرحم من كل رحيم، فليس هناك أرحم منك، فأدخلنا وتغمدنا برحمتك. وفي هذا مثال لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان مع غيره، وخاصة الأخ، وأن يقبل عذر من اعتذر، ويشعره بما يفيد قبول عذره، وأن يلتجئ إلى الله تعالى في ذلك، وفي كل أمر وشأن.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان عقوبة أولئك الذين عبدوا العجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فقد حكم الله تعالى على الذين اتخذوا العجل إلهاً بما يستحقون من غضبه عَزَّ وجل، الذي تحصل به عقوبة ما ينجم عنه من الجزاء الشديد، ومنها عقوبة الذلة والمهانة والصغار، مع الاستعجال لهم بها في الحياة الدنيا، لمعرفتهم الحق ومعاينة الآيات والحجج والبراهين التي

(١) مسلم، صحيح مسلم (٢٠٨٠/٤) برقم (٢٧٠٧)

مرت بهم، ثم يخالفون الحق ويعملون بضده من عبادة العجل، الذي هو أقصى أعمال الكفر[١] ثم يبين الله تبارك وتعالى أن هذا جزاء كل مفتري للكذب ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ فكل من يفتري باختراع الكذب في دين الله تعالى، وفي توحيده وتشريعه سيجازيه الله عَزَّ وجل ويعاقبه بمثل ما عاقب به هؤلاء المفترين ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ وفي هذا إنذار وبيان لكل من تسول له نفسه بمثل ذلك، من أن جزاؤه العذاب والمهانة والإذلال في الحياة، الدنيا فكيف بالآخرة، فنسأل الله تعالى السلامة.

ومن رحمة الله تعالى أنه يبين وينبه عباده الذين يعملون السيئات، أنه غفور رحيم للذين يتوبون من سيئاتهم ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فكل من اقترف خطيئة من الشرك والكفر وغيرها من الذنوب، ثم تاب من بعد فعله الشنيع، وآمن فإن الله تعالى من بعد ذلك يغفر ويرحم، وفي هذا ما يفتح باب التوبة والإنابة، والعدول والرجوع إلى الصواب، وهي نعمة من الله تعالى عظيمة جليلة، ولولا فضله لهلك الناس من كثرة معاصيهم.

وقد وجّه الله تبارك وتعالى الخطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد من بعد توبتهم عن أعمالهم السيئة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الذي يغفر ويرحم، فهو موصوف بصفة المغفرة والرحمة، ففي المغفرة ستر، وفي الرحمة فيض عطاء من الإحسان، وهذا زيادة عمَّا يستحق التائب. فسبحان الله تعالى الذي يقابل سيئات التائبين مهما عظمت بالمغفرة والرحمة المتضمنة لكريم العطاء وسعته. اللهم اغفر لنا وارحمنا يا أرحم الراحمين.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ
يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ
أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى
مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ
شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ

(١) وقد تناولت كتب التفسير تفصيل ما أصابهم من العقوبة والذلة، كالطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٣/١٠) والشوكاني، فتح القدير (٢٥٠/٢)

يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن حال موسى بعد أن سكت عنه الغضب ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ أخذ موسى الألواح التي رماها عندما غضب من صنيع قومه في أمر العجل، ومن عمق البيان في القرآن الكريم أن أطلق الله تعالى كلمة السكوت على توقف الغضب ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ فكانت صورة الغضب وكأنه فاعل قائم بذاته، يُغري ويؤثر، ويهيج ويسكن فيسكت. قال ابن منظور رحمه الله تعالى: والسكوت خلاف النطق[١] والسكوت مختص بترك الكلام[٢] ومنه السكتة في الصلاة، أن يسكت بعد الافتتاح، وكذلك السكتة بعد الفاتحة، مما يدل على صورة الغضب وكأنه ناطق، يستنطق الإنسان فيجعله يتكلم ويرد، ولذلك أرشد النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الذي قال له أوصني، فقال عليه الصلاة والسلام (لا تغضب) فردد مراراً، قال صلى الله عليه وسلم (لا تغضب)[٣] فللغضب قوة مؤثرة على الإنسان، مما يفيد أن بعض قوى أحوال النفس تسيطر على الإنسان ما لم يدفعها بالصبر والمجاهدة، وسؤال الله تعالى العون والتسديد، مما يدل على افتقار الإنسان لربه تبارك وتعالى في جميع أحواله، ومنها قُوى أحواله النفسية، ليدفع عنه شرها. فلما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح التي ألقاها ساعة الغضب، فإن أخذه لها كان حال سكوت الغضب، مما يبين قوة أثره.

ومن جميل البيان وعمق دلالته أنه نُسِب السكوت للغضب، ولم يُنسب لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ فالغضب هو الذي سكت وتوقف. ليفيد أنه ليس من عادته عليه الصلاة والسلام الغضب، فكانت حالة طارئة عليه. وفيه تمجيد لأخلاق موسى عليه السلام. وتنزيهه عما لا يليق به. وفيه كذلك ألا يُنْسَب للإنسان ما لا أُعْتِيد منه، مما يطرأ عليه من غير أخلاقه التي عُرِف بها. وفيه أن الإنسان قد يطرأ عليه ما ليس منه، أو غير ما أُعتِيد منه. وأنه ليس من العدل أن يُلصق بالإنسان ما يطرأ

(١) ابن منظور، لسان العرب (٤٣/٢)

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٢٣٦)

(٣) البخاري، الجامع الصحيح (١١٢/٤) برقم (٦١١٦)

عليه من تقلبات الأحوال الطارئة، ليعطي أن الإنسان مهما كان من علو المكانة والأخلاق قد يحدث منه غير ما أُعْتِيد منه إذا ظهر مُوجبه. ولا يُنسب إليه من باب الأدب والإنصاف والحقيقة. والسكوت هو لزوم الصمت وعدم النطق. والإمساك هو التوقف عن الكلام.

وقد ورد في صحيح البخاري رحمه الله تعالى قوله صلى الله عليه وسلم عن ناقته القصواء عندما توقفت ولم تتحرك على غير عادتها (ما حرنت القصواء، وما ذاك له بخلق)[١] قال ابن حجر: فيه جواز الحكم على الشيء بما عُرِف من عادته، وإن جاز أن يطرأ عليه غيره. فإذا وقع من شخص هفوة لا يُعهد منه مثلها لا يُنسب إليها[٢] فالخطأ يُنسب إلى صاحبه، ولا يُنسب هو للخطأ، وبهذا فلا يُوصف الإنسان بما يطرأ على تصرفاته من سلوك حميد أو ذميم، وإنما العمدة على ما أصبح له سجية، وطبعاً وعادة عُرِف بها. وإن كان الخطأ يُنسب إليه، ولا يُوصف به على أنه طبيعة له. وأما ما يتعلق بالعقوبات الشرعية، والحكم القضائي، فيأخذ مجراه وفق شريعة الله تعالى[٣] وهذا كله يبين ويوضح دقة منهج الله تعالى في إحقاق الحق، وكمال العدل حتى في الوصف.

ويخبر الله تبارك وتعالى بما تضمنته الألواح من الخير والفلاح ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ففي مضمونها هداية، إذ تهدي وتدل على الخير، ويتحقق لمن تمسك بها رحمة الله تعالى. ومن بلاغة القرآن الكريم أن جمع الخير الذي في الألواح في كلمتين عميقتي المعنى والدلالة، فالمكتوب في الألواح متضمن لأمرين عظيمين، الأول ﴿هُدًى﴾ والثاني: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ فالهدى متعلق بالدلالة على الخير، وقد جاءت كلمة ﴿هُدًى﴾ نكرة لتفيد عموم الهدى، فجمعت جميع مجامع الدلالات الموصلة للخير بأجمعه، والأمر الثاني الذي تضمنته الألواح أنها متضمنة للرحمة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وهو ما يتحقق به من الله تعالى لهم الرأفة والعطف، ومن المغفرة والخير في الدنيا والآخرة. فإن من ثمرات تمسكهم بالهدى يحصلون على الإنعام والإفضال والإحسان من الله تعالى. فمن تمسك بها فاز بخير الدنيا والآخرة. وقد ربط الله تعالى تحقق الانتفاع بذلك لمن اتصف بقوله عَزَّ وجل ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي: يخافون الله تعالى، لأن الخوف من الله تعالى يُلزم صاحبه التمسك بما جاء عن الله تعالى، والانتهاء عَمَّا نهى عنه عَزَّ وجل. ومن دقة البيان أن كلمة ﴿يَرْهَبُونَ﴾

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢٧٩/٢) برقم (٢٧٣١)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٣٣٥/٥)

(٣) خالد بن حامد الحازمي، أصول الأخلاق الإسلامية، ص (١٤٤-١٤٥)

تدل على الخوف مع التحرز، فتضمنت دلالتها التوقي من المعصية، والخوف من القوع فيها وتحصيلها. فهي جامعة للخوف والتحرز من الوقوع في المعصة.

ثم يُخبر الله تعالى عن اختيار موسى عليه السلام سبعين رجلاً من قومه للوقت والأجل الذي كان الله تعالى وعده أن يلقاهم فيه، للتوبة إليه مما فعلوا من أمر العجل[١] ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ ﴾ أي: اختار موسى من قومه، وقد حُذفت **(من)** لقول العرب: اخترتك القوم، أي اخترتك من القوم[٢] ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ أي: للوقت الذي حدده الله تعالى من أجل أن يتوبوا مما كان منهم من أمر عبادة العجل، فيدعون الله عَزَّ وجل أن يغفر لهم ويرحمهم.

وعند حضورهم في الوقت والمكان المحدد أرجف الله تعالى بهم الأرض ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَ ﴾ ففي المكان والوقت الذي حدده الله تعالى أصابهم فيه عَزَّ وجل بالرجفة، وهي: الزلزلة الشديدة للأرض، وكان فيما دعوا الله تعالى أن قالوا: اللهم اعطنا ما لم تعط أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، وقيل أنهم قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ وقيل غير ذلك[٣] وفي هذا تعدي في الدعاء، وتعدي في الطلب. وهنا قال موسى مناجياً ربه ﴿ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَ ﴾ قال السدي: قام موسى يبكي، ويقول: يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم، وقال الزجاج: لو شئت أمتَّهم قبل أن تبتليهم بما أوجب عليهم الرجفة ﴿ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ قال المبرد: هذا استفهام استعطاف، أي لا تهلكنا. والسفهاء هاهنا هم عبدة العجل[٤] وهو استفهام استعطاف وتضرع ودعاء طلب بأن لا يهلكهم بما فعل السفهاء من بني إسرائيل ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: ما الفتنة ألتي وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التي تختبر بها من شئت، وتمتحن بها من أردت ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ ﴾ أي تضل بهذه الفتنة من تشاء من عبادك، وتهدي بها من تشاء منهم، مما يدل على افتقار الإنسان لربه في الهداية والتوفيق،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٤٦٧-٤٦٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٨١)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٦٠)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٨٢)

ثم رجع للاستعطاف والدعاء ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: المتولي لأمورنا[١] ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي: فامح ذنوبنا، ولا تعاقبنا عليها ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ أي: أنعم وتفضل علينا بإحسانك وإنعامك ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ فأنت يا الله خير من غفر ويغفر ويصفح ويستر الذنوب، فهو توسل بصفات الله تعالى، مما يدل على أن من حق الله تبارك وتعالى على عباده أن يستعطفوا ويتذللوا له بأسمائه وصفاته، فإنها وسيلة لمرضاة الله عَزَّ وجل.

ويستمر موسى عليه الصلاة والسلام في الدعاء، قائلاً ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: حقق لنا التوفيق، وأوجبه لنا، واجعلنا ممن كتبت لهم ذلك في الدنيا بصالح الأعمال، وفي الآخرة ممن كتبت لهم مغفرة الذنوب، وجعلت مثواهم الجنة ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا إليك، ورجعنا عما كنا عليه من الغواية، لأن الهود: التوبة. وهذا من مجامع الدعاء الذي جمع بين خير الدنيا والآخرة.

فرد الله تبارك وتعالى بما يبين كمال قدرته، ورحمته، وعدله ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإن من كمال قدرة الله تعالى ومشيئته أنه يعذب من يشاء بحكمته ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ وأن من رحمته أنها وسعت كل شيء ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فلم يستثن شيئاً منها أبداً سبحانه وتعالى، مما يدل على سعة رحمة الله تعالى وعظيم عطاياه وإحسانه، حتى شملت رحمته البهائم والدواب، بتسخير ما يطعمها ويسقيها، وأنه يرزق البر والفاجر، ثم خص سبحانه وتعالى المطيعين له بخصوص الرحمة ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ففي الآخرة يوجبها الله تعالى ويحققها مِنَّة منه وفضلا وإحساناً لمن اتصف بهذه الصفات ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فأولها: التقوى ﴿يَتَّقُونَ﴾ فالتقوى تجمع اتقاء الشرك والمعاصي خوفاً من الله تعالى ورغبة في رحمته، فيتحقق بها التوحيد والإيمان وطاعة الله تعالى، والابتعاد عن ما يوجب غضبه عَزَّ وجل، وثاني تلك الصفات: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وجاءت عامة لتشمل زكاة المال والبدن، وثالث تلك الصفات: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بجميع حجج الله تعالى وبراهينه. وقال

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٣٨)

بعض أهل التأويل من المفسرين: مخرجه عام، ومعناه خاص، والمراد به: ورحمتي وسعت المؤمنين بي من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، واستشهد بالذي بعده من الكلام[١]

ثم يذكر الله تعالى أن من تمام ذلك اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ فبعد مبعثه صلى الله عليه وسلم يكون تحقق ذلك الوعد من الله تعالى لمن آمن برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، واتبعه في أصول الدين وفروعه ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ﴾ وقد نوه الله تعالى بأن من صفات نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أنه أُمّي، فلا يكتب ولا يقرأ، فهو من أمة العرب الموصوفة بالأمية، التي تعني أنها لا تعرف القراءة ولا الكتابة، وهي ميزة ومنقبة في حقه عليه الصلاة والسلام، لأن في أميته إثبات أنه لم يَطَّلِع على شيء من كتب الأنبياء السابقين، حتى أن أمته أمية لم يتداولوا بينهم كُتُب من سبق من الأنبياء، وبالتالي فإن كل ما يأتي به ويقوله صلى الله عليه وسلم هو من عند الله تعالى مباشرة، ويؤيده ما هو موجود في كتب من سبقه من الأنبياء ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﴾ فصفاته صلى الله عليه وسلم مذكورة وموجود في التوراة والإنجيل ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﴾ فهي لا تخفى عليهم، قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: وهذا الكلام منه سبحانه وتعالى مع موسى هو قبل نزول الإنجيل، فهو من باب الإخبار بما سيكون، ثم وصف هذا النبي بالذي يجدونه كذلك، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر[٢] فمن صفات منهجه صلى الله عليه وسلم ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ قال

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٤٨٣)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٥٢)

ابن عباس رضي الله عنهما: المعروف: مكارم الأخلاق، وصلة الأرحام. وأما المنكر: عبادة الأوثان، وقطع الأرحام، وقال غيره: المعروف: الحق، لأن الْعُقُول تعرف صحته، والمنكر: الباطل، لأن العقول تنكر صحته[١]

ومن المنهج الذي جاء به صلى الله عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أي: يحل لهم الحلال، لأن جميع ما أحله الله تعالى فهو طيب، سواء ما كان من المطاعم والمشارب والمناكح، أو ما كان من الأقوال والأفعال، وغيرها مما أحله الله عَزَّ وجل ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ أي: ويحرم عليهم الحرام، لأن كل ما حرمه الله تعالى فهو خبيث، سواء من المطاعم والمشارب، أو الأقوال والأفعال، كأكل لحم الخنزير والربا ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ أي: العهد والميثاق الذي كان قد أُخذ على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة، وقيل العهود التي أعطوها من أنفسهم، وقيل يعني بذلك أنه يضع عَمَّن اتبع نبي الله التشديد الذي كان على بني إسرائيل في دينهم، فيكون المعنى: ويضع النبي الأمي العهد الذي كان الله قد أخذه على بني إسرائيل من إقامة التوراة، والعمل بما فيها، من الأعمال الشديدة[٢]من تحريم السبت والشحوم والعروق ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: ما ثقل من التكاليف والتشديد، ويدخل فيها العهود والمواثيق التي أخذت منهم في التوراة والإنجيل، مما يبين أن الإصر يمثل العهود والمواثيق التي جعلتهم كالمكبلين في شدة أغلال تلك الأحكام، فكانت الأحكام أغلالاً عليهم.

وهذا يفيد أن الله تعالى عاقب بني إسرائيل على بغيهم وتشددهم بما يناسب مسلكهم، فشدد عليهم التكاليف، ووضع عنهم إصرهم من التشديد إذا آمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم واتبعوه، لأنه لا تشديد فيه، وذلك بما أكرم الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومن يؤمن به ويتبع سبيله، بأن جعل تشريعه خالياً من الإصر والأغلال، ليكون دين اليسر والسماحة، مما يفيد أن الله تعالى رفع بهذا الدين كل حرج، كما قال تعالى في سورة الحج ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ وفي سورة المائدة ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فجاء خاتمة الأديان بالتيسير والسماحة، بل دلهم أن يسألوا الله تعالى ذلك، كما في خاتمة سورة البقرة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٨٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٤٩٣-٤٩٦)

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

ثم أخبر الله تعالى بأن الفوز والفلاح لمن اتبع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فالذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي: عظموه، ووقروه ﴿وَنَصَرُوهُ ﴾ أي: جاهدوا معه من يعاديه، ونصروه عليهم ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ واتبعوا القرآن الذي أُنزل معه صلى الله عليه وسلم، وقد سمى الله تعالى القرآن بالنور، لأنه يضيء للعباد طريق الخير في الدنيا، ويسلك بهم إلى طريق الجنة في الآخرة، فيعرفون به الشر، كما يعرفون بالنور المخاطر التي تظهر لهم في الطريق ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فالمتصفون بهذه الأوصاف هم الفائزون بالخير والفلاح والنجاة، وكذلك بجنات النعيم، والْمُبْعَدُون عن العذاب.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

يأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يُعلن رسالته لجميع الأجناس من البشر، بأن يخاطب الناس جميعاً ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ لأن كلمة الناس تجمع جميع الخلائق من البشر، القاصي والداني، والأبيض والأسود والأحمر، والعربي وغير العربي، واليهودي والنصراني، وغيرهم من كل مذهب ودين، معلناً لهم أيها النبي أنك رسول الله إلى الناس جميعاً صلى الله عليه وسلم ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وكلمة ﴿جَمِيعًا ﴾ تؤكد جملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فلا يُستثنى أحداً من رسالته صلى الله عليه وسلم، مما يفيد أن كل دين سابق منسوخ ببعثته صلى الله عليه وسلم، لأن جملة ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد أنه مرسول من الله تعالى برسالته إلى الخلق أجمعين من غير استثناء.

ثم يبين الله تعالى عِزَّته وعظمته وقدرته ببيان عموم ملكه وسلطانه ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فقل للناس: أنني رسول الله الذي له ملك السموات والأرض، فجمعت جملة ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ﴾ الإيجاد والخلق والتدبير، ومنها تدبير أمر السماوات وما فوقها وما حوت، والأرض وما عليها وما حملت وما حوت، و قد جمعت كلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كل ما ارتفع مما يشاهده الإنسان ومالا لا يستطيع أن يشاهده فغاب عنه، فمما يشاهده الشمس والنجوم والقمر، والسحاب، وما يحسه الإنسان من الرياح والهواء، وكذلك كل ما غاب وخفي عن البشر مما قَصُرت حواسهم عنه، وأما كلمة ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فشملت كل ما هو دون السماء من الأرض وما في باطنها وما يَدب عليها وما يجري فيها، فاستوعبت دلالتها الإنسان والحيوان والطير والدواب والزروع والمياه، وما هو في جوفها مما يعلمه الإنسان ومما لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر سبحانه وتعالى عظيم ألوهيته ووحدانيته ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا إله في هذا الكون إلا هو سبحانه وتعالى، فكل معبود دون الله تعالى باطل، ثم ذكر سبحانه وتعالى آية من آياته العظيمة، بأنه هو الذي ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فربكم هو الذي أوجدكم، وأوجد كل حي من العدم، فهو المتفضل عليكم بالخلق والإيجاد، فلا أحدٌ أوجد نفسه، أو يَدَّعي ذلك، فالكل مخلوق للخالق جَلَّ جلاله. وهو الذي يميتكم ويميت كل حي، فكل أحد من الناس يعلم أنه سيموت، وبالتالي فمن هو الذي يقرر موته؟ ومن الذي كتب عليه الفناء وعدم البقاء؟ بل لا يستطيع الإنسان أن يُؤخر أو يُبقي نفسه لحظة واحدة، مهما بلغ علمه وبلغت قوته، فإنها آية عظيمة تدل على أنه هو الذي ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ سبحانه وتعالى. ومن الإعجاز البياني في قوله تعالى ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أنه لم يقل في هذا المقام: يحيكم ويميتكم، فتدل بالتالي على الإنسان فقط وتقتصر عليه، بالرغم من أنه هو الْمُخَاطَب، بل جاءت عامة شاملة، لتدل وتفيد يحيكم ويحي غيركم، وكذلك لم يقل تبارك وتعالى في هذا المقام: يميتكم، فَتُقْصَر على المخاطبين فقط من البشر، بل وردت عامة شاملة، لتدل وتفيد أنه يميتكم ويميت كل حي أوجده الله تبارك وتعالى. وهذا من بلاغة دلالة البيان، وإعجازه في تراكيب ألفاظه. فسبحان من أظهار آياته حتى في سياق كلامه تبارك وتعالى.

ثم يوجه تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للعباد ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ فصدقوا بالله الذي هذه صفاته، وأقروا بوحدانيته وألوهيته، واصرفوا العبادة له وحده لا شريك له. وصدقوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه مبعوث ربه وربكم إلى الناس أجمعين، ثم ذكر تبارك وتعالى من صفاته ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾

فإنه النبي الذي نبأه الله تعالى برسالته، والتي من صفاته أنه ﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾ الذي لا يقرأ ولا يكتب، ووردت صفة ﴿ٱلۡأُمِّيِّ﴾ مُعَرَّفة بأل التعريف، لتضيف على هذه الصفة تأكيد كمال صفة الأمية، فإنه عليه الصلاة والسلام كامل الأمية، فتنطبق عليه دلالتها كاملة، فلا يقرأ ولا يكتب البتة.

ومن صفاته صلى الله عليه وسلم أنه ﴿ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الذي يصدق بالله تعالى، ويُوحدُه، ويعبده وحده لا شريك له، ويؤمن بكلمات الله تعالى كلها ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وقد شملت وعمت دلالة ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ جميع آياته سبحانه وتعالى، فاستوعبت جميع دلائله وبراهينه وحججه من الكتب وغيرها، ليدل ذلك على كمال إيمانه صلى الله عليه وسلم، قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لم يخصص الخبر جَلَّ ثناؤه عن إيمانه من كلمات الله ببعض دون بعض، بل أخبر فعم الخبر جميع الكلمات، فالحق في ذلك أن يُعمَّ القول، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤمن بكلمات الله كلها على ما جاء به ظاهر كتاب الله[1] أي لا يخصص بها شيء دون شيء، فلا يخصص بها القرآن أو عيسى عليه السلام، أو غير ذلك، بل هي عامة الدلالة.

فواجبكم أيها الناس اتباعه ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ فاتبعوه لتحصلوا على الهداية التي هي الحق والرشاد الذي يصل بكم إلى ما يحقق لكم الخير في الدنيا والآخرة. مما يفيد أنه حال عدم اتباعكم له ستكونون على ضلال وفي ضلال، فتضلون في الدنيا والآخرة. وفي هذا بلاغ وإنذار لجميع الناس بما فيهم اليهود والنصارى، فلا دين بعد بعثته صلى الله عليه وسلم إلا دين الإسلام الذي جاء به عليه الصلاة والسلام.

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة في أسلوبها التدرج في البيان والتوجيه، فبدأ النص الكريم ببيان ما ينادي به رسوله صلى الله عليه وسلم الخلائق، ثم تقرير عموم بعثته للناس جميعاً، ثم تقرير أنه مرسل من الله تعالى الذي له ملك السماوات والأرض، ثم التدرج إلى بيان عظمة الله تعالى الذي لا إله إلا هو، ثم يتدرج إلى ما يعرفونه من خاصة أنفسهم، وهو الوجود، ثم الموت، فلا ينكره إنسان، فكل إنسان يؤمن بأنه مخلوق مولود، ثم أنه سيموت، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه الخلق والوجود في الدنيا ابتداء، ولا أن يمنع عن نفسه الموت انتهاء، ثم بعد هذه الدلائل يوجههم إلى الإيمان به سبحانه وتعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، الذي وصفه بما يوجب الإيمان به، ثم يتدرج إلى ختام البيان بالنتيجة والمحصلة التي يحصلون عليها ﴿لَعَلَّكُمۡ

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠٠/١٠)

﴿تَهۡتَدُونَ﴾ فهو تدرج بياني في غاية الدقة والبلاغة البيانية، وفي أسلوب غاية في الإقناع. كما أنه تدرج بياني من قصة موسى عليه السلام إلى شأن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، بأسلوب تواصلت فيه العلاقة دون انقطاع، ليعود البيان إلى قصة المهتدين من قوم موسى كما هو في الآيات التالية:

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾

بعد أن ذكر الله تعالى شأن ما حدث من السامري، وافتعال العجل وعبادته، وما حصل من التزلزل بالرجفة لبني إسرائيل ينتقل السياق في تدرج عظيم إلى شأن المهتدين من قوم موسى عليه السلام ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ فإن من قوم موسى من بني إسرائيل أمة أي: جماعة ليست بالقليلة يدعون غيرهم للخير والحق ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ مما يدل على أنهم يعملون به، ومحبين له، ولذلك يدعون إليه، ويحكمون به ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ أي: بالحق يحكمون بين الناس، وبالتالي يُحَكِّمُونَهُ في شأنهم، فيأخذون ويُعطون به، ويُنصفون من أنفسهم، ولا يجورون. وهذا مدح وثناء من الله تعالى عليهم، وتقرير لما كانوا عليه من الحق.

ويخبر الله تعالى بما كان منه جَلَّ جلاله لبني إسرائيل ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗا﴾ يذكر الإمام الشوكاني رحمه الله أن هذا في شأن المتقدم ذكرهم، لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهدون بالحق وبه يعدلون، والمعنى صيرناهم قطعاً متفرقة، وميزنا بعضهم من بعض، حتى ساروا أسباطاً، كل سبط معروف على انفراده، ولكل سبط نقيب. والأسباط جمع سبط، وهو ولد الولد، صاروا اثنتي عشرة أمة، من اثنتي

عشرة ولدا، وأراد بالأسباط القبائل، ولهذا أنث العدد[١] وقد سماهم الله تعالى أمما ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ ما يدل على أنهم كثيري العدد، فكل سبط: أمة، أي: جماعة كثيرة.

فلما قضى الله تعالى عليهم ذلك بعدله وحكمته، بأن جعلهم يتيهون في التيه، واستسقوا موسى مما أصابهم من العطش، فأوحى الله تعالى لموسى بأسباب تحصيل الماء، فقال عزَّ وجل ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ فالإيحاء من الله تعالى لموسى بأن يضرب الحجر ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ فانفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء، بعدد الأسباط، ليصبح لكل سبط عينا واحدة يشربون منها. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ وقد عرف كل سبط العين التي تخصهم، فيشربون منها. فلا يتزاحمون، وهذا من فيض نعم الله تعالى. وهذا يفيد في علم التنظيم والتخطيط، بأن الله تعالى قد وزعهم وقسمهم اثنتا عشرة سبطا، ولكل سبط عريف، ثم جعل لكل جماعة منهم عيناً محددة يشربون منها ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ فمن إحسان الله تعالى ورحمته عليهم أن جعل لهم ظلالاً، لأن معنى الغمام أي: الظلال كما ذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن الغمام بأنه: جماع غمامة، كما السحاب، وهو ما غَمَّ السماء، فألبسها من سحاب، وقيل هو بمنزلة السحاب، وقيل أنه أبيض من السحاب[٢] فجعلها تبارك وتعالى ظلالاً عليهم في التيه، يسير بسيرهم، ويقيم بإقامتهم[٣] فالغمام هو الذي يظلهم من الشمس وحرارتها، وهذه آية ومعجزة عظيمة من الله تعالى بأن الغمام يسير معهم أينما ساروا، ويقيم معهم أينما أقاموا، بل زادهم الله تعالى من فضله بأن أعطاهم ما يأكلون ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ فالمن هو الحلوى، والسلوى هو لحم الطير، وهو من أحسن أنواعها وأفضلها، وهذه آية أخرى عظيمة، إذ أذهب عنهم العطش، وأذهب عنهم تعب البحث عن الماء في التيه، وظللهم بالغمام، وأنعم عليهم بالطعام اللذيذ، والحلوة التي لم يسبق لهم أكلها ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ فسمى الله تعالى ما أنزله إليهم بالطيبات، ليفيد استطابته في طعمه، وتحصيله، وخصوصيته لهم، ونسب الرزق إليه عزَّ وجل ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ فخصهم بهذا الرزق، ووجههم بالأكل

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٥٥-٢٥٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/٦٩٨-٦٩٩)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٥٦)

منه ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ ليفيد التفضل من الله تعالى بالأكل منه. وسماه تبارك وتعالى بالطيب، ليفيد ليفيد بركته، استطابته في طعمه، وتحصيله. فهو متصف بالطيب من كل وجه.

ثم يذكر الله تعالى ظلمهم لأنفسهم ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وفي الكلام محذوف، تُرِك ذكره استغناء بما ظهر عَمَّا تُرِك، وقالوا لن نصبر على طعام واحد، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير[١] فخالفوا أمر الله تعالى، فيرد الله تعالى على مسلكهم ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ بما وقع منهم من مخالفة أمر الله تعالى، فلا يقع على الله تعالى أذى بكفران النعمة والمعاصي، وإنما يقع أثر ذلك على أنفسهم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ فيظلمون أنفسهم بمنعها مما كان حظاً لهم فيه من خير الله تعالى وإنعامه، وذلك بمعصيتهم، إذ أنهم مع جميع هذه الآيات؛ وما حصل لهم من الإنعام قالوا لن نصبر على طعام واحد، كما جاء في سورة البقرة ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾

مما يفيد أهمية شكر النعمة، وأهمية استشعار الإنسان لها، واستشعار ما هو فيه من خير، وألا يجعل للشيطان مدخلاً لدينه، ولِمَا أنعم الله تعالى به عليه، فيبطر نعمة الله عَزَّ وجل، وأن لا يجعل للتشهي سلطاناً عليه، فقد مَلُّوا النعمة الخاصة، وبحثوا عن الأدنى. ومثل ذلك من يذهب إلى المعصية متساهلاً أثرها.

ثم يذكر الله تعالى ويبين مزيد إنعامه عليهم، ومزيد خلافهم وعصيانهم ﴿ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فاذكر يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ أي: اسكنوا بيت المقدس، وجملة ﴿ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ دليل على أنه توجيه باختيار من رب العالمين لهم، وأنها سكن وراحة لهم، بل إن من رحابة الاستمتاع فيها، قوله تعالى ﴿ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ ﴾ كلو من ثمارها ونباتها أين شئتم منها، مما يفيد أنها كبيرة المساحة، وكثيرة التنوع الزراعي، بحيث يتنقلون بين بساتينها، ومتنعمين بثمارها، وأن الواجب الذي عليهم هو ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ أي: ربنا ضع عنا ذنوبنا ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ أي: خاضعين متذللين لله

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٩٨/١-٦٩٩)

تعالى، شاكرين له ما أنعم به عليكم، لتحصلوا على مغفرة الله تعالى ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡ﴾ فمقابل قولكم ﴿حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡ﴾ فإن الله تعالى مقابل هذا القول السهل، وهذا الفعل يغفر لكم ما سلف من ذنوبكم، فلا يؤاخذكم بها. بل وزيادة للمحسن منكم ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مما يفيد كرم الله تعالى فيما أعطاهم من القرية المليئة بالمزارع المثمرة، واستمتاعهم بخيراتها، وأن يستغفروا ويتوبوا إلى الله تعالى، ويدخلوا الباب خاضعين لله عَزَّ وجل، وسيزيد من أحسن منهم خيراً كثيراً، فجمع لهم تبارك وتعالى بين العطاء والمغفرة، وبين الزيادة لمن أحسن، إلا أنهم بدلوا وغيروا ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ فلم يستجيبوا لله تعالى ولرسوله موسى عليه الصلاة والسلام، بل بدلوا ما أمرهم الله تعالى به، فبدلا من أن يقولوا ﴿حِطَّةٞ﴾ قالوا: حنطة في شعيرة، فحتى القول اللفظي بدلوه وغيروه، مما يدل على عنادهم واستكبارهم ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ فأرسل الله تعالى عليهم عذاباً أهلكهم، بما كان منهم من التبديل والتغيير، فالرجز هو العذاب الشديد، فقد يكون الطاعون، وقد يكون غيره، وذلك بسبب ظلمهم، وقد نسب الله تعالى هذا العذاب بأنه من السماء، ليتبين به أنه أمر من الله تعالى، وليفيد علو أمره، وقوة سلطانه، وأن أمره غالب على كل شيء، وقوله تعالى ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ ما يفيد أنه لو لم يكن منهم ذلك العصيان والظلم لأنفسهم لما حصل لهم هذا العذاب، مما يفيد أن على المرء أن يحذر عذاب الله تعالى الذي قد يصيبه بسبب ذنوبه ومعاصيه، وأن يحذر من تعدي حدود الله تعالى.

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ

إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم توبيخاً لهم لبني إسرائيل المعاندين لرسالته ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ ومن جميل بيان التعبير عن أهل القرية بالقرية ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ فالسؤال عن القرية، لأنها تمثلهم، بما يفيد استقرارهم واستقرار معاشهم فيها. وهذا سؤال تقريع وتوبيخ لهم، وكشف لما كان من أسلافهم الذين لا يمكن أن يعلمه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم إلا بوحي، خاصة وأنه النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، مما يثبت صدق رسالته، أنه نبي حق كما هو عندهم في الكتاب. فيقررهم بما كان من قديم كفر أسلافهم، ومخالفتهم الأنبياء، وذلك بسؤالهم عن قصة أهل القرية التي كانت مجاورة للبحر، وجملة ﴿ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ ما يفيد بحضرة البحر، أي: بقربه وعلى شاطئه. فقد تكون إيليا، أو طبرية، أو غيرهما من قرى ساحل الشام ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ أي: يعتدون ويتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم السبت الذي نهاهم الله تعالى عن العمل فيه. وكلمة ﴿ يَعْدُونَ ﴾ جمعت بين الاعتداء والتجاوز وبين العمل والأداء والمخالفة، فأغنت عن العديد من الدلالات.

ومن ابتلاء الله تعالى لهم أن الحيتان تأتي ظاهرة، قريبة منهم يوم السبت ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ أي: ظاهرة على الماء، وكلمة ﴿ شُرَّعًا ﴾ جمعت بين الظهور والبروز والقرب والدنو منهم، بما يفيد تمام القرب، حتى أنه من السهل على الرجل منهم أن يمسكها فيأخذها، فهي في متناول يده، فأغنت الكلمة الواحدة عن تعاضد غيرها معها للبيان والتوضيح. ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ وذكر ابن كثير عن ابن جرير: أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم الْمُحَرَّم عليهم صيده، وإخفاؤه عنهم في اليوم الحلال لهم صيده ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ نختبرهم بسبب فسقهم عن طاعة الله تعالى، وخروجهم عنها، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله تعالى

بما قاموا به[١] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي مثل ذلك البلاء العظيم نبلوهم بسبب فسقهم، والابتلاء: الامتحان والاختبار[٢] مما يبين أن لله حكمة في الحكم وفي الابتلاء والاختبار، وفي إيجاد ما يستهوي النفوس، ليعلم من يخافه ويتقيه، ومن يطيعه ومن يعصيه، ليعطي بهذا درساً عظيماً بأن على المؤمن أن يصبر عما يستهوي النفس من المحرمات والمكروهات، ويصبر على الطاعة، وعلى ما قد يصيبه من الابتلاء، فإن لله تعالى حكمة فيما يقضيه على عباده.

وعُبِّر عن يوم السبت والعمل فيه بكلمة واحدة ﴿سَبْتِهِمْ﴾ من قوله تعالى ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ الذي هو يوم السبت. وكذلك عبر عن العمل فيه بصيغة ﴿يَسْبِتُونَ﴾ من قوله عَزَّ وجل ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ والذي أفاد توقف العمل والأداء فيه. ليجمع بين اليوم وبين الأداء ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وذكر الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى: أن أصل السبت: القطع. ومعنى ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: يوم قطعهم للعمل ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ قيل معناه يوم لا يقطعون العمل، وقوله ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أي ترك العمل فيه[٣] فأي بلاغة بيانية أجمل وأدق من هذا البيان العظيم، ليظهر إعجازه حتى في تراكيب ألفاظه، فسبحان من أعجز ببيانه عباده، كما أعجزهم بكمال وجمال تشريعه عَزَّ وجل.

ثم يبين الله تعالى حال أهل هذه القرية ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمزيد من تفاصيل حال أهل هذه القرية، ليكون دليلاً لأهل الكتاب ولغيرهم على نبوته صلى الله عليه وسلم، لأنه يستحيل أن يعلم خبر تلك الأمة، ويعلم دقائق التفاصيل، إلا بوحي من الله تعالى، إضافة إلى أنه رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب عليه الصلاة والسلام. حيث يظهر أن طائفة منهم بغت فاعتدت يوم السبت، وطائفة أصابها اليأس من نجاة الذين اعتدوا في السبت، وطائفة قامت بأداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاه الطائفة التي اعتدت يوم السبت، فالطائفة التي أصابها اليأس تقول للتي تأمر بالمعروف

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٦٧)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٥٧)

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٢٢٠-٢٢١)

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم بمعصيتهم التي تستوجب الهلاك لهم ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ أي: مدمرهم وقاطع شأفتهم ﴿ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أو أن الله تعالى موقع بهم عذاباً شديداً، فلا فائدة في نهيكم إياهم، فقالت الطائفة التي قامت بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ لنعتذر لله تعالى بما قمنا به من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأيضاً ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فلعله يحصل منهم التقوى، فيتوبون إلى الله تعالى عن معصيتهم. فعدم اليأس كان محفزاً لهم تجاه نصحهم، مما يفيد تحقيق أمرين مهمين تجاه من أذنب، الأول: القيام بأمر المعروف والنهي عن المنكر باعتبار أنه شريعة واجبة، فيحصل بالقيام به العذر لمن قام بها وأداها، والأمر الثاني: عدم اليأس من العاصي مهما بلغ جرمه، فقد يهتدي، فيتقي الله تعالى ويتوب.

وقال المفسرون: إن أهل هذه القرية انقسموا وصاروا ثلاث فِرَق: فرقة صادت وأكلت، وفرقة: نهت وزجرت، وفرقة: أمسكت عن الصيد، وقالت للفرقة الناهية المنكرة ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فلاموهم على موعظة قوم يعلمون أنهم غير مقلعين[١]

ويبين الله تعالى مآل أهل القرية ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ فلما أعرض المعتدون عن نصح وموعظة الذين نهوهم ووعظوهم وما ذكروهم به من حرمة الصيد يوم السبت، حتى بلغ إعراضهم بهم كمن شأنه شأن من نسي ما ذُكِّر به من شدة تولعه بالمعصية التي كانت هي الصيد في يوم السبت الذي نُهوا عنه، فإن فعلهم للمعصية كفعل الناسي لشدة تغافلهم وتجرئهم؛ بما يفيد المبالغة في وصف فعلهم وعنادهم، فاستحقوا العقاب، وأنجى الله تعالى الذين نهوهم عن السوء ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ فأنجى الله تعالى الذين قاموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد سمى الله تعالى فعل الطائفة التي عصت بالسوء، لأن السوء ما يغم الإنسان من الأمور، ليكون نتيجة ما فعلوه سوءً يغمهم غماً ينسيهم لذة ما صنعوه من معصية الله تعالى.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٦٨) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٨٨) وغيرهما.

وأما الطائفة المعتدية في يوم السبت، ولم تستجب لنصح الطائفة الأخرى، فقال الله تعالى عنها ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ ﴾ أي: شديد الضر، بسبب فسقهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ أي: بسبب خروجهم عن حدود وحجر الشرع، قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى: وأكثر ما يقال لمن التزم حدود الشرع وأقر به ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلأنه أخل بما ألزمه العقل واقتضته الفطرة(١) وأما الطائفة الثالثة فلم يذكرها سبحانه وتعالى، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فنص الله تعالى على نجاة الناهين، وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحون، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا(٢) وفيها موعظة وبيان، فالبيان أن الناس يختلفون إزاء أمر الله تعالى، فمنهم المتمسك به، مع اجتناب ما نهى عنه، إلى درجة الأخذ بما يلزمهم تجاه غيرهم، من أجل أن يعذرهم الله تعالى، ولا يلومهم في حق غيرهم عليهم. ومنهم من يتمسك بطاعة الله تعالى ويجتنب ما نهى عنه، ويقف عند ذلك، دون أن ينظر لواجبه تجاه غيره. ومنهم من لا يأبه ولا يكترث بحدود الله تعالى، ولا يرغب في أن ينتفع بمواعظ غيره له، فيجري وراء رغباته وأهوائه. وفي ذلك موعظة للمؤمن بأن يسلك أفضل المسالك التي يحمدها في الدنيا والآخرة.

ويقص الله تعالى خبر هؤلاء المتمردين ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ فلما تكبروا عن ترك ما نُهُوا عنه بتجاوزهم في معصية الله تعالى ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ فصاروا قردة لها أذناب تعاوى، بعدما كانوا رجالاً ونساء(٣) وأضاف الله تعالى إلى تلك العقوبة الحسية عقوبة نفسية معنوية ﴿ خَٰسِـِٔينَ ﴾ مطرودين ذليلين، فتفيد الاحتقار والصغار والخيبة والفشل.

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة تعمدهم المعصية ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ وأما في الآية التي قبلها قال تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ ﴾ ففي الأولى: ﴿ نَسُواْ ﴾ وفي الثانية: ﴿ عَتَوْاْ ﴾ ليفيد التأكيد، وليفيد تشنيع صنيعهم الذي يستحقون به ما أصابهم من العذاب، وليفيد تقرير النسيان بمعنى العتو وتعمد المعصية، فنسيانهم بمعنى تعمدهم في المعصية حتى لكأنهم نسوا ما نُهوا عنه، فالذي يراهم يظن فعلهم هو فعل الناسي؛ لشدة تعمدهم المعصية. وكذلك قال تعالى في الآية الأولى ﴿ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ ﴾ وفي الآية

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٣٨٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٦٨)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٥٢٩)

الثانية ﴿مَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ وفي هذا تأكيد أن الذي ذُكِّروا به، هو النهي عن فعلهم من الاعتداء يوم السبت، فإن موعظة الطائفة التي ذكرتهم متضمنة للنهي عن المنكر الذي فعلوه. وأنهم بينوا لهم أن ما يفعلونه منكر، يستوجب العقوبة، فالتذكير عموماً يكون بالنعمة وبالترغيب وبالترهيب، وبيان الواجب وما يلزم.

ثم يخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يسألهم أيضاً بما حكم الله به على اليهود الذين عصوا نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ فقوله تعالى ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ من الإيذان، وهو الإعلام بما أوجب عليهم، وهو ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ﴾ فاسألهم وقت أن وقع الإخبار والإعلام لهم من ربك ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ﴾ وقيل في هذا الفعل معنى القسم، كَعَلِمِ الله، وشهد الله، ولذلك أُجيب بما يجاب به القسم ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي ليرسلن عليهم[1] قال مجاهد رحمه الله تعالى: وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا أُتْبِعَت باللام في قوله تعالى ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على اليهود[2] بأن يرسل إليهم إلى أن تقوم القيامة ﴿مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ فهذا الزمن المضروب من الله تعالى يشملهم ويشمل كذلك ما اسْتُقبل من الأجيال القادمة من اليهود إلى أن تقوم القيامة، فيسلط الله عليهم من يذيقهم ويفرض عليهم شديد العذاب.

ثم ختم الله تعالى ذلك ببيان قوة قدرته، وعظيم إحسانه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن الله تعالى سريع في تحقيق العذاب إذا أراد ذلك بالعاصي ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وأنه تبارك وتعالى يغفر ويمحو الذنوب لمن تاب وأناب ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيصونه من أن يمسه العذاب، وأن الله تعالى متصف بكثرة الرحمة. وفي هذا ترهيب من المعصية، وترغيب في التوبة والطاعة، فإنه مهما كبرت وكثرت ذنوب العبد فإن الله تعالى يمحوها ويغفرها برحمته لمن تاب وأناب، وفي هذا علاج لهم ولكل عاص بأن لا ييأس من رحمة الله تعالى. فمن تاب وآمن برسوله محمد صلى الله عليه وسلم خرج من هذا الوعيد، لأنه خرج عن الموعودين به.

وقد تحقق ذلك في اليهود: ويقال أن موسى فرض عليهم الخراج سبع سنين، وقيل ثلاث عشرة سنة، ثم كانوا في قهر الملوك، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/-٢٥٩-٢٦٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٧٠)

فكانوا تحت قهره[١] فلا يزالون في ذل وإهانة ورعب وخوف. وفي الإخبار والإعلام بما كان منهم وبقصصهم آية من آيات الله تعالى، وأيضاً هي آيات إثبات لرسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ويقول الله تعالى عن معاقبته لليهود ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ وذلك بتشتيت شملهم، فوقع التفريق بينهم مشتتين في أنحاء الأرض، وهذه آية عظيمة باقية إلى يوم القيامة، مما يفيد الحذر من عقوبة الله تعالى، فإنه لا يعجزه شيء، فقد شتت أمة الكفر بكاملها، مما يوجب الاتعاظ بما حصل لهم من عذاب الشتات، وعذاب من يسومونهم سوء العذاب، وأوضح الله تعالى وبين حال اليهود من حيث الطاعة والامتثال، فيقول عَزَّ وجل ﴿ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ وهذا من عدل الله تعالى في وصفهم وبيان حالهم، فمنهم الصالحون الذين آمنوا برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ومن مات منهم قبل البعثة المحمدية غير مبدل لدينه ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: دون الصلاح، فهم الكافرون ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ومن رحمة الله تعالى بهم أن ابتلاهم وامتحنهم بالخير والشر، والشدة والرخاء، ابتلاء تأديب وموعظة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم يتوبون فيرجعون عن كفرهم. ويفيد هذا الاختبار بأن الله تعالى قد يداول على العبد الخير والشر من أجل أن يعود ويؤوب إلى ربه تبارك وتعالى، فيتنبه لما قد يصيبه، فلا يقف أمامه موقف الساهي الغافل. فنعوذ بالله تعالى من الغفلة في دينه وفي كل خير.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾

يخبر الله تعالى عن تسلسل اليهود ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ فجاء بعد هؤلاء المذكورين الذين فيهم الصالح ودون ذلك قوم وخلف آخر، يعني أولاد الذين فرقهم الله تعالى في الأرض، والخلْف بسكون اللام، هم: الأولاد، الواحد والجميع فيه سواء ،

(١) المرجع السابق (٢/٢٧٠)

والخَلَف بفتح اللام: البدل، سواء كان البدل ولداً كان أو غريباً[١] وهؤلاء الخلْف ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: انتقل الكتاب إليهم انتقال الميراث، من السلف إلى الخلف، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فتبدل من بعدهم بدل سوء، ورثوا كتاب الله فعلموه، وضيعوا العمل به، فخالفوا حكمه[٢]﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ يعني: هذه الدنيا، وهو ما يعرض لهم منها، وقيل سماه ﴿عَرَضَ ﴾ لقلة بقائه، قال ابن عباس: يأخذون ما أحبوا من حلال أو حرام[٣]﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا) أي: لا نؤاخذ بذلك الذنب، وأن الله سيغفر لنا، وذكر القرطبي رحمه الله تعالى: أنهم لا يتوبون، ودل على أنهم لا يتوبون قوله تعالى ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾[٤] فإذا تمكنوا مرة أخرى مما يحبون من عرض الدنيا المحرم أخذوه غير مبالين بحدود الله تعالى، فلم يتورعوا عن حرام، خاصة وقد قال الله تعالى عنهم أنهم ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ مما يفيد أنهم علموا وفقهوا ما فيه من الحلال والحرام، مما يفيد أن الجرأة قد بلغت بهم مبلغ التعدي عن علم ومعرفة، ودون خوف ووجل من عقوبة الله تعالى، بل ويُمَنُّون أنفسهم بالمغفرة، وهم مصرون على الحرام.

وينكر الله تعالى عليهم هذا الصنيع ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ فقد أخذ الله تعالى عليهم العهد، وهو الميثاق بالتزام الحق، مما يفيد شدة ما أوجبه الله تعالى عليهم من لزوم الحق الذي تضمنته التوراة، وأن لا يكذبوا على الله تعالى، بل يجب أن يلزموا ما نص الله تعالى عليه وحكم به. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكَّد الله عليهم في التوراة أن لا يقولوا على الله إلا الحق، فقالوا الباطل، وهو ما أوجبوا على الله مغفرة ذنوبهم التي لا يتوبون منها، وليس في التوراة وعد بالمغفرة مع الإصرار[٥] فقد قالوا على الله غير الحق ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ يقولون ذلك كذباً وزوراً، وقد قرأوا التوراة ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ أي: علموا وفقهوا التوراة، وما فيها من أحكام، فخالفوا ما نصت عليه التوراة من أحكام، ويأتي النص الكرين بمعنى آخر كما ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي محوه بترك العمل به، والفهم له، من قولك: دَرَسَت

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٧/٧)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٣٦/١٠)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩١/٣)
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٨/٧)
(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩١/٣)

الريح الآثار، إذا محتها[١] وبالتالي قد اجتمع في النص دلالة العلم، ودلالة الترك بعد العلم، فاجتمعت في المعنى حقيقتان متضافرتان، وهذا من غزارة البيان ودقته وكمال جمعه للمقصود والمراد بأقل الألفاظ.

ثم يبين الله تعالى المقارنة والاختلاف بين الدار الآخرة والدار الدنيا ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فالدارة الآخرة خير للذين يتقون الله تبارك وتعالى بترك ما نهى عنه، والعمل بما أمر به، فالباقي خير وأحسن وأفضل من الفاني الزائل، ثم يستثير النص الكريم التفكير في مسلكهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سؤال استنكار لمنهجهم ومسلكهم، بما يفيد التوبيخ، وتأكيد عنادهم بهذه الحجج والتصرفات، بما يؤكد عنادهم وفداحة جرمهم، وجاء السؤال الاستنكاري موجهاً لهم مباشرة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فلم يقل الله تعالى أفلا يعقلون، بل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ليفيد شدة عتاب المخاطبين في عهده صلى الله عليه وسلم، ولمن بعدهم.

ثم يبين الله تعالى حال الذين تمسكوا بالتوراة، وما وعدهم الله تعالى به ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: بالعمل به، وفي دلالة ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ ما يفيد الملازمة والمعاهدة للكتاب، وكذلك يفيد التكرار والتكثير والمبالغة في التمسك بكتاب الله تعالى؛ بما يدل على شدة التمسك بأحكام التوراة، فاستوعبت معنى ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ دلالات متعدد، أغنت عن جَمْعٍ من الكلمات والألفاظ. قال مجاهد رحمه الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ من يهود أو نصارى[٢] فيعملون بما في كتاب الله تعالى ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يقيمون أداء الصلاة بحدودها، فلا يضيعون أركانها وواجباتها وأوقاتها، ثم يبين الله تعالى جزاء من قام بذلك من عباده ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فإن الله تعالى لا يُفقدهم أجر وثواب صلاحهم، وقد سماهم الله تعالى ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ لأنهم صالحون في أنفسهم ومصلحون لغيرهم، فصلاحهم في أنفسهم بإقامة الكتاب، ومصلحين لغيرهم بدعوتهم للهداية والصلاح.

ومن رحابة فائدة الآية الكريمة أنه يمكن تخصيص وتعميم المعنى، فيمكن تخصيصه بمن فيهم السياق، وهم اليهود، وينضم إليهم النصارى، ويمكن تعميمه ليشمل هذه الأمة، إضافة إلى اليهود والنصارى الذين آمنوا

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٩/٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤٢/١٠)

بالله تعالى وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، لأن كتبهم قد تضمنت ذلك، فإيمانهم به صلى الله عليه وسلم دليل على تمسكهم بالكتاب: التوراة والإنجيل، لأن كتبهم تُقر نبوته صلى الله عليه وسلم، وأما من لم يؤمن برسالته صلى الله عليه وسلم فلا يدخل في ذلك، لأنه لم يتمسك بما جاء في كتبهم، ولأن من لوازم كتبهم الإيمان بالنبي الأمي عليه الصلاة والسلام.

ويقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ واذكر لهم يا أيها النبي إذ اقتلعنا الجبل فرفعناه فوق بني إسرائيل كأنه من ارتفاعه ظلة غمام على بني إسرائيل ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ مما يبين عظمة الله، وقوة قدرته، وقوة حجته عَزَّ وجل التي أظهرها الله تعالى لهم، حتى اعتقدوا أن الجبل سيقع عليهم من ارتفاعه فوقهم ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ فأيقنوا وخافوا أن يقع الجبل فيسقط عليهم انتقاماً منهم ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ أي: خذوا ما آتاكم ربكم بعزيمة العمل وجد الانقياد، وبقوة الطاعة، مما يفيد أن واجب العبد أن يأخذ ما جاء عن الله تعالى بجد وعزيمة، وأن لا يتهاون فيه أبداً، ولا في شيء منه ﴿ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ اقرأوا الكتاب، وأقيموا الأحكام التي فيه، والتزموا بتحقيقها وتطبيقها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ رجاء منكم أن تنالوا التقوى، فتتقوا ما نهاكم الله تعالى عنه، وتعملوا بما جاءكم به من الحق، مما يفيد: أنه حال أنكم لم تقوموا بما أُمرتم به أهلكناكم بهذا الجبل، واستأصلناكم جميعاً. وليعني التهديد والتقريع لهم، فأي آية أبلغ من هذه المشاهدة للجبل وهو يرتفع فوقهم حتى أصبح كأنه سحابة تظلهم. فنسأل الله تعالى الهداية والتوفيق.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ

ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى الوعظ والتذكير بما فطر الله تعالى عليه الإنسان ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ أي: واذكر يا أيها النبي والمؤمنون تبعٌ له إذ استخرج الله تعالى من ذرية بني أدم خلفاً بعد خلف، وسلالة بعد سلالة ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ إذ استخرج ربك من ذرية بني آدم ﴿ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ أي: من أصلابهم سلالة بعد سلالة ﴿ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾ فشهدوا على أنفسهم بربوبيته، فأشهدهم الله تعالى على ربوبيته بسؤال تقريري ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾ أليس الله تعالى هو ربكم وخالقكم، وأنه لا إله إلا هو، فأجابوا على ما أشهدهم الله تعالى عليه بتقريرهم واعترافهم على ما أشهدهم عليه من وحدانيته وربوبيته وألوهيته ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ ﴾ فاستجابوا وشهدوا وقرروا شهادتهم لله تعالى بما أشهدهم عليه، أي شهدنا بذلك يا ربنا، فأنت ربنا ومالكنا وإلهنا ومعبودنا، مما يفيد ويدل على أن الله تعالى جبل وفطر بني آدم كلهم على ذلك. وهذه نعمة عظيمة ومِنَّة كريمة من الله تعالى على بني آدم كلهم، بأن فطرهم على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته، كما جاء في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه)[١] وذكر ابن الجوزي أنه قيل: إنما قال الله تعالى ﴿ مِن ظُهُورِهِمۡ ﴾ ولم يقل: من ظهر آدم، لأنه أخرج بعظهم من ظهور بعض، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم، لأنه قد عُلِم أنهم بنوه[٢] وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: مسح ربك ظهر آدم، فخرجت كل نَسَمَةٍ هو خالقها إلى يوم القيامة بنعمان، هذا الذي وراء عرفة، وأخذ ميثاقهم ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ ﴾[٣]

فهذا الميثاق من الله تعالى هو ما يجده كل إنسان في نفسه أن الله ربه، وأن لهذا الكون رب واحد قد خلقه، وإن حصل انحرف فإن هذا الانحراف بسبب المخالطة والتأثير والتربية؛ كما جاء في الحديث السابق

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤٢٤/١) برقم (١٣٨٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٣/٣)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤٨/١٠)

من قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه) وبالتالي فإن هذا الميثاق الفطري الجبلي حتى لا يقول أحد أنني كنت غافلاً عن هذا ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ أي: حتى لا تقولوا يوم القيامة: كنا غافلين عن توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ أو تعتذروا بعذر آخر ﴿ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ أو تعتذروا بإلقاء اللوم على شرك وكفر الآباء، وأنكم اتبعتموهم بالاقتداء ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ فما نحن إلا ذرية منهم، فاتبعنا مناهج من كان قبلنا من الآباء. فلا تؤاخذنا يا ربنا ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ أتؤاخذنا وتهلكنا بما فعله آباؤنا من الباطل، فسموا آباءهم ومن قبلهم ممن اقتدوا بهم ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ فأبطلوا بذلك الشرك، وسموه باطلاً، والفاعلون له مبطلون ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ فحتى لا يحصل مثل هذا القول، فإن الله تعالى بفضله ورحمته جبل وفطر بني آدم على توحيده، لأنه لا يُقبل الاعتذار بأعذار الاقتداء بالمنحرفين عن الهدى يوم القيامة ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ فقطع الله احتجاج كل محتج بأنه فَعَلَ بفعل غيره اقتداء. وبالتالي فمن كفر أو أشرك فقد خالف الفطرة الصحيحة التي فطر الله الناس عليها. مما يفيد أن الإنسان مسؤول عن نفسه، وأنه لا يتحمل غيره عنه وزره، فكل نفس مرهونة بما كسبت، وفي هذا إنذار لكل أحد من عباده، مما يوجب على الإنسان بأن لا يقتدي بأي مسلك من عند غير الله تعالى، فيلزمه ألا يسير إلا وفق برهان من الله تعالى.

ثم يؤكد الله عَزَّ وجل أنه كما بين لبني آدم التفاصيل في أخذ الميثاق، كذلك فَصَّل وبين لهم الحجج والبراهين ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ كذلك، وبمثل ذلك نبين الحجج والأدلة والبراهين ونفصلها ونوضحها ليتدبروها، فيعملوا بموجبها ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ لكي يرجعوا عن الذي هم فيه من الكفر والشرك إلى توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة. مما يفيد ويبين أن تفصيل الله تعالى الآيات وتبيانها هو للتدبر والتعقل، بما يحقق العمل بها، من توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، وطاعته بتطبيق أحكامه وشرعه.

ويوجه الله تبارك وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقرأ على قومه وعلى غيرهم خبر الذي علمه الله تعالى كتابه، حتى صار فيه عالماً، فأهمله ولم يأخذ به ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ

﴿مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فعظهم، أي: عظ قومك وغيرهم، عن ﴿نَبَأَ﴾ عن خبر هذا الرجل الذي أنعم الله تعالى عليه بالعلم، فآتاه الله تعالى آياته ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: الحجج والبراهين ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: تركها وأهملها، فلم يعمل بها، وقد ذكر أهل التفسير اختلافاً في تحديد هذا الرجل، فقيل: أنه رجل من بني إسرائيل، اسمه بَلْعَم، وقيل رجل اسمه بَلْعَم من أهل اليمن، وقال آخرون إنه أمية بن أبي الصَّلت[١] وكان أمية بن أبي الصلت قد قرأ الكتب، وعلم أن الله مُرْسِل رسولاً، وكان يرجوا أن يكون هو، فلما بعث الله تعالى النبي محمد صلى الله عليه وسلم حسده وكفر[٢] ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ وانسلخ منها، أي: خرج عن آيات الله تعالى التي أنعم بها عليه بمعرفتها.

وكلمة ﴿فَٱنسَلَخَ﴾ تدل على النزع وشدة الانفصال، فتخلى عنها، فلم يعمل بها، تاركاً لها، كأنه لم يعلمها، مما يدل على أنه قاصداً متعمداً ذلك الفعل. مما يفيد أهمية سؤال الله تعالى الهداية والثبات، وألا يغتر الإنسان بحوله وقوته، بل يكثر من الالتجاء إلى الله تعالى، سائلاً الثبات وحُسن الخاتمة، وأن لا يمنعه الحسد من اتباع الحق. وأما من حيث تحديد هذا الرجل؛ فجائز أن يكون هذا الرجل هو بلعم، وجائز أن يكون أمية بن أبي الصلت، وقال السعدي رحمه الله تعالى: ويحتمل أن المراد بذلك، أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله تعالى آياته فانسلخ منها[٣] فالمعنى لا يتغير بمعرفة الرجل بعينه، سواء كان ذاك أو ذاك، أو أنه عام في كل من عرف آيات الله تعالى ثم انسلخ منها وتركها، كأنه لم يعرفها من قبل.

فلما انسلخ منها، ركبته الشياطين بمتابعته لغوايتها ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فأدركته الشياطين، مما يدل على أن الشياطين كانت ممتنعة عنه، فلا تستطيع الوصول إليه، ولا تستطيع أن تدرك منه حاجتها لقربه من الله تعالى بطاعته، فلما تخلى عن آيات الله تعالى استحوذت عليه الشياطين، مما يدل على أن آيات الله تعالى حرز وحفظ من البلاء ومن الشياطين لمن أخذها، وعمل بها ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فأصبح من الهالكين الذين اتصفوا بالغي وهو الضلال، فأصبح مع الشياطين.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٦٦/١٠-٥٧١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٤/٣)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٧٣/٢)

ويقول عَزَّ وجل عن هذا الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ فلو شئنا لرفعناه بآياتنا التي آتيناه، إذ لو تمسك بها ولزم العمل بها، ولم ينسلخ منها لكانت سبباً له في الرفعة والعلو ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ لكنه اختار الحياة الدنيا، ومال إليها، وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة، وجملة ﴿ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ تفيد ملازمته للأرض، واشتداده بها، بما يفيد تولّع قلبه بها وبمغرياتها وشهواتها، فآثرها على الآخرة، فكانت ميوله إلى الدنيا أقوى، ورغبته بزينتها وزخرفها أشد من الآخرة، مما جعله ينسلخ من آيات ربه عَزَّ وجل، وكذلك هناك أمر وباعث آخر، وهو اتباعه لهواه ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ فاتبع ما يهواه، وترك العمل بما تقتضيه آيات ربنا تبارك وتعالى بعد أن علم بما يستوجب عليه منها، مما يفيد الحذر من أمرين خطيرين، وهما إيثار ملذات الدنيا على الآخرة، واتباع الهوى الذي يهوي بالإنسان إلى الهاوية.

وضرب الله تعالى بصفة هذا الرجل في لهثه نحو الدنيا بالكلب في خساسته ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ أي: فصار مثله مثل الكلب في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بما عَلِم من آيات الله تبارك وتعالى فكان كالكلب في أخس وأذل أحواله، من اللهث الذي لا ينقطع، فإن حملت عليه يلهث وإن تركته يلهث. فلا ينقطع عن لهثه على أي وجه كان. مما يدل على انحطاطه إلى أدنى رتبة من رتبة الحيوانات في الدناءة، بل إلى أسفل ما يمكن أن يكون من دناءة الكلب، وهو اللهث الذي لا ينقطع منه، فكأنه لم يشبع ولا يشبع أبداً مهما نال من شهوات الدنيا، ولم يَعُد يتعظ وينزجر عن المعصية، فهو يجري خلفها. ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ فالذين كذبوا بآيات الله تعالى كمثل هذا المثل الخسيس الذي ضُرِب آنفاً للرجل الذي انسلخ عن آيات ربه، فكل كافر ترك ما فُطر عليه، بما أخذه الله تعالى عليه من الميثاق، وجحد رسالة الرُّسُل، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن حاله كمثل حال ذلك الذي يجري وراء شهوات الدنيا إيثاراً لها على الآخرة، دون أن يشبع منها، فهو يلهث كالكلب نحوها، فلا تردعه موعظة، ولا تزجره آية، ولا يتأثر بترغيب ولا ترهيب، فالتزم شهوات الأرض، وآثرها على الآخرة، والكلب نباح دائم، سواء أعطيته أو منعته، وكذلك الكافر الذي لصق بملذات الأرض وشهواتها كالكلب، فكما أن الكلب يلهث إن أعطيته وإن منعته، فكذلك الكافر.

ويأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقص على قومه وعلى اليهود وعلى غيرهم من القصص الذي ذكره الله تعالى ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فلعلهم بهذا القصص يتدبرون ويتعظون، فينزجرون عن كفرهم، ويدخلوا في دين الله تعالى، مما يفيد أهمية قصص القرآن الكريم في الوعظ

والإرشاد والبيان، وتقوية الإيمان لما فيها من عظيم الحق والخير، الذي يردع النفوس، ويثير العقول نحو التدبر والتفكر في الواقع وفي المآل.

ثم يقول عزَّ وجل ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ فساء من تَمَثَّل بهذا المثل، وهذا الاقتداء والتأسي بحال الكلب في خساسته؛ من الذين كذبوا بآيات الله تعالى، وساء الذين مَثَلُهُم كمثل القوم الذين كذبوا بآيات الله تعالى، وساء مثلهم أن شُبِّهُوا بالكلب الذي يلهث، فمن ترك حيز الدين وحدوده واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب الذي يلهث في كل أحواله ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ فما ظَلَمُوا بالتكذيب والكفر إلا أنفسهم، فأوقعوا الظلم على أنفسهم بأنفسهم، فلم يظلمهم الله تبارك وتعالى، وقد أرسل لهم الآيات والرسل، وأخذ عليهم الميثاق الذي فطرهم الله تعالى عليه بتوحيده. فقد جمع هؤلاء بين التكذيب بآيات الله تعالى وبين ظلمهم لأنفسهم.

ثم يختتم الله تعالى ذلك بموعظة عظيمة جليلة، فيبين الله جَلَّ جلاله حقيقة حال المهتدي، وحقيقة حال الضال ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ فمن يهديه الله تعالى فهو الذي أصاب الهداية، وتحققت له، مما يفيد أن يسأل المؤمن ربه تبارك وتعالى أن يهديه، وأن يثبته على الهداية؛ حتى لا يضل بالفتن، فإن عصمه الله تعالى بتوفيقه وهدايته، فلن يضله مُضل ولا ضلال أبداً، وفي قوله تعالى ﴿ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ ما يفيد بقاؤه على الهداية حتى يتوفاه الله تعالى عليها، وكذلك يفيد حاجة المؤمن للثبات على الحق، الذي يملكه تبارك وتعالى، ويمنحه لمن يشاء من عباده، وأما القسم الآخر ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ وأما من يتبع الضلالة فهم الذين تحققت فيهم خسارة الآخرة. فإن الذي يخذله الله تعالى بسبب كفره فإنه لا يوفقه عزَّ وجل للخير الذي يتحقق له به ربح الآخرة والفوز بالجنة، بل تتحقق له الخسارة الفادحة. فإضلال الله تعالى له بسبب ضلاله وعناده، كما قال تعالى في سورة الزخرف ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ فما ظلمهم الله تعالى، بل هم الذين أوقعوا أنفسهم في الظلم، والعذاب المهين. فمن يعدل عن الصراط المستقيم، وينصرف عن هداية الله تعالى فقد ضل، بعدوله عن صراط الله تعالى المستقيم، وأولئك هم الموصوفون بالخسارة العظمى، بأن خسروا مرضاة الله تعالى، وخسروا الجنة، وألحقوا بأنفسهم الخسارة الأبدية.

﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

يخبر الله تعالى بعظيم علمه وحكمة تدبيره، وشدة عذابه لمن أدبر عن دينه فعصاه. فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ فلقد خلقنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، يُعَذَّبُون فيها لقاء كفرهم، وذلك لعلم الله تعالى السابق بما سيكونوا عليه قبل أن يخلقهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) [١] مما يدل على عظيم علم الله تعالى، وتدبيره للأمور قبل حدوثها، وقد بين الحق عَزَّ وجل صفة هؤلاء ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾ فلا ينتفعون بوسائل الانتفاع التي منحها الله تعالى لهم ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا ينتفعون بقلوبهم في الوعي والإدراك، وما يتبعه من الاهتداء، فقد أعطاهم الله تعالى قلوباً ليتعلموا وليتفقهوا ويفهموا ويفقهوا بها الحق، ولكنهم لم ينتفعوا بها، مما يدل على أن القلب هو محطة العلم والفهم والتَّفقه، وهؤلاء لم ينتفعون بقلوبهم، وذلك بتعطيلها عن الحق، فيصدونها عن الهدى.

وكذلك من وسائل الانتفاع الأبصار التي عطلوها وصرفوها عن الحق ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ فقد زودهم الله تعالى بأعين يبصرون بها الآيات الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى، ولكن لم ينتفعوا

---

(١) مسلم، صحيح مسلم (٢٠٤٤/٤) برقم (٢٦٥٣)

بها في الخير، بل يستخدمونها فيما هو ضرر عليهم ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ كما زودهم الله تعالى بآلة السمع، ليستمعوا ويسمعوا بها كلام الله تعالى، والمواعظ، فعطلوها عن الحق، ولم ينتفعوا بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ فمثل هؤلاء في عدم انتفاعهم بنعمة القلوب والأعين والسمع كمثل الأنعام، بل إنهم أضل من الأنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فهم أكثر ضلالة من الأنعام، لأن الأنعام تستجيب لراعيها وإن لم تفقه ما تسمع، فتفعل ما خُلقت له، بخلاف الكافر الذي لا يستجيب لداعي الخير، بل يعمل بضده، فيجري لما لم يُخْلَق له، فقد خلق الله تعالى الإنسان لعبادته، وهو يجري لغير عبادة الله تعالى، والأنعام تستجيب، وهو لا يستجيب، والأنعام تفعل ما خُلقت له، وهو يصد عما خُلِق له، فهي أفضل منه، وهو أضل منها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ فصفة هؤلاء الغفلة عن مصالحهم الأخراوية، وجريهم وراء الدنيا الفانية. فإنهم هم المتصفون بالغفلة، فهم الذين يحملون صورة وهيئة الغفلة في نفوسهم، ففي اسم الإشارة ﴿هُمُ﴾ أفاد التعيين، أي أولئك المعينون، متلبسون ومتصفون بالغفلة وممارسون لها، حتى أصبحت صفة لهم، ومرتبطة بهم، ووشاح لهم وعلامة، فاتصفوا بعدم التمييز، وإهمالهم لما ينفعهم، ووقوعهم فيما يضرهم، وتركهم للخير الماثل أمامهم، والواضح لهم وضوحاً لا شك فيه. مما يدل على أن هذه الصفة تجعل الإنسان يقدم على الشر ويترك الخير، بسبب سوء استعماله لحواسه، وسوء تحليله وتفكيره وتدبيره، وقصور النظر على الحاضر، دون النظر والاكتراث بالقادم، والاهتمام به، وتقديم محبة العاجل على الآجل. وأن صنيعهم فَوَّت عليهم عظيم الخير، وأودعهم في شراك الشر. وفي هذا بيان من أن القرآن الكريم يُبَصِّر الإنسان، ويُفَتِّح عقله على الخير، وينمي فكره، ويربيه على اليقظة والانتباه، وعدم الغرور بالمغريات الفانية. فنعمة القرآن عظيمة. اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما خص الله تعالى به نفسه جَلَّ جلاله من الأسماء الحسنى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فهو المتفرد بالأسماء الممدوحة بالكمال والثناء، الكاملة الْحُسن والمعاني. مما يدل على جلالها وعظمتها ونفاستها، وعظيم دلالة كل اسم منها. ولذلك أمر عباده أن يدعوه بها، بل ومن حُسنها ودقة معانيها أن كل اسم يحمل أعظم المعاني والصفات التي اتصف بها ربنا تبارك وتعالى. وفي هذا توجيه من الله سبحانه وتعالى إلى تعلم عباده بأن له الأسماء التي قد اتصفت بكمال الحسن، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال (لله تسعة وتسعون اسما ـ مائة إلا واحداً ـ لا يحفظها أحدُ إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر)[1] وقد أمر الله تعالى عباده بأن يدعوه بأسمائه الحسنى، ومن جميل صفاتها أنها اتصفت بالحسن والكمال

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٧٤/٤) برقم (٦٤١٠)

والجمال ﴿ فَٱدۡعُوهُ بِهَا ﴾ كأن يقول الداعي: اللهم اغفر لي وارحمني يا غفور يا رحيم، أو إنك أنت الغفور الرحيم، وارزقني يا رزاق يا كريم. وفي هذا التوجيه من الله تعالى ما يفيد أن الله تعالى يحب من عباده أن يدعوه بأسمائه وصفاته، وأن في الدعاء بها تبجيل وإجلال لله تعالى، ثم وجه عَزَّ وجل إلى التأدب معها ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ ﴾ وهم الذين يميلون بها عما يجب فيها ولها من التقدير والإجلال. فاتركوا واجتنبوا الذين يحرفونها، أو يعطلون معناها، أو أن يشبه بها غيرها، أو يطلقها على غير الله تعالى من المخلوقات. مما يجب الحذر من ذلك تعظيماً لله تعالى، وانقياداً لأمره، وحذراً من عقوبته التي قال عنها ﴿ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ فسيتم محاسبتهم ومجازاتهم على إلحادهم في أسمائه عَزَّ وجل.

ثم يبين تبارك وتعالى أن هناك صنفاً من عباده يقومون بالحق ويدعون إليه ﴿ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾ فإن ممن خلقنا من عبادنا من يلتزم بالحق، ويدعو غيره إليه. وقد وصف سبحانه وتعالى هؤلاء بوصف وصفة الأمة، أي: جماعة ليست بالقليلة، فإنهم يتصفون بالاهتداء ولزوم الطاعة، ويتخلقون بأخلاق الإسلام، ويقيمون حدوده، ويحكمون بها، ويحققون مقاصده، ويرشدون غيرهم إليه، وفي هذا مدح وثناء لهذه الأمة المؤمنة القائمة بما يجب عليها، ومقابل هذا فإن هناك مكذبين بآيات الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فهؤلاء المكذبين الكافرين ﴿ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فإن عقوبتهم أن الله تعالى يأخذهم بالتدريج من حيث لا يعلمون أنه استدراج لهم، قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدون أنهم على شيء[١] ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ أي: أطيل لهم المدة، فلا يعاجلهم بالعقوبة، إمهالاً لهم ﴿ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ فإن صفة كيد الله تعالى الذي هو مكره، إنه شديد قوي، مما يفيد الحذر من المعصية ومن مغبتها، ومن حلم الله جَلَّ جلاله، وعدم معاجلته للعاصي، فإن الله تعالى يمهل ويمد للظالم حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

ويقول الله تعالى عن هؤلاء المكذبين ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ وجملة ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ تفيد الإنكار عليهم إذ لم يتفكروا في أمر رسول الله صلى الله عليه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٨١)

وسلم ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ فليس به جنون صلى الله عليه وسلم يمنعهم من سماعه والاهتداء بهديه، وفي هذا تزكية له صلى الله عليه وسلم من كل مانع يمنعهم من الإيمان بنبوته ورسالته التي جاء بها عن الله سبحانه وتعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فإنما نبوته ظاهرة بينة بأنه نذير من الله تعالى، فينذرهم ويحذرهم من عذابه وعقابه لمن كفر. وأكد الله تعالى ذلك ببيان صفة إنذاره بأنه ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: أن نذارته واضحة جلية، وواضح أنه نذير لمن كفر بأن مصيره العذاب الشديد، وواضح أن ما جاء به ظاهر وبيِّنٌ لا لبس فيه، وأنه رسول مُوضح ومبين للحق ولما ينذر منه، بما تنتفي معه الجهالة تماماً. وقد ذكر الله تعالى في هذا المقام أنه نذير ولم يذكر بأنه بشير، لأن النذارة تكون للكافر والعاصي، والخطاب هو للكافرين من قومه ومن غيرهم ممن لم يؤمن به، وأما البشارة فتكون لمن آمن. فخصهم بما يناسب المقام والحال، وهذه من دقائق البيان الكريم في القرآن العظيم.

ثم يلفت الله تعالى الانتباه إلى ملكوت السماوات والأرض بسؤال استنكاري ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ وجملة ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ تفيد النظر بالبصر وبالبصيرة، أي بالعين المبصرة، التي يتحقق بها التفكر والتأمل في ملكوت الله عَزَّ وجل، الذي يهدي ويسوق الفكر إلى أن هذا الملكوت لا يكون إلا لله تعالى. وهو سؤال تعجب من حالهم، وكذلك إنكار وتوبيخ وتقريع من صدودهم عن رسالة الله تعالى، وعن حججه وعن نبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وتحديداً عدم تأملهم في آيات السماوات والأرض، وجميع ما خلق الله تعالى، أفلا يَعْقِل هؤلاء؟ أفلم يتفكروا وينتفعوا بنعمة التفكير التي أنعم الله تعالى بها عليهم؟ فلو استخدموها لفقهوا بها وآمنوا. مما يفيد أهمية التفكر في ملكوت الله تعالى، فإن التفكر فيها يعيد العقل للصواب، ويتقوى به إيمان المؤمن، ويستدل به الكافر على ربوبية الله تعالى وألوهيته، وأنه الواحد الأحد، وأنه رب كل شيء ومالكه، ومصرفه، وأن له كمال السلطان والتدبير.

إن لله ربكم ملك السماوات والأرض ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم أكد ذلك بأسلوب التعميم، وكذلك ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ فإنه له وحده، وليس لغيره فيها شيء، ليتقرر بذلك بطلان الشرك، ونفي الشريك، مما يترتب عليه كمال توحيده، وإفراده بالألوهية، والربوبية، والعبادة. فإن لله سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك كله، وله الخلق كله، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فله وحده سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة.

وقد شملت دلالة ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كل ما ارتفع وعلا مما يراه الإنسان ومما غاب عنه فلا يراه. ومن ذلك الأفلاك والأجرام والسحاب وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وقد شملت ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ جميع ما هو عليها، أو ظاهر على سطحها، أو بداخلها، مما لا يراه الإنسان. فاستوعبت دلالة ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى مما يراه الإنسان وما لا يراه، بأن قَصَّرَت حواسه عن إدراكه ورؤيته، وهذا من عظيم البيان في كلام الرحمن.

فهو سبحانه وتعالى مخترع ومبدع هذا الكون، وبالتالي فإن الذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة، وهذا الإبداع فإنه هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته. وبما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته، وسعة وعظمة ما خلق، فَدَلَّ ذلك على أن كل شيء عبد له، وتحت مشيئته وسلطانه وقهره سبحانه وتعالى، وأنه هو القاهر فوق عباده، مما يلزم طاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه.

وقد استهل البيان بأداة الاستفهام ﴿أَوَلَمْ﴾ التي تثير الفكر إلى تدبر ما يُسأَلُون عنه، ثم أعقبه الإشارة إلى غفلتهم عن النظر إلى الأدلة الكونية ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾ فشمل النظر: الرؤية والمشاهدة البصرية بالعين، ونظر ورؤية البصيرة. مما يفيد أهمية لفت ذهن المتعلم إلى المحسوس، ليستدل به على غيره من المحسوسات أو الغيبيات التي يتم إخبارهم عنها، وما يتعلق ويرتبط بها من المغيبات، ليرتقي عقل المتلقي في التحليل والاستنتاج إلى الحقائق وإدراكها إدراكاً حقيقياً كما هو منهج القرآن الكريم. فهو استفهام استنكار وتعجب من جهلهم، وتغافلهم عن المحسوسات الدالة على صدق ما يُخبَرُون به من المغيبات. فمن كانت قدرته قد خلقت السماوات والأرض التي هي أمامكم، وهي في غاية الدقة والعظمة، فإنه من باب أولى أن يكون قادراً على إعادة الخلق بعد الفناء.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى تحذيرهم بالآجال المحتومة، فقال الله تعالى ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: أفلم ينظروا في شأن آجالهم، فلعل آجالهم قد اقتربت، فيسارعوا في طلب الحق الذي ينجيهم من عذاب الله تعالى، ويحقق لهم النجاة والفوز، ثم يوجه الله تعالى سؤال استفهام، يفيد التقريع والتوبيخ نحو عنادهم أمام هذه الحجج والبراهين التي ساقها الله تعالى ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ فما هو الحديث، وما هي الآيات التي يريدونها ليؤمنوا؟ إنه تعجب من أمرهم وحالهم. فبأي حديث يؤمنون بعد هذا الذي سقناه لهم من الحجج والبراهين؟ مما يفيد أن التفكر في الآجال يدفع الإنسان إلى اللحاق بركب أهل الخير

والطاعة والامتثال، والبعد عن المعاصي، وعن شهوات الدنيا وغرورها وزخرفها. وأن في تناسي الآجال ما قد يجعل المرء يتعلق بملذات الدنيا وغرورها. فنسأل الله تعالى عفوه وعافيته وهدايته وحسن الخاتمة.

ثم يقرر الله تعالى ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ فإن من يضلله سبحانه وتعالى بأن يكتب عليه الضلالة بسبب تماديه في الضلال فلن يهديه شيء بعد هذه الحجج والبراهين، ولذلك ليس لهم من عقوبة الدنيا إلا تركهم في ضلالتهم يتحيرون ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يتركهم في الطغيان الذي هو مجاوزة الحد من العناد والتكبر على الله تعالى وعلى آياته ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يصلون للهداية، بل هم متحيرون مترددون.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى سؤال من سأل من قوم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أو اليهود بالمدينة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ أي: يسالونك متى يحين موعد يوم القيامة، متى يحين وقت وقوعها، وفي تسميتها ﴿ ٱلسَّاعَةِ ﴾ ما يفيد سرعتها، وبغتتها، ولفظة ﴿ أَيَّانَ ﴾ أي: متى. ولفظة ﴿ مُرْسَىٰهَا ﴾ هو وقت إرسائها وإثبات وقوعها، فمتى يثبت وقوعها ويحين، فيأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ فإن علم وقت وقوعها عند ربي، وفي هذا حصر لعلم موعدها عند الله عَزَّ وجل، فلا يعلم موعدها إلا هو تبارك وتعالى، فإن حرف ﴿ إِنَّمَا ﴾ أداة حصر، فلا يظهرها لوقت وقوعها إلا هو سبحانه وتعالى، وكلمة ﴿ يُجَلِّيهَا) أي: يبينها ويظهرها. وفي إخفائها ما يستدعي الطاعة، والخوف من حصولها وحال العبد في معصية، فهي زجر وتأديب لمن خاف عذاب الآخرة.

ثم يقول الله عَزَّ وجل عن عظمة هولها ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: عظم أمرها وشأنها. وقد حمل همها أهل السماوات والأرض، فإن ثقل وقوعها عليهم عظيم، كما أن شأنها وأمرها ليس سهلاً بل إنه أمر عظيم، كما أن وقوعها غير معلوم لدى الخلائق ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ فلا تحدث وتحصل إلا فجأة،

وكلمة ﴿ تَأۡتِيكُمۡ ﴾ من الإتيان والمجيء، فأدى هذا لبيان إلى تعظيم شأنها وقوة هيبتها، لما في الإتيان والمجيء من التهويل وتعظيم الأمر.

ثم يقول تعالى عن سؤالهم للنبي صلى الله عليه وسلم بما يفيد التعجب ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا ﴾ يسألونك وكأنك عالم بها، ومستقصي لأمرها بكثرة السؤال عنها، فسؤالهم للنبي صلى الله عليه وسلم وكأنه مستقصي لأمرها، فأصبح عالم بها، فَيُطْلِعَهُم على شأنها، فيأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بقوله تعالى ﴿ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وهو تأكيد بيان لما جاء في صدر الآية ﴿ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ فيقرر حصر علم الساعة عند الله تعالى وحده لا شريك له. ثم يبين الله تعالى جهل الناس بحصرية علم الساعة ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فأكثر الناس يجهلون أن الله تعالى استأثر بعلمها، وأن وقعها عظيم الشأن.

ثم يوجه الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ قل يا نبي الله لسائليك عن أمر الساعة: أنني لا أستطيع أن أجلب لنفسي نفعاً، ولا أدفع عنها ضراً إلا بما يشاء الله تعالى أن أملكه أو أدفعه من ذلك، فيعينني عليه، وفي هذا بيان تفويض جميع الأمر لله تعالى ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ باستثناء ما يشاء الله تبارك وتعالى أن يمكنني ويعينني عليه، فيتحقق به خيراً، أو يدفع به شراً. فكيف أكون عالماً بالساعة ووقت وقوعها وأنا هذه حالي في نفسي. فمن هذه حاله عن نفسه؛ فإنه لا يستطيع أن يعلم الغيب. مما يفيد أنه إذا كان هذا هو حال النبي صلى الله عليه وسلم علماً وقدرة؛ فإن غيره أولى باعتقاد هذا وتفويض الأمر لله تعالى، وسؤاله التوفيق والتسديد، والاستعانة به في جلب الخير ودفع الضر. وهي قاعدة عظيمة للمؤمنين.

وفي قوله تعالى ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ ما يفيد أن النبوة لا تعني معرفة الغيب إلا بما يُطلع اللهُ تعالى نبيه عليه، وأن هذه المعرفة ليست من لوازم النبوة، وأن الله تعالى هو المتصرف، وهو الذي يخص نبيه بما يشاء من القدرة والعلم، فلا يستطيع أن يعلم ما لم يُعَلِّمهُ الله تبارك وتعالى، حتى نفى عن نفسه صلى الله عليه وسلم ما يخص خاصة نفسه عليه الصلاة والسلام، وجاء البيان بنفي الْمُلْك ﴿ لَّآ أَمۡلِكُ ﴾ ليتجاوز به نفي حصول المعرفة والعلم بالشيء فضلاً عن تحقيقه وتحصيله، فقد يعرف المرء ما يحقق له نفعاً أو يدفع له ضرراً ولكن لا يملك تحقيقه، لا تحصيلاً ولا دفعاً. فكانت كلمة ﴿ لَّآ أَمۡلِكُ ﴾ أكثر

تحقيقاً وإيضاحاً في هذا المقام من كلمة لا أعلم، ليدرك الإنسان عمق دقة بيان القرآن، إلى درجة الإعجاز البلاغي والبياني في دلالته.

ثم ينتقل البيان الاستدلالي في تدرجه من التبرؤ من معرفة الغيب إلى الاستدلال بالدليل الحسي ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ فلو كان علم الغيب متحقق لي؛ لاستكثرت من جمع الخير وتحصيله في كل أمر، ولكن انتفاء استكثار الخير دليل على عدم العلم بالغيب، وكذلك لو كان علم الغيب متحقق لي، لدفعت الشر وتلافيته وتحوطت منه قبل وقوعه، فإذا انتفي ما يخص خاصة النفس، فإنه من باب أولى أن ينتفي العلم بما هو أوسع وأبعد من ذلك. ثم يبين ما هو مخصوص به صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فاختصاصي هو إنذار العاصي من عذاب الله تعالى، وبئس المصير، وأبشر المطيع بالجنة، وهنا خص المؤمنين بالذكر ﴿ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بما يفيد رفع شأن المؤمنين بالذكر، وكذلك لأن البشارة للمخصوصين بالإيمان والاتباع لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وقد انتفع المؤمنون بالإنذار، فانتقلوا إلى فئة ومرحلة التبشير، فتركوا الكفر وحققوا الإيمان، وأما الكافرين فنوه عنهم بما يتطلب المقام من النذارة فقط. ومن دقة البيان أن الله تعالى أورد الفعل المضارع في هذا المقام ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لتشمل البشارة الذين آمنوا بدخولهم في الإيمان، والذين سيؤمنون من بعدهم إلى يوم القيامة. وأما الذين كفروا فلم ينتفعوا بالإنذار، لينتقلوا للإيمان وعمل الصالحات التي هي مرتكز البشارة.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ
حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ
(١٨٩) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ
مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ
إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ (١٩٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ
يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ
ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ

﴿١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾

ينبه ويبين سبحانه وتعالى قضية الخلق والنشأة لتقرير التوحيد وإبطال الشرك ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يقرر اللهُ تعالى جميع عباده بأنه هو الذي خلقهم جميعاً، شعوباً وقبائل وألواناً متعددة من نفس واحدة، هو آدم عليه الصلاة والسلام، حتى زوجته خُلقت منه ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ فجعل زوجته حواء مخلوقة منه عليه الصلاة والسلام. وهذه آية عظيمة تدل على عظمة الله تعالى وقوة وسعة قدرته.

ثم أوضح تبارك وتعالى علة وجود زوجته حواء ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾ لتكون حواء سكناً لآدم، وأنساً يستأنس بها، فيميل إليها، فتحصل له بها الطمأنينة، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان على ولده، ويحبه محبة نفسه، لكونه بضعة منه[١] مما يفيد أنه يحصل للزوج بزوجته من الطمأنينة ما يجعله يسكن ويطمئن ويرتاح إليها، وهذه آية من آيات الله تعالى، كما قال عَزَّ وجل في سورة الروم ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ فهذه آية إعجاز، إذ يتحقق بالزواج تلك المعاني التي يعيشها الأزواج.

ثم ينتقل السياق إلى عموم جنس بني آدم، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس[٢] وقال السعدي رحمه الله تعالى: فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيراً[٣] فيبين الله تعالى حصول الجماع والولد ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦ﴾ فلما حصل

(١) الزمخشري، الكشاف (١٨٢/٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٨٧/٢)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٧٩/٢-١٨٠)

الجماع حملت بحمل، وكان من صفة هذا الحمل أنه لم يكن شاقاً ﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾ فقد خففه الله تعالى عليها ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: استمر حملها به، فمرت بأطواره، فقامت وقعدت به، وأتمت حملها ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فلما تحول الحمل الخفيف إلى مرحلة الثقل، وذلك لكبر حجمه في بطنها، فأصبح واضحاً على أن النطفة تحولت عبر مراحلها إلى طفل جنين ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فدعا الزوجان ربهما تبارك وتعالى ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فلئن أعطيتنا هذا الجنين مولوداً ﴿صَٰلِحًا﴾ سوياً، سالماً من كل عيب نثني عليك بما أنت له من المدح والثناء الذي يدل على شكرنا لك يا ربنا على هذه النعمة ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أي: فقد أعطاهما الله تعالى ما كانا يطلبانه ويرجوانه من الله تعالى، مما يفيد أهمية الدعاء سواء عند الحمل أو قبله أو بعده، بل طيلة الحياة، فإن الإنسان لا يستغني عن ربه لحظة واحدة ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ فلما رزقهما الله تعالى ما يحبان ويتمنيان جعل الزوجان شركاء في الولد ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الذي هو الولد، وذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن الشرك الذي وقع منهما كان في الاسم لا في العبادة[1] مثل عبد الحارث ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فتقدس وتنزه الله تعالى عما يشرك العباد به من الشركاء، سواء كان في الاسم أو في العبادة. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله تعالى ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثم قال: فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس[2]

ثم يقرر الله تعالى عباده بحقيقة الشرك بأسلوب السؤال الاستنكاري ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فهذا سؤال استنكار لفعلهم، وتقرير للحقيقة التي خالفوها بمسلكهم الباطل، فيحمل النص الكريم تقريعاً وتوبيخاً لهم، واستثارة لعقول من يشرك بالله تعالى مع وجود الحقيقة التي يقررهم بها عَزَّ وجل، سواء

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢٩/١٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٨٧/٢)

آمنوا أم لم يؤمنوا ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أيشركون بالله شركاء لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً، بل إنهم مخلوقين مثلهم، فهؤلاء الذين أشركوهم مع الله تعالى هم مخلوقين مثلهم، فكيف مخلوق يعبد مخلوقاً عاجزاً عن الإيجاد والخلق، فإنه أمر يستنكره العقل فضلاً عن النص وعن الفطرة التي فُطر عليها بني آدم. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي: هي مخلوقة، لأن عابديها ادَّعوا أنها تعقل وتميز، فأُجريت مجرى الناس[١] وهذه مناقشة واستدلال عقلي تبصيري. مما يفيد أهمية المناقشة التي تعيد العقل والفكر إلى صوابه. ومن صفات هؤلاء الشركاء المزعومين أنهم قاصرون عن تحقيق العون والنصر لهم ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ فلا يستطيعون نصر من أشركهم مع الله تعالى، ولا يستطيعون نصر أنفسهم على من عاداهم، فكيف العاجز عن نصرة نفسه أن ينصر غيره، فهذه محاجة أخرى.

ويستمر الخطاب والبيان الرباني من الله تعالى للمشركين عن معبوداتهم من دونه عَزَّ وجل ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴾ قال الأخفش: أي إن تدعوا الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم[٢] فمن صفات هؤلاء الشركاء العجز. فهم عاجزون عن إجابتكم إن دعوتموهم إلى ﴿ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي: إلى الطريق المستقيم، فلا يستجيبون لكم أبداً، لأنهم لا يعقلون، مما يفيد عظيم الخطأ والجرم الذي هم فيه، وكذلك قصور عقولهم، وقبح صنيعهم، فلا يعطون ولا يقدمون هداية ولا يهتدون، ولا يقدمون نفعاً، ولا دفع ضر. مما يوضح لهم أن المعبود الحقيقي هو الذي ينفع عبده، وهو الذي ينصر نفسه وينصر غيره، وهو الذي يخلق ويميت، وهو الذي بيده تصريف الأمور، وهذه المعبودات من دون الله تعالى قاصرة عن ذلك تماماً، حتى أنها قاصرة عن تحقيق النفع لنفسها، فضلاً عن أن تقدمه لغيرها. ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴾ فحال معبوداتكم أيها المشركون في صمتكم كحالهم عند دعائكم لها، ففي كلا الحالتين هم سواء، إن سألتموهم حاجاتكم أم كنتم عنهم صامتون، فلا إن دعوتموهم يجيبون لكم أمراً ولا طلبا، ولا إن تركتموهم يجيبون لكم صوتاً، فحالهم في صمتكم كحالهم عند دعائكم لهم، بل إن ما يعود على الأصنام المعبودة من المشركين أقوى وأكثر مما يعود على المشركين من معبوداتهم، فالمعبودات تجد منهم الحماية والتقديس، وهم لا يجدون من الأصنام شيئاً تمنحه لهم، لأنها جوامد لا تسمع ولا ترى ولا تتحرك. وفي هذا استثارة لعقولهم ومقاييسهم الضيقة الضعيفة، فإنها محاجة قوية من الله تعالى، مما يفيد أهمية التبصير بلفت النظر إلى الحقائق،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٦/٣)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١٧/٧)

وكذلك أهمية المناقشة والاستدلال المنطقي الذي يخاطب بقوة الحقيقة والبرهان لأجل إعادة التائه إلى الصواب وإلى الحقائق العقلية.

ومن جميل السياق رحابته في استيعابه لوجه آخر من الدلالة، وهو أنه يحتمل أن يعود الوصف على المشركين وليس على أصنامهم، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فالمعنى، وإن تدع يا محمد هؤلاء المشركين إلى الهدى، لا يتبعوكم، فدعاؤكم إياهم وصمتكم عنهم سواء، لأنهم لا ينقادون إلى الحق[١] ومن فوائد هذا النظم من الكلام رحابته إذ استوعب تلك الدلالتين بنص واحد، من غير تعارض بينهما، فإن ذلك من الإعجاز البياني وبلاغته.

ويزيد الله تعالى في كشف المزيد من المناقشة الاستدلالية على أنهم اتخذوا الأصنام وهم ظالمون لأنفسهم، وذلك بمخالفتهم أبسط درجات التفكير ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ فالذين تدعونهم وترجون نفعهم من الأصنام، وتتعبدونها، وتاركين ربكم الذي خلقكم فإنهم مثلكم عباد، يتساوون معكم في كونهم مسخرون ومذللون لأمر الله تعالى، فيهم العجز كما فيكم العجز، فكما أنتم عبيد لله تعالى فكذلك هم عبيد، فليسوا بأحرار، لأن كل شيء هو عبد لله عَزَّ في علاه.

وأما في تسميتهم ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ فلئن عابديها ادَّعَوا أنها تعقل وتميز، فأجريت مجرى الناس. وكذلك لأن كل شيء عبد لله تعالى، فالسماوات والأرض وما فيهن عباد لله تعالى، كما قال عَزَّ وجل في سورة مريم ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ ﴾ وذكر الزمخشري رحمه الله تعالى وجهاً آخر عن ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ استهزاء بهم، فقصار أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء، فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم ﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَا ﴾ وقيل: عباد أمثالكم، مملوكون أمثالكم[٢] وهذه المعبودات التي يعبدونها هي ملك لهم، فكيف يعبدون ما يملكون، بل يجعلون لها من يحرسها ويعتني بها، فلو كانت آلهة حقيقية لاستغنت عن حراستهم. وهذه الأوجه غير متعارضة، بل كلها تجتمع لتعطي أوجهاً من البيان الذي تتناسب مع حال الوصف والموصوفين من العابد والمعبود من الأصنام والمشركين.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٧/٣)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١٨٥/٢)

فيقول الله تعالى لهم ﴿ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فاطلبوهم إن كانوا يستطيعون أن يجيبوا لكم طلباً، وسواء دعاء طلب، أو دعاء دفع أذى، أو نداء محادثة لهم، فليستجيبوا لكم ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإن كنتم صادقين في قدرتهم على النفع فليستجيبوا لكم. مما يعني أنهم عاجزون عن الاستجابة لكم؛ فكيف تعبدونها، وهي متصفة بالعجز الكلي؟ وهذه مناقشة استدلالية، تستثير العقل نحو التأمل والتفكر، ليكتشف المشرك بنفسه قصور تفكيره وتصرفه، بل لا يستطيع أحد منهم أن يثبت لهذه الالهة صفة واحدة للحياة أو للاستجابة لمن يعبدها. وهذا المنهج الاستدلالي يدل على أن هذا الدين هو الدين الحق، وليس دين وهم، ولا كذب، بل إنه يناقش المدعو مناقشة عقلية حكيمة.

ثم يُظهر الله تعالى المزيد من الحجج والاحتجاج عليهم، بما يصحح فكرهم ويوقظ عقولهم ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ فجميع الصفات التي يتعامل بها الحي مع غيره مفقودة لدى هذه المعبودات، مما يدل على أنها جوامد لا خير ولا نفع منها، وكذلك الصفات التي تمكن أصنامكم من الحركة مفقودة لدى معبوداتكم من دون الله تعالى، إضافة إلى فقدهم الصفات التي يدرك بها المخلوق ما يحيط به، فإنها مفقودة عند معبوداتكم، فكيف تعبدون جوامد فاقدة للحياة؟ ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ﴾ فهل لهم أرجل يمشون بها في مصالحهم، أو مصالحكم ﴿ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ﴾ أو أن لهم من الأيدي ما يبطشون ويصدون بها الأذى عن أنفسهم وعنكم، أو يعاقبون بها من يقصر في عبادتها؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ﴾ أم لهذه المعبودات أعين يبصرون بها الخير والشر، والنافع والضار؟ ويرون بها المجتهد من المقصر في عبادتكم لها ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أم لهذه الأصنام آذان يسمعون بها تضرعكم وطلبكم واستنصاركم؟

فإنه بالمقارنة بين ما تملكون من قدرات وما لا يملكونه من قدرات يكشف لكم أنكم أحسن منهم خلقاً وحالاً، فكيف يعبد الفاضل المفضول؟ وكيف يعبد العابد من هو أضعف منه؟ بل كيف تعبدون أصناماً عُزَّل، لا حول ولا قوة لها. فهي أسئلة تستثير حقيقة هذه المعبودات. كما أنها اسئلة استدراك على عقولهم، وعلى معبودات لا تستطيع الحركة في تحقيق مصالحها فضلاً عن مصالحكم، مما يبين أن هذا الدين هو دين فكر وتفكر، ودين وعي وحقيقة، لا دين أوهام وكذب، فنحمد الله تعالى أن هدانا بفضله وكرمه للإسلام، فاللهم ثبتنا على دينك وأحسن خاتمتنا.

فبعد بيان الله تعالى لعجز معبودات المشركين، يُظهرُ الله عَزَّ وجل مزيداً من عجزها، وذلك بتوجيه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ فادعوا شركاءكم الذين تَدَّعُون وتزعمون أن لهم القدرة أن يكيدونني بما تشاؤون ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ثم اعملوا أنتم وأصنامكم جميع ما تريدون من أوجه المكر والكيد من غير إمهال، فلا تمهلوني بتأخير ما تريدون من الكيد شيئاً. وهذا غاية التحدي والثقة بالله تعالى، مما يعطيهم رسالة قوية: أن معبوداتكم التي تخافونها وتهابون ضررها، وتُخَوِّفُون غيركم بها، فإنها عاجزة تماماً عن نفسها فضلاً عن أن تجلب لكم خيراً، أو تدفع عنكم من الضر شيئاً، فإن القوة والنصرة لله تعالى. فيقرر ويؤكد لهم بهذا القول أن النصر لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك تقرير لمعية الله تعالى ونصرته لدينه، وتهديد لهم بالتحدي المؤَيَّد من الله تعالى، الذي يتولى نبيه صلى الله عليه وسلم ويتولى عباده الصالحين ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فإن كان أولياؤكم أصنامكم فإن وليي هو الله تعالى. والولي هو الناصر والكافي، مما يفيد أن حقيقتي ليست كحقيقتكم، فوليكم مقهور عاجز، وأما أنا فإن وليي وملجئي وناصري، هو الله تعالى الذي يتولى نصرتي وحفظي، فلا ضرر مع حفظ الله تعالى، ولا هزيمة مع نصرته عَزَّ وجل، وبالتالي فإن هزيمتكم متحققة.

فلا هزيمة مع نصر الله تعالى الذي ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن العظيم، المتضمن للهدى والحق، فكما أنزل عليَّ القرآن العظيم وأيدني به، فهو مؤيدي وناصري عليكم وعلى كل باطل، فالذي أنزل على رسوله الكتاب مؤيداً له، فإنه ناصره وناصر كتابه على كل عدو لهما، فلن أبالي بكم وبكيدكم.

وكذلك فإن ولاية الله تعالى تمتد للصالحين من عباده ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الذين صَلُح إيمانهم، وصَلُحَت أعمالُهم، فإنهم لَمَّا تولوا ربهم تبارك وتعالى تولاهم الله عَزَّ وجل بحفظهم ونصرتهم، مما يدل على استمرار انتصار هذا الدين، وكذلك نصر القائمين عليه، وذلك بولاية الله تعالى للصالحين في كل زمان ومكان، فيحفظهم وينصرهم عَزَّ وجل، فلن يُهزم جند الله تعالى؛ ولن يُخْذَل هذا الدين، ولن يهزمه أحد، فهو أقوى قوة في الدنيا والآخرة، وأنه يعلو ولا يُعْلى عليه أبداً. كما جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر) [١]

---

(١) أحمد، المسند (١٥٤/٢٨) برقم (١٦٩٥٧)

ثم يبين سبحانه وتعالى لهم حقيقة هزيمتهم، وضعف آلهتهم وحقارتها ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ وهذا تكرار تأكيد لما سبق، ليفيد المزيد من البيان والتوبيخ لهم ولعقولهم ولمعبوداتهم الضعيفة، فالذين تدعونهم وتتوسلون إليهم وتعبدونهم فإنهم فاقدي القدرة على عونكم ونصرتكم، بل إن مِن هوانهم أنهم لا يستطيعون دفع الضر عن أنفسهم، فكيف ينصرونكم ويدفعون البأس عنكم. وهذا تكرار تأكيد وتوضيح لما سبق بيانه، وهو قوله تعالى ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾ و ليفيد تأكيد الحقيقة، فإن دعوتموهم إلى ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: إلى الرشد والطريق المستقيم، لا يستجيبون لكم، لأنهم لا يعقلون، مما يفيد عظيم خطئهم، وقصور عقولهم، وقبح صنيعهم، فلا يعطون ولا يقدمون هداية ولا يهتدون، ولا يقدمون نفعاً، ولا دفع ضر.

ومن نسق البيان أنه في الآية السابقة قال عنهم ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾ وفي هذه الآية ﴿لَا يَسۡمَعُواْ﴾ فانتفى منهم الاستماع كونهم أصنام، وكذلك انتفت منهم الحركة بالاتباع والاهتداء كونها جمادات، وكذلك الحال إذا كان المقصود بهم الكفار، فإنهم لا يستمعون إليكم سماع المصغي ليفهم ويعي، ولا يتبعوكم عند معرفتهم للحق، ليبين مدى تكبر المشركين، وعلى الوجه الآخر ليبين مدى ضعف وقصور حال معبوداتهم، وحال تفكير من يعبدها. وأما في حال أن المقصود بها الأصنام فقد علل الإمام القرطبي رحمه الله تعالى ذلك بقوله: لأن الخبر جرى على فعل من يعقل، وقيل: كانت لهم أعين من جواهر مصنوعة، ولذلك قال ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ وقيل: المراد بذلك المشركون، أخبر عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم[١]

ثم يذكر الله تعالى صفة أخرى من صفاتهم ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ فاجتمع فيهم أمران متناقضان، هما النظر وعدم الإبصار، فتحقق النظر منهم، وامتنع الإبصار والتبصر منهم، مما يدل على أن نظرتهم نظرة الذاهل والمتغافل الذي ينظر ولكن لا يستفيد مما ينظر إليه، وهذا على أن المقصود بهم المشركين، فقد ورد في المقصود بهم أنهم المشركين كما ذكره القرطبي سابقاً، وكذلك ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى[٢]: وتراهم ينظرون إليك بأعينهم، ولا يبصرون بقلوبهم. وهناك دلالة أخرى على أن المقصود بهم معبوداتهم من الأصنام، قال الإمام ابن كثير: أي يقابلونك بعيون مصورة، كأنها ناظرة، وهي جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل، لأنها على صور مصورة كالإنسان ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ فعبر عنها بضمير

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٢١٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٠٨)

من يعقل[١] وهاتان الدلالتان هما من غزارة البيان الكريم، فإن قلت: أن المشركين هم المقصودون والمعنيون بذلك فإن السياق ينطبق عليهم، وإن قلت: أن المقصود بذلك أصنامهم فإن النص الكريم ينطبق عليها كذلك. فهذا النظم من الكلام بهذا السياق لهو من بلاغة الإعجاز البياني، وبلاغة الْحُسن والجمال في تركيب الكلام، حتى استوعب النص الكريم حقيقتين للعابد والمعبود من المشركين وأصنامهم. فسبحان من أعجز ببيانه عباده تبارك وتعالى.

وفي هذا تقرير لحقيقتهم وحقيقة معبوداتهم، أنها معبودات واهية، لا تتوافق مع العقل، ولا مع أبسط الحقائق، وكذلك في هذا البيان تقرير لحقيقة هزيمتهم، من أنها مؤكدة، وكذلك تقرير لحقيقة عقولهم بأنها تائهة واهية، إذ يعبدون ما تقرر عندهم واتضح لهم بأنها أعمال جهل وافتراء، فكيف تعبدون ما تصنعون، وتعبدون ما تملكون، ولا يستجيبون لصوت لكم، ولا نداء. كما أن في هذا البيان من الله تعالى توبيخ لهم ولعقولهم ولفكرهم، ولما يعبدون من دون الله تعالى، وكان الأولى بهم إزاء هذه الحقائق أن يراجعوا أنفسهم، ولكن الكبرياء والحسد يمنعان المتكبر أن يقر بالحقيقة التي اتضحت له كوضوح الشمس.

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّىۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

يأمر الله تعالى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون تبعٌ له بمنهجية أخلاقية رفيعة في التعامل مع الناس ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي: خذ ما عفا لك من تعامل الناس وأخلاقهم، والميسور والسهل والفضل من تعاملهم، من غير كلفة، بما لا يجهدهم ويشق عليهم، مما يفيد الأمر بتجنب استقصاء ما يوجب عليهم الجهد والمشقة، لِمَا في ذلك من تحقيق التآلف والتواد، وحتى لا يتولد ما يوجب استثارتهم ونفرتهم، وهي قاعدة عامة، وعظيمة المنافع، ويدخل ضمنها ما يتعلق بالصدقات والنفقات

[١] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٨٨)

في سبيل الله تعالى، وفي غيرها، ولذلك يعلن النبي صلى الله عليه وسلم عن الغزوة، ثم يُتَاحُ للجميع تقديم ما في وسعهم ومقدورهم. فيذهب من يذهب، ويتخلف من يتخلف، ويقبل عذر من اعتذر ممن تخلف، مما زاد في التفاف الناس عليه صلى الله عليه وسلم، بل كان التفاف الصحابة عليه عظيم رضي الله عنهم، وصلى الله وسلم عليه. ومن توجيهاته العملية والتطبيقية في هذا المقام قوله عليه الصلاة والسلام لعقبة بن عامر رضي الله عنه (يا عقبة ابنَ عامر: صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عَمَّن ظلمك)[١] فهو توجيه كريم، يتعاضد مع الآية الكريمة.

ويأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقاعدة أخرى في التعامل ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ أي: بجميع المعروف دون استثناء، فلم يخصص منه نوعاً محدداً، بل هو شامل لكل معروف من أوجه الخير والصلة والعفو والعطاء وغيرها، مما يربي ويغرس في المسلم البذل، والإحسان إلى الغير بكل وجه مستطاع، وأن يتحمل غيره، حتى يكون قدوة وأسوة دون مقابل من أحد من البشر.

وكذلك يأمر الله تعالى بقاعدة أخلاقية أخرى ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فعليه أن يتحمل ويعرض عمن جهل عليه فيما يجب له صلى الله عليه وسلم، فلا يلتفت للتدقيق والمحاسبة، فيصون النفس عن مقابلة سفههم بمثله، بل يعرض عنهم، وفي هذا الأسلوب من الإعراض ما يكسر نفوسهم، ويحثهم على التأمل والندامة، مع استصغار سلوكهم أمام كريم أخلاقه صلى الله عليه وسلم. فيعلمهم بأخلاقه الحلم وكريم الْخُلُق. ومن التطبيق العملي ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: (كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه بُرد نجراني، غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء)[٢] فأي إعراض أجمل من هذا الإعراض النبوي الكريم عمن جهل بمقامه صلى الله عليه وسلم.

ومن بلاغة البيان وجميل دلالته ودقة مبناه، وحُسن توجيه ألفاظه هو تنوع فعل الأمر في هذه الآية الكريمة بما يناسب المطلوب من الأداء والقيام به، ففي العفو جاء فعل الأمر بالأخذ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ لأنه أخذ استقبال وتَقَبُّل منه لهم، إذ أن فعل العطاء منهم، والأخذ والتقبل يكون منه صلى الله عليه وسلم، فيأخذ ما يحصل منهم بالعفو، بينما في العرف جاء الأمر بالفعل الذي يفيد البذل والعطاء ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ لأنه أداء

(١) أحمد، المسند (٢٨/٦٥٤) برقم (١٧٤٥٢)

(٢) البخاري، صحيح الجامع (٤/٥٨) برقم (٥٨٠٩)

منه صلى الله عليه وسلم لغيره بجميل الأفعال، فهو فعل بذل وعطاء. وأما في مقابلة جهل الجاهلين ورد وجاء بفعل الإعراض ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ وهو فعل ليس فيه أخذ ولا عطاء مباشر، بل يعبر عن التجاهل المبني على التَّحَمُّل بالتغافل والإعراض. ومن نسق البيان بين فعل الجهل وفاعله أن سمى الله تعالى من يجهل على غيره بالجاهل ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ فنسبهم إلى جهلهم الذي جهلوا به على غيرهم. وفي هذا تدليل على أن العارف العاقل لا يجهل على غيره. وفي هذا استحثاث وترغيب للمؤمن بأن لا يجهل على غيره، حتى لا يصبح من الجاهلين الذين جهلوا أدب التعامل، كما أن في هذا التصوير تزهيد للمؤمن في أن يسلك مسلك الجاهلين فيما يسعه من التعامل مع الآخرين.

ومن بلاغة البيان هو جزالة النص الكريم، فكل توجيه من تلك التوجيهات الثلاث، مُكَوَّن من فعل أمر واحد، ومأمور به واحد، وبلفظ واحد ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ ﴾ كلمتان فقط، أمر، ومأمور به ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ ﴾ فعل أمر واحد، ومأمور به واحد، ولا حصر لمفردات مضمونه ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ فعل أمر واحد، وجار ومجرور واحد، واستوعبت التوجيهات جملة من المكارم الأخلاقية التي لا حصر لها، فأي بلاغة بيانية أعظم من بلاغة كتاب الله تعالى.

كما أن في نص هذه الآية الكريمة قاعدة عظيمة كريمة من الله تعالى عن منهجية التعامل مع الآخرين، بما يدل أن هذا الدين هو دين أخلاق رفيعة المقام، وسامقة الهدف، وراقية التهذيب، وبذلك تحقق التواصل والتعاون والتضامن والعطاء والبر والإحسان، وتغرس مسلك التجافي والتغافل عن أفعال وأقوال من يجهل من الناس فيما يجب عليهم. وفيها معالجة للنفس عَمَّا يعتريها من النقص وحب الاستعلاء والانتصار، وفي ذلك ترويض وتربية وتهذيب لها تجاه الحق والخير. فهي قاعدة إذا أخذ بها المؤمن استراح وأراح غيره، ونال عظيم الأجر كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا) [1] وقوله صلى الله عليه وسلم (ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء) [2]

وبعد بيان أخلاق التعامل مع الغير من البشر، يُرشد الله تعالى إلى منهجية التعامل مع نزغات الشيطان ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فلقد أمر الله تعالى في الآية التي قبلها بمنهجية وقواعد التعامل مع الغير من الناس، ومن ضمنهم الجاهلين بحقوق غيرهم. ولَمَّا أن

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٩٦/٤) برقم (٦٠٢٩) ومسلم (١٨١٠/٤) برقم (٢٣٢١)

(٢) أبو داود، السنن (١٥٠/٥) برقم (٤٧٩٩) والترمذي (٣١٨/٤-٣١٩) برقم (٢٠٠٢) واللفظ له.

الإنسان مُعَرَّض لنزغات الشيطان التي قد تمنعه عَمَّا أُمر به، فتؤثر تلك النزغات على مسلك الإنسان في نفسه وفي دينه ومع غيره، ومنها حصول الغضب أو الحسد، وحب التعالي، والانتصار للنفس، فيستغل الشيطان هذا الأمر فيشحنه بنزغاته التي تبعده عن الأخذ بمكارم الأخلاق، والتي منها الإعراض عن الجاهل وجهله، ليصده عن الخير، ويحمله على الشر وحُب الانتصار، فأرشد الله تبارك وتعالى إلى الاستعانة به عَزَّ وجل ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فاستعذ بالله السميع العليم من الشيطان، فإن الله تعالى يسمع ويعلم ما قيل، وما يُقال، ويعلم ما توسوس به النفس من الشيطان الرجيم، وما يدور في خلجاتها. فإن من استعاذ فإنما استعاذ واستعان واستنصر بسميع عليم، ذو قوة على الشيطان وغيره. وفي هذا إرشاد للأخذ بمعية الله تعالى من خلال الاستعاذة به عَزَّ وجل من الشيطان الرجيم، كما أن في هذا تعزيز لثقة المؤمن بربه تبارك وتعالى، بأنه ناصره على الشيطان وكيده ومكره إذا استعان واستغاث به سبحانه وتعالى، مما يجعل المؤمن في ثقة بأن الله تعالى صارف عنه ما يمنعه من الخير ويدفعه إلى لشر والمعصية.

والنزغ يكون للإفساد والإغواء ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ ومنه قوله تعالى على لسان يوسف عليه الصلاة والسلام في سورة يوسف ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ وذلك بالوسوسة الدافعة للوقوع في براثين الشر، وسواء كان في الدين أو مع الغير. لأن الشيطان عدو للمؤمنين، فلا يوسوس لهم إلا بشر. فإما يحمل المؤمن بخلاف ما أُمِر به من الأخلاق، أو بالتقاعس عن فعل المكارم منها، ومن ذلك أن يحمله على ترك قوله تعالى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أو في غيرها من توجيهات الله تعالى، فعالجه العزيز الكريم سبحانه وتعالى بالاستعانة به ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وهو الالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء والاعتصام به عَزَّ وجل، فإن الشيطان لا ييأس من التصدي للمؤمن، فيترصد له من كل جانب كما قال تعالى عن قول الشيطان في هذه السورة ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ فرجاء الشيطان أن يحمل الإنسان على الغواية ما وجد لذلك سبيلا. ولا ملجأ ولا منجا إلا بالاعتصام بالله تعالى فيما أرشد إليه من الاستعاذة به عَزَّ وجل من الشيطان.

ثم يخبر الله تعالى بحال فعل المتقين عندما يعترضهم مس من الشيطان، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ فإن مما يقوم به المتقون لله تعالى حين يمسهم شيء من الشيطان، فألمت بهم لمة منه، فإنهم يتذكرون ما أمر الله تعالى به، وما نهى

عنه، فاستعاذوا بالله تعالى من الشيطان الرجيم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ أي: إذا ألمت بهم لمة من الشيطان كالوسوسة والخطرة والخيال الذي لا حقيقة له، أو ما يراه في نومه فيفزعه، أو بدفعه لارتكاب إثم، أو الامتناع عن خير ﴿تَذَكَّرُواْ ﴾ أي: انتبهوا لهذا الخلل، ولهذا الوارد المخالف لمنهج الله تعالى، فتذكروا ما أمر الله تعالى به، وما نهى عنه، فاستعاذوا بالله تعالى من الشيطان الرجيم ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ فأذا بهم يبصرون الحق، وعرفوا أن ذلك من الشيطان، وصرف الله عنهم كيده بذكرهم لله تعالى واستعاذتهم به من الشيطان، مما يفيد ويقرر أهمية التقوى، فإنها تغرس في المؤمن اعتياد الطاعة، واليقظة من الشيطان ووسوسته وإغرائه، وتبني فيهم مداومة ذكر الله تعالى، فيكون ذلك سبب في تذكر الاستعاذة حال حدوث لمة الشيطان، فيستعينوا وينتصروا بالله تعالى، ويستعيذون به من الشيطان الرجيم، فيدركون الحق بعون الله تعالى وتوفيقه. وجملة ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ تفيد سرعة تحصيل النتيجة، وزوال ما كان من الشيطان، لأنه لا يقوى على من استعاذ بالله تعالى منه.

ويبين الله تعالى الفارق بين منهج تعامل المؤمنين المتقين مع الشياطين عندما تصيبهم منه لمة ووسوسة وخاطرة ،وبين منهج الضالين المضلين ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ فإخوان الشياطين من الإنس الذين ضلوا وتركوا الحق يزيدون ويزدادون في الغي من الجهل والسفه والباطل، وذلك بما تمدهم به الشياطين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا الإنس يقصرون عمَّا يعملون من السيئات، ولا الشياطين تقصر عنهم، فعلى هذا يكون قوله تعالى ﴿يُقْصِرُونَ ﴾ من فعل الفريقين، وهذا على القول المشهور[1] مما يفيد أن من هو في منأى عن الله تعالى فهو مع الشياطين، والشياطين معه، وكل منهم لا يقصر مع الآخر في دفعه للضلال.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى الإعلام والإخبار عن مجادلة المشركين وتعنتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك باقتراح الآيات والحجج ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ فإذا لم تأتهم بما يقترحون من الآيات، تعنتاً منهم ﴿قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ أي: هلا اخترتها، وافتعلتها واختلقتها من تلقاء نفسك، فكأنه هو المنزل للآيات، وهو من باب التعنت والاستهزاء، والتحقير. ولكن الله تعالى يوجه نبيه صلى الله عليه وسلم إلى الأسلوب الأخير والأفضل، فيوجهه إلى ما يقوله لهم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢١٠)

﴿أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ فأنا عبد مأمور، اتبع ما يوحيه الله تعالى إليَّ، فلا أزيد ولا أُنقص منه شيئاً، فليست الآيات والحجج من عندي، فأختار ما أريد، وأترك ما لا أريد، أو أن أُعطيكم ما تريدون وتطلبون، بل بما يوحيه ربي إليَّ.

ثم يوجههم إلى القرآن العظيم، وما فيه من البراهين والخير والحق ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ فهذا القرآن بصائر من ربكم، وليست من عندي، وتسمية ما في القرآن بالبصائر، ما يفيد ويدل ويؤكد أن القرآن حجج وبراهين وبيان، وأن الله تعالى قد أظهر فيه الحق وبينه، ثم نسب الله تعالى البصائر له، تأكيداً وبياناً، ورداً على قولهم ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ وهذا من لطف الله تعالى أنه لم يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بما يستحقون، بل عاملهم بما يدفعهم للحق، فيعطي بذلك منهجية عملية في التعامل الأخلاقي مع من يجهل ويعتدي في الحق.

ويقدم تبارك وتعالى المزيد من وصف القرآن العظيم ﴿وَهُدًى﴾ فهو كتاب هداية، وجاء الوصف مطلقاً، ليشمل جميع أنواع الهداية للخير في الدنيا، ثم إنها هداية مُوصلة لخير الآخرة، فهو هداية يهدي لأحسن الأخلاق، ولأحسن الأحكام والفصل والقضاء، وأحسن الحجج والبراهين، وأحسن القصص، وأحسن الفقه، وأحسن التوحيد، فلا هداية أفضل وأحسن منه للفرد والأسرة والمجتمع. فهو آية وحجة لا تتغير ولا تضمحل، باقية ما بقيت الدنيا. إضافة إلى أن هذا القرآن العظيم رحمة لمن آمن ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فإن آمنتم به فهو رحمة، فإن لم تؤمنوا به فليس لكم من رحمته شيء، فالرحمة مخصوصة للمؤمنين ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ومن سعة ورحابة هذا التوجيه أن الله تعالى أورد الفعل المضارع في هذا المقام ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لتشمل الرحمة الذين آمنوا بدخولهم في الإيمان، والذين سيؤمنون من بعدهم إلى يوم القيامة. وأما الذين كفروا فإنهم لم ينتفعوا بالإنذار، لينتقلوا إلى الإيمان وعمل الصالحات التي هي مرتكز الرحمة.

ثم يستمر توجيه الله تعالى في بيان مقام القرآن الكريم ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ فيوجه المؤمنين أنه حال قراءة القرآن فعلى من يسمعه أن ينصت له، إجلالاً لكلام الله تعالى، وإمعاناً واستماعاً واستفادة لما يُتلى منه ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ﴾ والاستماع هو أن يعطي السامع سمعه لما يسمع، فيسمع ما يقول بالأذن، وأما الإنصات ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ فهو عدم الكلام، لأن الكلام يمنع ضبط الاستماع، وفي هذين الأمرين ما يبين دقة التوجيه الكريم، لأن الإنصات يؤكد قيمة وأهمية الاستماع، ويتحقق

به المقصود والهدف من الاستماع، حتى أنه عَزَّ وجل أوجب لزوم الصمت من أجل سلامة الاستماع الذي يتحقق به التدبر، وإذا كان هذا عاماً فإنه يكون في الصلاة أكثر وجوباً، بل يتحتم على المأموم ذلك خلف إمامه. فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: نزلت في رفع الأصوات، وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة[١] مما يفيد تربوياً وتعليمياً أهمية الإنصات عند الاستماع، فهما أمران متلازمان لتحقيق الانتفاع من العملية التعليمية.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: لما ذكر الله تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يتعمده كفار قريش في قولهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ من سورة فصلت، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة[٢] مما يفيد عموماً: أن الاستماع والانصات مهمان في الفهم عند التلقي. ومن يتأمل السياق للآية الكريمة يجد أن حكمها عاماً، وأما إذا رُبِطَت بسبب النزول فإنها عالجت أمراً كان يحدث في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الحديث أثناء الصلاة. ومن البلاغة البيانية للنص الكريم أنه جمع بين معالجة الأمر الحادث آنذاك وبين الحكم العام الذي ينتقل ويمتد سلطانه من المعالجة السببية إلى الحكم العام الذي يجب أن يكون عليه المسلم عند سماع القرآن الكريم.

ثم يبين الله تعالى ثمرة الاستماع والإنصات للقرآن الكريم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي: ليرحمكم ربكم باستماعكم وإنصاتكم لكلامه سبحانه وتعالى، مما يفيد أن في استماع القرآن والإنصات له ما تتحقق به الرحمة للعبد الذي حقق الاستماع والإنصات للقرآن الكريم، لِمَا فيه من إجلال الله تعالى، وتعظيم كتابه وكلامه عَزَّ وجل. ولأن في استماع القرآن والإنصات له ما يثير حس التدبر والتفكر، ويحقق الفهم والفقه فيما يستمع إليه المنصت، مما يفيد: أن على المؤمن ألا يقتصر ويكتفي فقط بقراءة القرآن الكريم، بل أيضاً يستمع إليه بإنصات، لما يتحقق به من النفع العظيم.

ثم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يذكره كثيراً في أول النهار وآخره، مع بيان لهيئة الذكر. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ فهذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبعٌ له بذكره سبحانه وتعالى ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ ﴾ فجاء الأمر بالذكر بما يفيد العموم، ليشمل ويستوعب قراءة القرآن

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٦٦٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٩١-٢٩٢)

والتسبيح والتهليل والدعاء، وأيضاً يكون بالقلب ويكون باللسان، ويكون بهما معاً. ومن صفات أداء الذكر: أن لا يكون جهراً عالياً، بل من داخل النفس ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ ﴾ أي: داخل نفسك، بما يدل على الإخلاص، ومن صفات الذاكر لله تعالى أن يكون حاله عند ذكره في تضرع ورهبة ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ والتضرع: الخضوع والتذلل[١] وهو الخشوع في تواضع. وأما الخيفة، فهي: الحالة التي يكون عليها الإنسان من الخوف[٢] لتفيد دلالتها: الحذر من عقابه عَزَّ وجل. فيكون ذكر الذاكر: رغبة ورهبة، في تضرع لله تعالى، وذلك بالخضوع والتذلل والمسكنة، رغبة في رضاه سبحانه وتعالى، وخوفاً من عقابه ومن عدم الوفاء بحقه، ومن عدم القبول، مما يحفز ويدفع المؤمن للاجتهاد والإخلاص لله تعالى.

ومن صفات أداء الذكر أن يكون دون الجهر ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ فلا يُرْفَع به الصوت عالياً، لأن الله تعالى قريب، يسمع ويرى، بل يعرف ما توسوس به النفس، وهذا أدعى للخشوع والتدبر والتأمل. وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا، ارتفعت أصواتنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تَدْعُون أصمَّ ولا غائباً، إنه معكم، إنه سميع قريب، تبارك اسمه وتعالى جدُّهُ) [٣]

ويكون الذكر لله تعالى ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ وهذا موعد تخصيص من بين سائر الأوقات، لبيان أهمية هذين الوقتين وفضلها للذكر من بين سائر الأوقات، وإلا ذكر الله تعالى يكون في جميع الأوقات، وهذين الوقتين أخص الأوقات لفضلها بما فضلها الله تعالى لذكره، وخاصة ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾ الذي هو: أول النهار ﴿وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ آخر النهار ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ فالزم ذكر الله تعالى حتى لا تكن من جنس الغافلين الذين ألهتهم الدنيا عن ذكر الله تعالى، وقد سمى الله تعالى من يلتهي عن ذكره بالغافل ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ مما يدل على أن المنشغل والملتهي عن ذكر الله تعالى من الغافلين عن مصلحته في الدنيا والآخرة، لأن الله تعالى لا ينتفع بذكر أحد من خلقه، فهو الغني عن كل شيء، وكل شيء فقير إليه. مما يدل على عظيم أجر ومنزلة الذكر والذاكر، وعظيم خسارة من فقد الذكر. مما يفيد أن ذكر الله تعالى ينقل صاحبه من الغفلة إلى اليقظة بمصالح الدنيا والآخرة. فإن الله تعالى يعينه على البعد عن الغفلة، ويبعد الغفلة عنه، ويوفقه ويسدده،

(١) الفيومي، كتاب المصباح المنير (٤٩٢/٢)
(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (١٦٢)
(٣) البخاري، صحيح الجامع (٣٥٦/٢) برقم (٢٩٩٢)

وأيضاً يجازيه بما يناسب فعله من الخير وزيادة، فكما لزم ذكر الله تعالى، ولم يغفل عنه، أبعده الله تعالى عن الغفلة، وأبعد الغفلة عنه.

ثم يبين الله تعالى في ختام هذه السورة العظيمة المباركة حال الملائكة في الملأ الأعلى، بأنهم على أكمل المواضبة في عبادتهم الله تعالى، وعلى ذكره، وعلى إخلاص السجود والتذلل له وحده لا شريك له ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ﴾ فالذين عند الله تعالى من عباده، وهم الملائكة لا يستثقلون ولا يتعالون عن عبادة الله تعالى، بل إنهم في كمال طاعتهم وتذللهم ومحبتهم ورغبتهم في طاعة الله تعالى وعبادته: من الخضوع والتذلل، وكمال الانقياد والطاعة لِمَا أمرهم الله تعالى به، فهم يثنون على الله تعالى ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُۥ ﴾ أي: يمجدون الله تعالى ويذكرونه عَزَّ وجل بما عَلَّمَهم من التسبيح والتعظيم، والتنزيه عن كل عيب وسوء ﴿ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ﴾ أي: يصلون، وجاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ فقلنا: يا رسول الله! وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف الأُوَل، ويتراصون في الصف)[١] وفي الآية الكريمة استنهاض للهمم بأن يقتدوا بالملائكة في عبادتهم وإخلاصهم، وتواضعهم، وكثرة ذكرهم لله تعالى، وتنزيهه عن كل سوء، مما يبين أن المؤمن إذا اقتدى فعليه أن يقتدي بالأكمل والأحسن في كل أمر، فيسعي نحو الأفضل والأخير، ولا ينظر إلى من هو دونه في العبادة، بل ينظر إلى من هو أكمل منه، فيقتدي به. بل حتى أن الحديث الذي تم إيراده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، استحث الصحابة رضي الله عنهم بأن يتأسوا بالملائكة في صلاتهم، واصطفافهم فيها، وإكمال الصفوف، مما يدل على أهمية القدوة، وأهمية الإرشاد لها، والتأسي بها.

وبهذا فقد تم بفضل الله تعالى الانتهاء من بيان فوائد سورة الأعراف، فالحمد والشكر والثناء لله تعالى بما هو أله عَزَّ وجل على ما أنعم وتفضل به من العلم والعون والهداية والتوفيق. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى آله.

(١) مسلم، صحيح مسلم (٣٢٢/١) برقم (٤٣٠)